

سلسلة ندوات

مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية

ندوة

الإسلام ومجتمع المعرفة

٤- ٥ربيع الأول ١٤٣٠هـ

٢-٣ مارس ٢٠٠٩م





ديوان البلاط السلطاني

مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية



ندوة

الإسلام ومجتمع المعرفة

٤-٥ ربيع الأول ١٤٣٠هـ

٢-٣ مارس ٢٠٠٩م

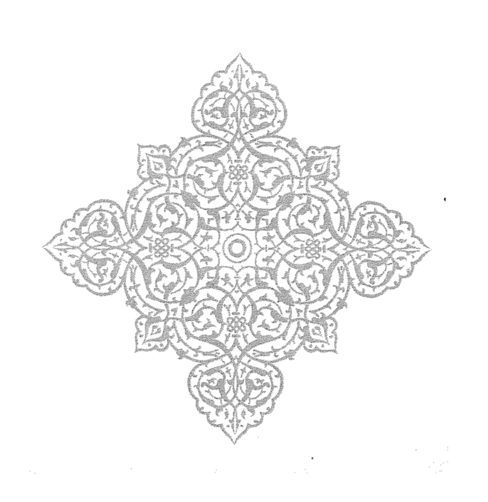
بقاعة المحاضرات جامع السلطان قابوس الأكبر

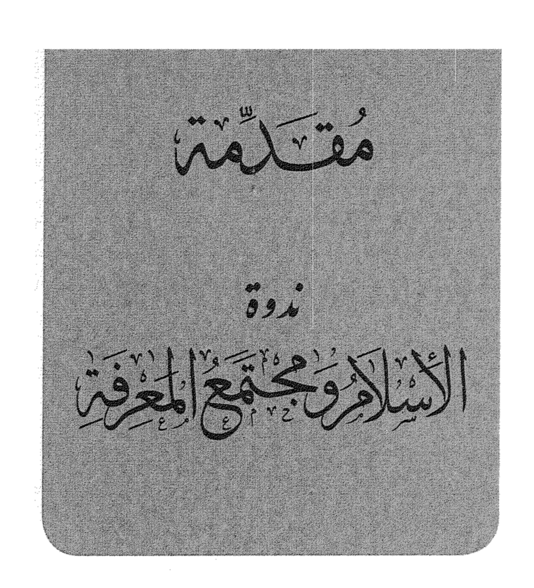
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

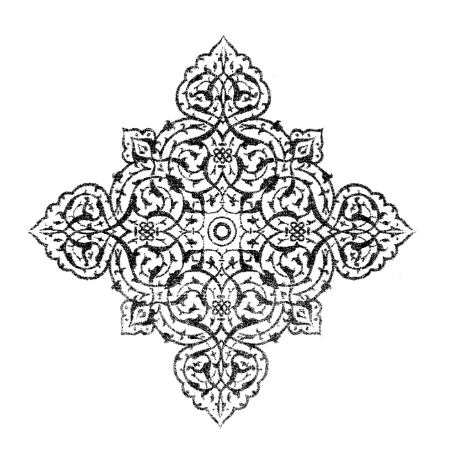
ص.ب: ٣٠٦٦ روي، الرمز البريدي: ١١٢، سلطنة عمان
هاتف: ٢٤٨٣٧٧٠١ - ٢٤٨٣٧٧٠٢ ، فاكس: ٢٤٨٣٥١٦١
www.sqcic.gov.om

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٣١٩

المحتويات




مُقَدِّمَة
ندوة
الإسلام ومجتمع المعرفة



بسم الله الرحمن الرحيم

* أهـــــداف الندوة :-

١- الوقوف على مفاهيم مجتمع المعلومات ، ومجتمع المعرفة ، وتمحيصها.

٢- اكتشاف معالم مجتمع المعرفة القادم ، وخصائص تكونه ، وقوانين حراكه الاجتماعي، ومدى التحولات التي فرقته عن صيغ المجتمعات السابقة الزراعية ، والصناعية.

٣- التعرف على موقع الإســلام مــن مجتمع المعرفة، وعلى معالم الخطاب الإسلامي الملائم له.

٤- مناقشة التصورات القاصرة في فهم أبعاد مجتمع المعرفة.

٥- الوقوف على بعض معالم تجارب مجتمع المعرفة في العالم الإسلامي.

* محـــاور النـــدوة :-

تشتمل الندوة على أربعة محاور رئيسية ، تتفرع منها محاور فرعية على شكل أوراق عمل مقدمة للندوة ، كالآتي :-

❑ المحـــور الأول: مجتمع المعرفـــة (البنية والمفهوم) :-

ويشتمل على أربع أوراق بحثية، هي :-

١- مجتمع المعلومات، ومجتمع المعرفة (في البنية الاجتماعية لمجتمع المعرفة):-

وتتناول الورقة الفرق بين مصطلحي مجتمع المعرفة، ومجتمع المعلومات، والخلاف الدائر بينهما في توصيف الحالة المجتمعية القادمة ، والأبعاد المترتبة على كلا المصطلحين ، كما تناقش التغييرات التي سيصنعها مجتمع المعرفة على البنى الاجتماعية التقليدية ، والخصائص المطلوبة لتشكيل مجتمع المعرفة العربي وشروط قيامه ، ومدى بعد أو اقتراب المجتمعات العربية في صورتها الراهنة من صيغة مجتمع المعرفة.

٢- التدفق المعلوماتي، والغرق المعرفي :-

وتناقش الورقة أهم خصائص مجتمع المعرفة (التدفق المعلوماتي) وتأثيرات ذلك على البنية الثقافية، إضافة إلى تحليل دورة المعرفة ، وأبعاد ما يتركه الغرق المعرفي

من إرباك ثقافي وحضاري، كما تناقش الورقة مفهوم الفجوة الرقمية أو المعرفية، وآثارها على الدول النامية.

٣- **الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة :-**

وتتناول الورقة قضية الثوابت والمتغيرات في خضم مجتمع المعرفة ، والحدود الاجتماعية المتباينة من مجتمع لآخر.

٤- **التعليم محرك مجتمع المعرفة (النظام التعليمي في ظل مجتمع المعرفة) :-**

وتطرح الورقة موضوع النظام التعليمي كمحور ارتكاز في مجتمع المعرفة ومهامه المستقبلية المواكبة للمتغيرات ، ودور التعليم في تمكين الهوية والشعور بالانتماء دون تعصب أوقبول لما لا يفيد عصرنا الحاضر؛ لأنه فقط من الموروث، كما تطرح الورقة قضية توطين المعرفة، ودور البحث العلمي في تأسيس مجتمع المعرفة.

- **المحور الثاني : الرؤية الإسلامية لمجتمع المعرفة :-**

ويشتمل على ثلاث أوراق بحثية ، هي :-

١- **مصادر القيم الأساسية لمجتمع المعرفة :-**

وتتناول الورقة منظومة العولمة، والقيم التي تبثها بوصفها مشتركاً إنسانياً، متجاوزة القيم الخاصة المحددة للهوية ، بحيث يتم توضيح مصادر القيم الأساسية، وانبثاقها من داخل المجتمع ومن خلفيته الحضارية.

٢- **العلوم الشرعية في عصر الانفتاح المعرفي :-**

وتطرح الورقة قضية وضع العلوم الشرعية في مجتمع المعرفة ، بوصفها مجموعة من المناهج العلمية الساعية إلى تحرير العقل الإنساني من الخرافات، والأوهام، والتصورات الباطلة ، وتحرير النفس الإنسانية من النزعات المدمرة، ووضع التصورات الصحيحة للألوهية، والكون ، والإنسان، والحياة، واستنباط الأحكام الشرعية التعبدية والعملية.

٣- **التجديد وآفاق مجتمع المعرفة :-**

وتناقش الورقة التجديد ، وجهود الإصلاح الفكري والثقافي قديماً وحديثاً، بالإضافة إلى إعادة النظر في توجهات النهضة والتجديد في ضوء واقع مجتمع المعرفة.

❑ **المحور الثالث : الآفاق العربية لمجتمع المعرفة :-**

ويشتمل على ثلاث أوراق بحثية ، هي :-

١- **لغة المعرفة ، والتوحد الثقافي :-**

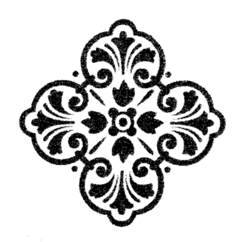
وتدرس هذه الورقة قضية اللغة العربية كمقوم من مقومات التكتل العربي المعلوماتي ، واكتشاف الفرص لإعدادها لتكون وسيلة تخاطب مجتمع المعرفة العربي.

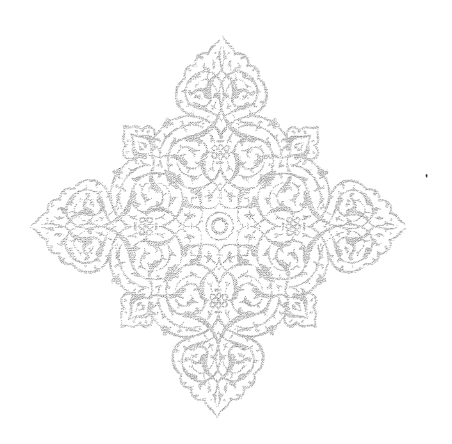
٢- **حدود التشابه، ونقاط الافتراق في تجارب مجتمع المعرفة :-**

وتجيب هذه الورقة على السؤال : ما نقاط التشابه ، والافتراق بين المجتمعات التي تريد أن تكون مجتمعات معرفة؟

٣- **آفاق مجتمع عمان الرقمي في ضوء مجتمع المعرفة :-**

وتعالج هذه الورقة المبادرات المرتبطة بمجتمع المعرفة الرسمية منها وغير الرسمية، وقياسها ، وتقييمها من جهة الشمول والاستيعاب لتحديات المرحلة جميعها ، ودراسة قدرتها على المساعدة في تشكيل مجتمع المعرفة.

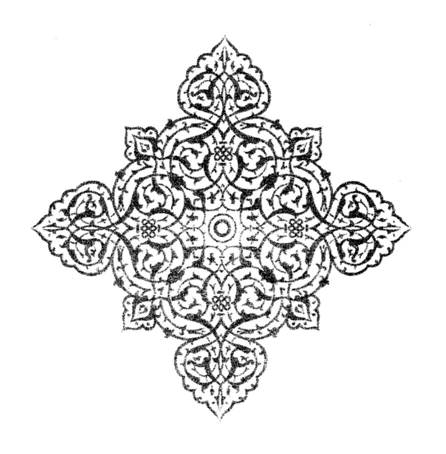




مجتمع المعلومات
ومجتمع المعرفة
(في البنية الاجتماعية لمجتمع المعرفة)

أ.د. نبيل علي(*)

(*) مدير شركة النظم المتقدمة للغات المتعددة بجمهورية مصر العربية،، وله العديد من الإنجازات العلمية الرائدة في مجال برمجيات الذكاء الاصطناعي، وأسهم في إعداد دراسات وخطط لمنظمات عربية، ودولية، وله عدد كبير من الدراسات والأبحاث المنشورة في قضايا عصر المعلومات ومجتمع المعرفة، والعلاقة بين اللغة والحاسوبيات منها: الثقافة العربية وعصر المعلومات، الفجوة الرقمية، العقل العربي ومجتمع المعرفة.





أولا : مقدمــــة :

١ / ١) تقديم مجتمع المعرفة :

كما أفرزت تكنولوجيا الصناعة مجتمعا مختلفا عن مجتمع الزراعة، كذلك أفرزت تكنولوجيا المعلومات مجتمعا مختلفا عن مجتمع الصناعة، ولكن شتان بين هذا الاختلاف وذاك، فالنقلة النوعية إلى مجتمع المعرفة تفوق سابقتها بكثير، سواء من حيث عظمة الآمال التي تبشر بها أو جسامة المخاطر التي تنطوي عليها، وقد تعددت أسماء هذا المجتمع الجديد، واتخذت سلسلة مترادفاته نمطا متصاعدا من حيث درجة الارتقاء الاجتماعي، تمثله الثلاثية التالية:

- **مجتمع المعلومات :** وليد الفيض الكثيف من المعلومات وتطبيقات المعلوماتية التي تسري داخل المجتمع لدعم أنشطته، وتفسير ظواهره، وحل مشكلاته، وتصويب أدائه.
- **مجتمع المعرفة :** القائم على استغلال المعرفة كأهم مورد للتنمية الاقتصادية والنماء الاجتماعي بصفة عامة.

- **مجتمع التعلم :** وهو يمثل - في سياقنا الراهن - ذروة الارتقاء المجتمعي، حيث يزخر المجتمع بكثير من الموجودات القادرة على التعلم ذاتيا، وذلك بعد أن أصبحت ملكة الذكاء غير مقصورة على الإنسان فقط، بل أصبحت خاصية موزعة على الآلات والأدوات والنظم والمؤسسات، وذلك بفضل انتشار نظم المعلومات وهندسة الذكاء الاصطناعي وآليات التحكم التلقائي، ومجتمع التعلم المنشود له ذكاؤه الجمعي، وذاكرته الجمعية، وشبكة أعصابه الجمعية (وتمثلها شبكة الإنترنت في الوقت الراهن)، وله كذلك وعيه الجمعي المتمثل في معارفه ومدركاته وخبراته، بل له لاوعيه الجمعي أيضا، الذي يعمل تحت طبقات متراكمة من القيم والعقائد والإيديولوجيات والأعراف وما شابه.

١ / ٢) تحديات إقامة مجتمع المعرفة العربي والفرص المتاحة :

(أ) التحديات التي يواجهها العالم العربي على صعيد السياق الفكري الثقافي في مجتمع المعرفة تحدي اللحاق بمعدل التطور السريع للفكر الإنساني، تحدي استئناس التنوع الثقافي تحدي

الحوار الغائب بين الفنون العربية وتكنولوجيا المعلومات، ينبثق من السياق الفكري الثقافي عدة فرص متاحة للوطن العربي، من أهمها تجديد الفكر العربي للثقافة كمدخل للتكتل العربي.

(ب) التحديات التي يواجهها العالم العربي على صعيد السياق التربوي في مجتمع المعرفة:

- تجاوز أزمة التربية.
- سباق مع الكارثة.
- تحدي أعباء الاقتصاد التربوي.
- تحدي تحقيق الغايات الأربع لتربية مجتمع المعرفة.

* برغم كل هذه التحديات ينبثق من السياق التربوي الراهن فرص عدة، من أهمها:

التربة هي أملنا.

- استغلال فتوة التوزيع السكاني.

(ج) التحديات التي يواجهها العالم العربي على صعيد السياق اللغوي في مجتمع المعرفة:

- تحدي أزمة اللغة العربية الراهنة.
- تحدي تجديد الفكر العربي اللغوي.
- تحدي تحديث أساليب تعليم العربية وتعلمها ذاتيا.
- تحدي تطوير برمجيات ذكية لتعليم وتعلم اللغة العربية.
- تحدي تهميش اللغة العربية عالميا.

* برغم كل هذه التحديات ينبثق من السياق اللغوي الراهن فرص عدة، من أهمها:

- عالمية العربية وتحديات العولمة.
- استغلال تكنولوجيا اللغات.
- استغلال التحالف العالمي ضد هيمنة اللغة الإنجليزية.

(د) التحديات التي يواجهها العالم العربي على صعيد السياق الإعلامي في مجتمع المعرفة:

- تحدي الأزمة الإعلامية.
- التناقض الجوهري الكامن في منظومة الإعلام العربي.
- تحدي ولاء الإعلام للسلطة الحاكمة.
- تحدي إعلام الإنترنت.

* يتيح السياق الإعلامي عدة فرص، أهمها:
- استغلال اللغة العربية كميزة تنافسية في مجال الإعلام.
- لغة الإعلام العربي كأداة للإصلاح اللغوي.
- استغلال الإعلام تعليميا.
- إنتاج إعلامي يتميز بالإبداع.

ثانيا: مجتمع المعرفة والهوية:

٢/١) لماذا سؤال الهوية؟ نظرة معلوماتية:

إن الذود عن الهوية العربية في واقعنا الراهن يتجاوز - بالحتم - كونه آلية من آليات الدفاع عن الذات التي تعاني الإحباط تحت ضغوط هاتكة تأتيها من خارجها وقيود قاسية تنبع من داخلها، والسبب في ذلك أن سؤال الهوية يطرح نفسه بشدة هذه الأيام بدافع النقلة النوعية التي يمر بها المجتمع الإنساني صوب مجتمع المعلومات والمعرفة، وهو المجتمع الذي تعد الثقافة فيه - بلا منازع - محور التنمية المجتمعية الشاملة.

من جانب آخر، تتخذ الحملة الضارية التي تشنها المراكز الغربية على الهوية العربية من المعلوماتية أمضى أسلحتها في ترسانة القوى اللينة (الرمزية) التي لا تدخر جهدا في حشدها ضدنا.

علاوة على ما سبق، فإن تناول سؤال الهوية من منظور معلوماتي يحظى بمزيد من الأهمية، نظرا للتالي:

الهوية والثقافة والحضارة ما هي في جوهرها - كما يرى البعض - إلا نظام للمعلومات، لذا فتناول سؤال الهوية من منظور الرؤية المعلوماتية هو بمثابة تصد لها انطلاقا من جوهر الرؤية المعلوماتية - بلا ريب - أكثر من غيرها قدرة على كشف تناقضات العولمة، وليدة المتغير المعلوماتي، وتعرية آلياتها الخفية التي تعمل من خلالها لتفويض الهويات القومية، وتهميش الثقافات المحلية، وبنفس القدر تستطيع هذه الرؤية الكشف عن كوامن التخلف التي تعاني منها الأمة العربية، وإبراز مواضع القوة التي تمكنها من تجاوز هذا التخلف.

وأخيرا وليس آخرا فإن مواجهة الفجوة الرقمية(Digital Divide) التي تفصل بين عالمنا العربي والعالم المتقدم تتطلب. كما أيقن الكثيرون. تكتلا عربيا، وقد أصبحت صحوة الهوية شرطا أساسيا لتعبئة عربية واجبة سواء لتغيير القائم الراهن، أو لاستيعاب القادم المتسارع.

٢/٢) عن علاقة الهوية بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات:

(أ) العلاقة بين الهوية و «ت.م.ص» عبر مسار الرؤية الشاملة للعالم: تعرف الهوية بصفتها المنظار الذي يرى الفرد من خلاله ذاته ومجتمعه، وبصفتها ـ أيضا ـ معيار الحكم على الأمور. وتتضح صلة هذا التعريف بالمعلوماتية ما أن ندرك كيف أصبحت تكنولوجيا المعلومـات والاتصــالات هي الأخرى منظارا نرى العالم من خلاله؛ من خلال شاشات التليفــزيون وشاشات الكمبيوتر، ولوحات التحكم، ونماذج المحاكــاة (simulation models) وما شابه.

(ب) علاقة الهوية بـ «ت.م.ص» عبر مسار العولمة: وكما خلص البعض هناك محركان أوليان للعولمة وهما: تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعلى رأسها شبكة الإنترنت، سيطرة الليبرالية الجديدة، ويقصد بها انتصار إيديولوجية اقتصاد السوق الحر، والنمط الاستهلاكي، وإعلام الترفيه والخصخصة وما إلى ذلك.

إن هذين المحركين يعملان سويا على زعزعة الدولة القومية وتهميش الهويات الثقافية، ومن أخطر أسلحة العولمة تهديدا للهوية الثقافية هو عولمة الإعلام التي أوشكت أن تطيح بالاستقلالية الإعلامية للدول النامية، ومما يزيد الأمر خطورة هو ذلك التوجه الحالي لجيل الإنترنت الثاني، ذي السعة العالمية لتدفق البيانات (broad band) والذي سيشهد اندماجا ما بين الإنترنت والتليفزيون والجيل الثالث من الهواتف النقالة، وهو ما يعني مزيدا من الاكتساح لمؤسسات الإعلام في دول العالم الثالث.

(ج) لقاء الهوية مع «ت.م.ص» عبر مسار الرمزية: تكمن العلاقة الوثيقة بين الهوية «ت.م.ص» في صلة كل منهما بالرمز، ومن المسلم به أن تكنولوجيا المعلومات ـ بحكم طبيعتها ـ تقع برمتها في مجال التعامل مع الرمز، وينطبق هذا على المقومات الرئيسة لمنظومة الهوية كما طرحناها سلفا؛ فاللغة والإنتاج الفكري والإبداعي هما أنساق

رمزية شديدة الارتباط فيما بينها، والتراث في معظمه هو الحصاد الرمزي للإنجاز الحضاري، أما الدين فمن ضمن تعريفاته التي يطرحها علم الأنثروبولوجيا هو نسق من الرموز يرسخ لدى الإنسان حالة وجدانية ودوافع قوية وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود، وتشير دلائل عديدة إلى أن تكنولوجيا المعلومات سيكون لها دور حاسم في بلورة هذه العلاقة الدينية الرمزية.

(د) علاقة الهوية بـ «ت.م.ص» عبر مسار اللغة: ثقافة كل أمة كامنة في لغتها، كامنة في معجمها، ونحوها، ونصوصها. واللغة العربية - بلا شك - هي أبرز ملامح ثقافتنا العربية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطا بالهوية، وهي اللغة الإنسانية الوحيدة التي صمدت ١٧ قرنا، سجلا أمينا لحضارة أمتها في ازدهارها وانتكاسها، وشاهدا على إبداع أبنائها، وهم يقودون ركب الحضارة، ودليلا على تبعيتهم وقد تخلفوا عن هذا الركب.

لقد أصبحت اللغة - بلا منازع - ركيزة الفكر الثقافي الحديث بمدارسه المختلفة (البنيوية - ما بعد البنيوية - ما بعد الحداثة. ما بعد الكولونيالية - التفكيكية) في نفس الوقت الذي أصبحت فيه - أي اللغة - رابطة العقد للخريطة المعرفية، حيث تنفرد اللغة بكونها المجال المعرفي الوحيد الذي يرتبط بعلاقات وثيقة مع جميع الفروع المعرفية الأخرى؛ مع علوم الإنسانيات، والطبيعيات، والفنون، والفلسفة.

بالإضافة إلى ما سبق، تندمج تكنولوجيا المعلومات، بذكائها الصناعي وهندسة معرفتها، مع الميكروبيولوجي الحديث، بسفره الوراثي ولغة جيناته، في علاقة علمية - تكنولوجية مثيرة لم تشهدها الإنسانية من قبل اللغة، وبذلك تبوأت اللغة قمة الهرم المعرفي بلا منازع.

(هـ) علاقة الهوية بـ «ت.م.ص» عبر مسار المعتقدات ومنظومة القيم: تظهر الثقافة حساسية خاصة إزاء ظاهرة الدين، واختلاف دوره في ثقافات الشعوب. وقد وصلت هذه الحساسية إلى أوجها مع ظاهرة العولمة، وما صاحبها من حديث حوار الثقافات وصراعها، الذي تتصدره الجوانب المتعلقة بالدين، وهو ما حدا بالفكر الغربي أن يعيد اكتشاف الآخر وإعادة اكتشاف نفسه بالتالي، أما علاقة الدين الإسلامي بالثقافة فهي أكثر تعقيدا وتشعبا، فالإسلام في الفكر الإسلامي دين ودنيا؛ وبناء على ذلك فهو يحتوي الثقافة بأسرها في عباءته.

تندر لدينا البحوث التي تتناول علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا، ومعظم هذا النادر، يقوم به باحثون من أهل العلم، لا من أهل الدين. إننا في أمس الحاجة إلى إعداد نوعية جديدة من الباحثين الدينيين على طراز عصر المعلومات، قادرين على الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا. ولا شك أن جامعاتنا الدينية، وعلى رأسها جامعة الأزهر، أقدر من غيرها على إعداد هؤلاء الباحثين الجدد.

هذا عن أثر المتغير المعلوماتي على الفكر الثقافي فيما يخص أمور العقيدة، أما فيما يخص منظومة القيم، لقد نجم عنه ظهور فروع أخلاقية مستجدة تشمل:

أخلاقيات التكنولوجيا(techno-ethics).

أخلاقيات التكنولوجيا الحيوية(bio-ethics).

أخلاقيات الإعلام (media-ethics).

أخلاقيات الإنترنت (internet-ethics).

(و) علاقة الهوية بـ «ت.م.ص» عبر مسار التراث: يشمل التراث: التاريخ، والآثار، وتراث المعمار، والإسهام الحضاري: فلسفة وعلما وعملا والفنون والتراث الشعبي والمحفوظات والوثائق، وجميع هذه الفروع بلا استثناء تمر حاليا بثورة حقيقية بفعل تكنولوجيا المعلومات.

(ز) علاقة الهوية بـ «ت.م.ص» عبر مسار الإنتاج الفكري والإبداعي: تنبثق علاقة الإنتاج الفكري مع تكنولوجيا المعلومات من تلك النقلات النوعية التي أحدثتها هذه التكنولوجيا، على مدى الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة، والتي تشمل أساليب النفاذ إلى المعرفة واستيعابها وتوظيفها وتوليد المعرفة الجديدة وإهلاك المعرفة المتقادمة، أما على صعيد الإنتاج الإبداعي فتنبثق العلاقة مما أحدثته في مجال الإبداع الفني من توفير وسائل مبتكرة لدعم المبدع والمتلقي على السواء، وإذا ما انتقلنا إلى طرف الهوية فلسنا بحاجة إلى تأكيد أهمية علاقتها بالإنتاج الفكري والإبداعي، فالفكر هو الذي يثري الهوية بزاد معرفي متجدد يحفظ لها حيويتها ويعيد طرح مقولاتها في صيغ متجددة يمكن من خلالها أن تساهم في صنع الحاضر، والإنتاج الإبداعي هو الذي يظهر روعة تراثها ويفجر طاقاتها الكامنة.

من جانب آخر، فقد عصفت أعاصير عصر المعلومات بكثير من الأسس التي قامت عليها صروحنا الفلسفية، وهياكلنا المعرفية، ووسائل إنتاجنا ونظمنا الاجتماعية: سياسية كانت أم اقتصادية، إعلامية كانت أم تعليمية، أمنية كانت أم أخلاقية. إنه - أي عصر المعلومات - ذو شغف عظيم بالتحطيم والإحلال وإعادة البناء.

لقد أعملت تكنولوجيا المعلومات معول الهدم في كل اتجاه، وراحت تحطم - بلا هوادة - الحواجز الفاصلة بين العديد من المجالات التي كانت تبدو، حتى عهد قريب، متباعدة بل متباينة أحيانا، فها نحن نرى انهيار كثير من الحواجز بين فروع علوم الطبيعيات المختلفة، وبينها وبين علوم الإنسانيات، وبين العلوم والفنون، وبين التكنولوجي والأخلاقي، وبين البيئي والاجتماعي، وبين السياسي والإعلامي، وبين الإعلامي والأمني.

ثالثا: عن أهمية اللغة في مجتمع المعرفة:

٣/١) عن دور اللغة في منظومة المجتمع:

اللغة - بلا منازع - هي أبرز سمات المجتمع الإنساني، وهي الأداة التي تصنع من المجتمع واقعا، والوسيلة الأساسية التي تحدد صلة الإنسان بهذا الواقع، فهي - أي اللغة - المنظار الذي من خلاله يدرك الإنسان عالمه، وهي العامل الحاسم الذي يشكل هوية هذا الإنسان، ويضفي على المجتمع طابعه الخاص، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها، كامنة في معجمها ونحوها ونصوصها، و« هوية كل أمة هي نتاج المعاني التي يشيدها أفرادها عبر اللغة»[1]، وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشري - في رأي كثيرين - إلا ويبطن في جوفه صراعا لغويا، وتشهد على ذلك عولمة اليوم حيث تلعب اللغة فيها دورا حاسما سواء كانت هذه العولمة وفاقا، أو صراعا.

لم تصدق هذه المقولات، ومثيلاتها، عن أهمية اللغة في صياغة المجتمع الإنساني قدر ما تصدق على مجتمع المعرفة، سواء بالنسبة للآمال العظام التي يبشر بها، أو التحديات الجسام التي ينطوي عليها. هذا عن اللغة بصفة عامة، أما بالنسبة للغة العربية فتكتسب

---

(١) - وردت عبارة «الهوية نتاج المعاني الذي يشيدها الأفراد عبر اللغة» في مقدمة كتاب «التمثيل الثقافي بين المرئي والمكتوب» تأليف د.ماري تريز عبد المسيح والذي أصدره المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة - عام ٢٠٠٢م.

هذه المقولات مزيدا من المصداقية والأهمية، فاللغة العربية ـ بلا شك ـ أبرز ملامح الثقافة العربية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطا بالهوية، وارتهانا بالمتغيرات الاجتماعية والتاريخية.

٣ / ٢) عن تعاظم دور اللغة في مجتمع المعرفة :

لقد تعاظم دور اللغة في مجتمع المعرفة، ويرجع ذلك إلى عوامل عديدة تناولها الكاتب في دراسة سابقة[١] نلخص أهمها فيما يلي:

- **محورية الثقافة** في مجتمع المعرفة فلم تعد الثقافة مجرد بنية فوقية، أو عنصرا ضمن عناصر أخرى تتكون منها منظومة المجتمع، بل أصبحت الثقافة هي المحور الأساسى الذي تدور في فلكه عملية التنمية المجتمعية الشاملة.

- **محورية اللغة** في منظومة الثقافة نتيجة لتعاظم الدور الذي تلعبه اللغة في جميع العناصر الفرعية المكونة لمنظومة الثقافة في مجتمع المعرفة، والتي تشمل: الفكر والإبداع، والتربية، والإعلام، والتراث، ونظام القيم، والمعتقدات.
- **محورية تكنولوجيا** المعلومات في منظومة التنمية التكنولوجية الشاملة، في حين أصبحت معالجة اللغة آليا بواسطة الكمبيوتر هي من أهم محاور تكنولوجيا المعلومات، فاللغة هي المنهل الطبيعي الذي تستقي منه هذه التكنولوجيا أسس ذكائها الاصطناعي، وقواعد معارفها، وهي التي تكسب النظم الخبيرة وأجيال الإنسان الآلي القدرة على محاكاة الوظائف البشرية، والتكيف التلقائي مع البيئة المحيطة.

تعاظم أهمية موقع اللغة على خريطة المعرفة، حيث ازدادت علاقة اللغة توثقا مع جميع فروع المعرفة على اختلاف أنواعها، فلسفة وعلوما وفنونا، حتى أوشكت فلسفة العلم أن تصبح مرادفا لفلسفة اللغة، وكاد المدخل اللغوي أن يصبح نهجا معرفيا عاما (النهج اللغوي linguistic paradigm) لا تستهدي به علوم الإنسانيات فقط، بل العلوم الطبيعية أيضا؛ فلكل علم طبيعي ـ كما قيل ـ شق سردي، وخير شاهد على ذلك ما أسفر عنه الميكروبيولوجي الحديث بلغته الوراثية وسفره الجيني، وقد تزايدت نتيجة لذلك تطبيقات نظم المعلومات في البيولوجيا الميكروية، والهندسة الوراثية، إلى أن أصبحت فرعا

(١) - نفس المصدر السابق.

متخصصا قائما بذاته، ألا وهو المعلوماتية البيولوجية (bio-informatics)، والتي تعد اللسانيات الحيوية (bio-linguistics) من أهم أسسها النظرية.

مجتمع المعرفة هو ـ أيضا ـ مجتمع التعلم مدى الحياة، والذي لا يقتصر فيه التعلم على البشر دون سواهم، فهو يمتد ليشمل الآلات والنظم والمؤسسات؛ بل الخلايا والفيروسات أيضا، وقدرة كل من هذه الكائنات على التعلم يرتكز أساسا على اللغة، سواء كانت لغة إنسانية طبيعية، أو لغة برمجية اصطناعية، أو لغة جينية بيولوجية.

يحتاج مجتمع المعرفة تواصلا أوسع نطاقا وأكثر تنوعا، خاصة فيما يتعلق بالتواصل الإنساني عن بعد، أو الحوار بين الإنسان والآلة، وهو الأمر الذي يحتاج ـ من جانب ـ إلى تجديد النظرة إلى مهارات التواصل الأساسية: قراءة وكتابة، وشفاهة وسماعا، ومن جانب آخر إلى تأصيل العلاقة بين اللغة بصفتها النسق الرمزي المحوري، مع الأنساق الرمزية الأخرى: أشكالا وأصواتا وأداء تعبيريا أو حركيا.

وأخيرا وليس آخرا، يتعاظم الدور الذي تلعبه اللغة على صعيد السياسة والاقتصاد بعد أن أصبحت اللغة من أشد الأسلحة الأيديولوجية ضراوة؛ وذلك بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والتجارة سيطرتها على أجهزة الإعلام الجماهيرية، بل صناعة الثقافة بوجه عام، في نفس الوقت الذي تعمل فيه هذه القوى ـ من خلال اللغة أساسا ـ على توليد خطاب معرفي يخدم مصالحها بصورة مباشرة، أو يتخلل نسيج البنى المجتمعية ليمارس دور الأيادي الخفية التي تتحكم في أداء النظم والمنظمات والمؤسسات والأسواق، ويتحكم ـ بالتالي ـ في أقدار المجتمعات والجماعات والأفراد.

٣/٣) اللغة العربية وتحديات العولمة من منظور إسلامي:

أضافت ظاهرة العولمة مزيدا من الأهمية لدور اللغة في العلاقات بين الدول والشعوب فإذا نظرنا إلى العولمة بوصفها وفاقا فاللغة ذات شأن جليل في حوار الثقافات؛ حيث من المتوقع أن يتخذ أنصار العولمة من علوم اللغة مرتكزا أساسيا لعولمة الثقافة، فهؤلاء العولميون لا يقرون بالخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب، ويقفون ـ بشدة ـ ضد النسبية الثقافية، والنسبية اللغوية بالتالي. وهم ـ بلا شك ـ سيجدون ضالتهم في التنظير اللغوي الحديث؛ حيث تندرج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة.

لسنا بحاجة هنا إلى تأكيد أهمية الدفاع عن الخصوصيات الثقافية للشعوب العربية والإسلامية أمام تيار العولمة الجارف خاصة في ظل راهنها الحالي الذي يدفع بالعولمة صوب تجنيس ثقافي جارف يجد في الإسلام أكبر عائق أمام تنفيذ استراتيجياته العولمية، في نفس الوقت علينا أن نتصدى للفهم الخاطئ للنسبية الثقافية، والنسبية اللغوية بالتالي، حيث يتمادى بعض اللغويين العرب في تفسيرهم لهذه النسبية استنادا إلى أن اللغة العربية، لكونها لغة القرآن، لها تميزها الفريد الذي يسمو بها فوق جميع اللغات، لذا فهي لا تخضع للنظريات اللغوية العامة (universal)، ويتطلب الأمر بالتالي تنظيرا خاصا بها أسوة بما قام به بعض المفكرين الإسلاميين في فروع معرفية أخرى كالاقتصاد والطب وخلافه، وهذا بلا شك توجه سلبي ينطوي على الكثير من المخاطر فهو يحرم التنظير للغة العربية من مصادر معرفية هو في أمس الحاجة إليها، بعد أن أصاب هذا التنظير الجمود والتشبث العاجز بما خلفه السلف العظيم من تراث لغوي غاية في الثراء دونما جهد حقيقي لتجديده.

إن إخراج اللغة العربية من النظرية العامة للغة يتناقض جوهريا مع عالمية الإسلام، وما أظهرته اللغة العربية من قابلية هائلة للاحتكاك اللغوي خلال عصور الفتح الإسلامي، علاوة على ذلك فإن اللغة العربية تجمع من المزايا والخصائص التي يمكن أن تجعل منها نموذجا لغويا عاما تندرج في إطاره كثير من لغات العالم الأخرى، ويكفي الإشارة هنا إلى أنها ـ أي العربية ـ تجمع بين الفعلية والاسمية، وفي تعديل الأسماء بين الوصل والوصف (relativization and adjectivization)، وفي تكوين الكلمات بين الاشتقاق والإلصاق، وفيما يخص التقديم والتأخير تتخذ العربية موضعا وسطا بين صرامة رتبة الكلمات كما في الإنجليزية والمرونة المفرطة في هذه الرتبة كما في اليابانية والهنغارية.

وإذا ما نظرنا إلى العولمة بوصفها صراعا فمصدره ـ من المنظور اللغوي ـ في كيف تضيق الإنجليزية الخناق على ما عداها من اللغات؟ وهي توشك أن تخرج منفردة كلغة عالمية أو « إسبرانتو الأمر الواقع » كما يقولون، وتتعرض العربية لحركة تهميش نشطة، بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية على الصعيد السياسي، والاقتصادي، والعلمي، والتكنولوجي والمعلوماتي. وتشارك العربية ـ في ذلك ـ معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التي نشهدها حاليا ضد الإسلام، ومن ثم، ضد العربية، نظرا إلى شدة الارتباط بينهما.

صاحب انتشار ظاهرة العولمة تنامي نزعة التكتل الإقليمي على أساس لغوي، ولم يكن ذلك لمجرد المحافظة على الهوية والخصوصية الثقافية، بل تحركه دوافع اقتصادية وسياسية وأمنية في المقام الأول. وفي هذا الصدد، تشهد أوروبا ـ حاليا ـ توجهين متناقضين. أحدهما: يقوم على أساس التنوع اللغوي، والآخر: يميل إلى الانغلاق في إطار التوحد اللغوي. فبينما يعتبر الاتحاد الأوروبي التنوع اللغوي (١٧ لغة) مصدرا لقوتها الاستراتيجية في مواجهة القطب الأمريكي المتشبث بأحاديته اللغوية، تسعى ألمانيا إلى إقامة حلف لغوي ألماني يجمع بينها وبين النمسا وسويسرا. ولمجموعة الدول الإسكندنافية مشاريع مشابهة للتكتل اللغوي. وعلى مستوى ما فوق الإقليمي، يسود الساحة السياسية العالمية ـ حاليا ـ نشاط متزايد لإحياء التحالفات اللغوية مثل «الأنجلوفونية» و« الفرانكفونية » و« الإسبانوفونية ».

أمام هذا التكتل تعمل قوى الخارج، وبعض قوى الداخل، على تفتيت الأمة الإسلامية، وقطع أواصر التواصل الثقافي بين شعوبها، ومن أمضى الأسلحة لتحقيق ذلك هو شرذمة اللغة العربية إقليميا؛ لكونها المنطلق الأساسي للتكامل الثقافي بين الشعوب الإسلامية، حيث تنبع علاقة اللغة العربية بالمجتمعات الإسلامية ـ أصلا ـ من علاقتها بالنص القرآني، هذا النص السماوي الجامع والمرجع اللغوي الشامل المتاح للجميع، لذا كانت اللغة ـ وستظل ـ مدخلا أساسيا لدراسة التراث الإسلامي، وركيزة أساسية لتجديد النظرة لهذا التراث، علاوة على كونها أداة فعالة لكشف ما يستتر وراء الخطاب المعادي لهذا التراث، سواء من قبل بعض المستشرقين الكلاسيكيين، أو « المستشرقين الجدد »، مستشرقي عصر المعلومات، إن جاز التعبير، والذي اشتد سعير حملتهم المعادية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولن يدخروا جهدا في تفويض أسس التكتل اللغوي بوسائل عديدة من أهمها: تضخيم مشكلة تعدد اللهجات العربية، وتقسيم اللغة العربية بين لغة مشرقية ومغربية وخليجية ويمنية وما شابه ذلك.

لقد أصبح من الضروري أن نعيد النظر في هذه المشكلة من منظور معلوماتي، وفي ظل التوجهات الحديثة لعلم اللغويات الاجتماعية، وقناعة الكاتب الراسخة أن جهود إحياء التكتل الثقافي العربي، تساندها وسائل الإعلام الحديث، قادرة على التغلب على هذه المشكلة، واستحداث لغة عربية فصحى ميسرة تعمل كرابطة العقد بين اللهجات العربية المختلفة.

من جانب آخر، هناك تحديا أكثر خطورة هو التحدي اللغوي الإسرائيلي، وهو أحد فروع التحدي الثقافي الإسرائيلي الذي نشهده حاليا، سواء على الصعيد الأكاديمي الذي يسعى إلى توليد خطاب معرفي مؤازر للاستراتيجيات الإسرائيلية في المنطقة، أو على جبهة الإنترنت المتمثل في الحملة الضارية التي تشنها المواقع اليهودية على الثقافة العربية، والحضارة الإسلامية، وتبدي مراكز البحوث الإسرائيلية، ومن يتحالف معهم من مراكز ومعاهد خارج الكيان الصهيوني، اهتماما متزايدا بالتراث الإسلامي من شعر الرثاء إلى شعر عرب الأندلس، ومن النصوص الدينية إلى السير الشعبية، والفنون الفلكورية.

رابعا: تجديد أساليب تناول النصوص الدينية:

٤/١) ظهور علم النص:

لا تقتصر نصوص العقائد، بمعناها الواسع، على الكتب السماوية فقط، بل تشمل- أيضا- نصوص التفسير، والتشريع والفتوى ومواثيق المذاهب والطوائف، وحكم الفلاسفة، وأقوال الحكماء، ومآثر القديسين، وسير الأقدمين، وأساطير الأولين. لقد أعادت الأنثروبولوجيا المعاصرة الهيبة إلى النصوص الدينية القديمة، ناظرة إلى تطور العقائد الإنسانية في إطار مسار تاريخي، تتواصل فروعه مع جذوره، ويترك ماضيه آثار «حفرياته الرمزية» على حاضره، هذا ما فعلته الأنثروبولوجيا الرمزية بنصوص الماضي، أما تكنولوجيا المعلومات والأرشفة الإلكترونية، فقد جاءت لتضيف إلى نصوص الماضي نصوصا من الحاضر تتضاعف بمعدلات متزايدة، وهكذا استحالت النصوص الدينية، لأي دين أو مذهب أو طائفة، إلى قاعدة هائلة من ذخائر النصوص السحيقة والقديمة والوسيطة والحديثة، وكوكبة هائلة من النصوص المكملة والشارحة، المؤيدة والمناهضة.

ظهرت الطباعة، وأوشك عصرها أن يولي، دون أن نولي اهتماما بما تعنيه النقلة النوعية من التواصل شفاهة إلى استخدام النص المكتوب. ظل هذا الوضع غائبا عن الأذهان إلى أن جاءت تكنولوجيا المعلومات، والإنترنت ونصوص وثائقها الإلكترونية لتكشف لنا: كم نحن غرقى في فيض النصوص التي تحيط بنا من كل صوب، دون أن نكتشف طبيعة هذه النصوص، وآلياتها وتأثيراتها وعلاقاتها ودورها الاجتماعي؟ وعلى ما يبدو، كان لا بد من ظهور تكنولوجيا المعلومات؛ حتى تجعل من النص إشكالية حقيقية، لا بد أن نأخذه بمنتهى الجدية، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بالنصوص الدينية، وهكذا

ظهر إلى الوجود علم تحليل الخطاب (discourse analysis) أو « علم النص » كما يطلق عليه أهل الفرنسية.

٤ / ٢) فروع علم النص الحديث:

كما يوضح (شكل ١) يصب في علم النص الحديث الفروع المعرفية التالية:

(شكل ١) الفروع المعرفية لعلم النص الحديث:

(أ) علم اللسانيات.

(ب) علم العلامات (السيميولوجيا).

(ج) علم المنطق الحديث.

(د) علم اجتماع المعرفة.

(هـ) علم نفس المعرفة.

(و) علم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة.

سنستعرض فيما يلي أهم توجهات كل فرع من هذه الفروع المعرفية ومغزاها بالنسبة إلى النص القرآني، وهي توجز ما أورده المؤلف بخصوصها في كتابه «الثقافة العربية وعصر المعلومات»؟

(أ) **علم اللسانيات** كفرع من فروع علم النص: يمر حاليا علم اللسانيات بمرحلة حاسمة، ينتقل فيها من تحليل الجملة، إلى تحليل الخطاب أو النص. لقد فوت اللغويون العرب فرصة اللحاق بثورة اللسانيات منذ منتصف الخمسينيات، وهي تتعامل مع اللغة على مستوى وحدة الجملة، فهل لهم أن يلحقوا بها وهي تتهيأ لدخول دنيا النص؟. إن النص القرآني الشريف، ومحوريته، تتيح للمنظرين اللغويين المسلمين أن يسهموا مساهمة جادة في هذا المجال الحيوي الجديد، حيث تمثل معظم الخصائص اللغوية للنص القرآني، سواء فيما يخص ألفاظه أو معانيه، أو إيقاعه الصوتي، وما اتصفت به من حلاوة وطلاوة وسلاسة، وما شابه؛ تمثل هذه الخصائص قضايا لغوية ساخنة في مجال دراسة الأداء اللغوي (linguistic performance) وتتبلور معظم هذه الألفاظ العامة - حاليا - في صورة مصطلحات علمية دقيقة، على المنظرين المسلمين أن يلحقوا بها في بدايتها.

يحتاج ذلك - ضمن ما يحتاجه - إلى ضرورة إعادة النظر في مسألة المجاز القرآني، من منظور دلالي ومعجمي وبراجماتي، وذلك بعد أن بات مستقرا أن المجاز خاصية أصيلة من خصائص اللغات الإنسانية، وأنه ظاهرة متفشية حتى على مستوى الألفاظ والمعاني الدارجة التي تبدو لنا حرفية في ظاهرها. إن المجاز هو مصدر التوسع في المعنى، وقدرة اللغة على امتصاص المفاهيم الجديدة، ولا جدال في أنه - أي المجاز - قضية شائكة للغاية، خاصة بالنسبة إلى نص محكم كالنص القرآني، وعلينا أن نقر أن فهمنا لظاهرة المجاز ما زال قاصرا، معجميا ودلاليا وثقافيا. إن التوسع في المجاز يميع اللغة، ويفقدها - بالتالي - قدرتها على إتيان البرهان وتحديد المعاني، في المقابل، فإن تضييق المجاز يخنق اللغة، ويجعلها أقل قدرة على التكيف، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للنص القرآني وعالميته، وضرورة تصديه لإشكاليات العصر. إن المتغيرات العديدة لعصر المعلومات ستقحم النص الشريف في العديد من القضايا الشائكة والمستجدة؛ بحيث يستحيل علينا تناولها، إن تشبثنا بحرفية تفسيرنا لمعانيه، وبمحدودية استنتاجنا لمقولاته.

(ب) **علم السيميولوجيا كفرع من فروع علم النص:** يتعهد علم السيميولوجيا - في سياقنا الحالي بالأمور المتعلقة بالأجناس الأدبية المختلفة (كالشعر والرواية، والقصة القصيرة، ...)، ويقوم على مفهوم الأكواد التي يبعث بها النص إلى قارئه، والذي تقع عليه مسؤولية فك شفرة هذه الأكواد. ويمكن للكود أن يكون لفظا لغويا صريحا، أو إيحاء مستترا، أو إيقاعا تنغيميا، أو وقفة صوتية، أو تشبيها مجازيا، أو تركيبا نحويا، أو موضع فصل أو وصل بين الجمل والفقرات، أو علاقة دلالية أو مقامية، أو إشارة إلى معلومة سابقة أو واردة، أو إحالة إلى معرفة على العهدية، وما شابه. تتضافر كل هذه الأكواد في نقل مضمون النص إلى قارئه، والذي يتوقف فهمه لهذا المضمون على آلياته في فك شفرات هذه الأكواد، والتي تتوقف - بالتالي - على خلفيته وهدفه من وراء قراءة النص.

إن كل نص يولد لغته الخاصة، ويضع قائمة شفراته بالتالي، والمعنى المعجمي ما هو إلا بداية رحلة البحث عن ذلك المعنى المرجأ دوما. وما إن نعبر «عتبة» المعنى المعجمي؛ حتى نجد أنفسنا نستخدم لغة الشفرة التي يقيمها النص وفقا لجنسه الأدبي، أو لغته الداخلية

الخاصة. بقول آخر، لم تعد اللغة وحدها تكفي للكشف عن مضمون النصوص، فعلى سبيل المثال معظم ألفاظ القرآن ومعانيه، كأسماء الله الحسنى، وأوصاف نبينا الكريم، والجنة والنار، والخير والشر، هي - في حقيقة أمرها - شفرات رمزية لا مجرد ألفاظ.

من جانب آخر فإن القرآن لا يخضع للتصنيفات المعهودة لأجناس النصوص الأدبية، فهو نص له جنس خاص به، يَجُبُّ كل الأجناس الأدبية الأخرى. بناء على ذلك، يمكن النظر إلى النص القرآني كبيئة نصية مثالية لاختيار علاقة فك الشفرات بجنس النص، وكيفية امتزاج أجناس النصوص، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتكنولوجيا الوسائط المتعددة (multi-media).

(ج) **المنطق الحديث كفرع من فروع علم النص:** عجز منطق أرسطو القاطع عن معالجة النصوص اللغوية بصفة عامة، ناهيك عن النصوص الدينية، وقد تحدث كثيرون عن علاقة نحو اللغة العربية بمنطق أرسطو ذي الطابع القاطع، والذي تعزى إليه النزعة الاطرادية لدى معظم نحاتنا القدامى في سعيهم الحثيث إلى تفسير الشاذ اللغوي في إطار المطرد. وعلى مر العصور، وحتى يومنا هذا، يحاول البعض دون جدوى إخضاع اللغة لمنطق أرسطو، منطق الرتبة الأولى (first order logic)، فكيف تخضع اللغة لهذا المنطق الصوري القاطع الذي تستحيل فيه المقولات اللغوية إلى مجردات لا صلة لها بالواقع الذي تعبر عنه..؟. لقد فشل منطق أرسطو ذو الرتبة الأولى في التعامل مع اللغة بغموضها، واحتمالاتها ولبسها، وفي أن يتناول الحدث اللغوي في زمنيته وانفعالاته وبراجماتياته، وهو ما أدى إلى ظهور رتب أعلى من المنطق (high-order logics).

(د) **علم اجتماع المعرفة:** يتناول علم اجتماع المعرفة علاقة الارتباط بين ثقافة المجتمع والظروف السائدة، والنماذج المعرفية العليا التي يمكن له أن يولدها، وكذلك العلاقة ما بين الاعتقاد الديني ونظام القيم، وبين مناهج التفكير السائدة في المجتمع، ودور نظام المعتقدات في عمليات انتشار الثقافة، وانحلالها داخل المجتمعات(٤)، وتفرض علينا عالمية الإسلام دراسة متأنية للنص القرآني في البيئات الاجتماعية المختلفة، فلا شك أن موقع النص القرآني يختلف ما بين تركيا العلمانية وإيران الإسلامية، وبين أقلية مسلمي الألبان في الصرب، وبين الأقلية المسلمة في الفلبين والهند، ويجب

إعطاء مزيد من الاهتمام لعلاقة النص القرآني مع الإعلام الجماهيري، وذلك من خلال توظيفه معرفيا في تناول القضايا السياسية والاقتصادية.

(هـ) علم نفس المعرفة كفرع من فروع علم النص: بينما يدرس علم النفس السلوكي العلاقة بين المؤثرات الخارجية وسلوك الأفراد، يدرس علم النفس المعرفي أثر البنى المعرفية، الكامنة داخل المخ، على سلوك الأفراد ورؤاهم الاجتماعية، ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى العالم، فعلى سبيل المثال، يمكن لبنى معرفية، كالبنى الهرمية متعددة المستويات، أن ترسخ لدى الفرد احترام سلطة من هم أعلى منه، وتنمي لديه الشعور بالمسؤولية تجاه من هم دونه في درجات السلم الهرمي، وتوحي له برؤية ظواهر العالم، نزولا من الأعقد إلى الأبسط، أو صعودا من الخاص إلى العام، وهكذا. وعلم نفس المعرفة ذو صلة وثيقة بعلم النفس اللغوي وعلم النفس التربوي، وكذلك بتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، وهندسة المعرفة.

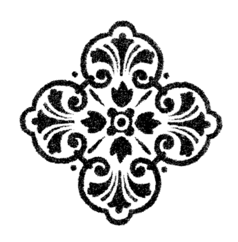
يساهم علم النفس المعرفي في إماطة اللثام عن الكيفية التي يتلقى بها الإنسان المسلم نصه القرآني؟ وكيف ينمو لديه هذا الشعور النفسي بتقديس الرموز الدينية وتبجيل القيم السامية، ورفض القيم المتدنية؟ وما الذي يبقى من النص الديني في ذاكرة الإنسان بعد تكرار الإنصات له؟ وما علاقة خلفيته العلمية بمدى استيعابه لمضمون النص؟.

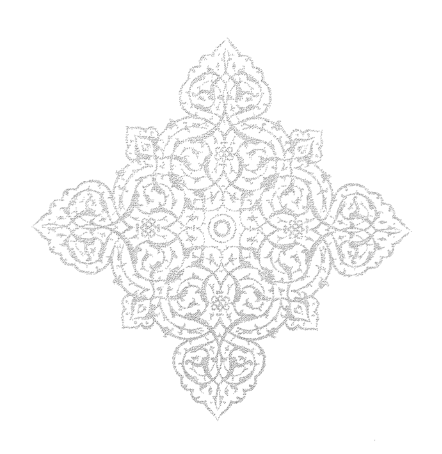
(و) علم الذكاء الاصطناعي كفرع من علم النص: يقوم علم الذكاء الاصطناعي، فيما يخص معالجة النصوص، بتمثيل المعرفة المتضمنة في النصوص بصورة دقيقة ورسمية (formal)، باستخدام أساليب هندسة المعرفة، وتسجيل هذه المعرفة في هيئة قواعد معارف (knowledge bases)، أو في صورة قواعد، رياضية أو منطقية، أو على هيئة شبكات دلالية (semantic nets)، أو مخططات مفاهيم (conceptual graphs).

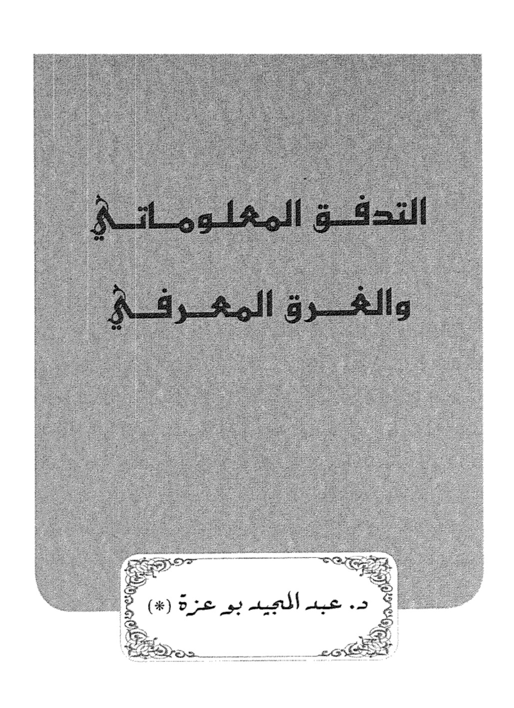
ستطبق المراكز الأكاديمية في الغرب، إن آجلا أو عاجلا، أساليب الذكاء الاصطناعي، ونظم الفهم الأتوماتي لمضمون النصوص في التحليل الدلالي العميق للنص القرآني لذلك فإن من واجبنا أن نبادر ـ نحن ـ بالقيام بهذه المهمة؛ وذلك بالإسراع في تمثيل النص القرآني منطقيا ومفهوميا، وكذلك في تطوير آلات استنتاج (inference machines) تستطيع استظهار المعاني المستترة بين ثنايا الألفاظ. إن تفسيرنا للنص القرآني يحتاج إلى دعم

حقيقي من تكنولوجيا المعلومات، حتى لا نظل أسرى التحليل اللغوي المباشر لمعاني الألفاظ والجمل. إن ذلك يتطلب التعمق في علوم الدلالة الصورية (formal semantics) والمنطق الحديث واللسانيات الحاسوبية، وكذلك ضرورة تعزيز معجمنا العربي بالبيانات اللازمة للتحليل الدلالي.

يأمل الكاتب بعد استعراضه لفروع علم النص أن تتضح مدى الحاجة إلى نقلة نوعية في معالجة اللغة العربية آليا تتجاوز ظاهر الألفاظ، وسطحية التراكيب، إلى عمق المضمون، والنظر إلى شبكة العلاقات الكثيفة التي تموج بها النصوص.



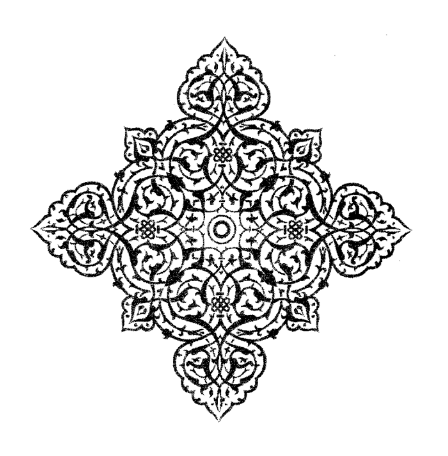




التدفق المعلوماتي والفرق المعرفي

د. عبد المجيد بو عزة (*)

*) يعمل أستاذا مشاركا بقسم علم المكتبات والمعلومات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية في جامعة السلطان قابوس، ونشر له العديد من البحوث والدراسات في مجلات علمية عربية، وفرنسية، وكندية، وقد حصل على جائزة الباحث المتميز من جامعة السلطان قابوس عام ٢٠٠٦م.



بسم الله الرحمن الرحيم

يجمع الإنتاج الفكري حول الموضوع أن الإنسان يعيش في بيئة تتسم بتخمة المعلومات (info glut). ويشير (Shenk) في هذا الخصوص إلى أننا محاطون بضباب البيانات[1]. كما يتضمن هذا الإنتاج الفكري مصطلحين آخرين يستخدمان لوصف مشكل الغرق المعرفي وهما (إصابة الإنسان بالشلل في مجال التحليل[2]، وبمتلازمة أرق المعلومات[3]. ويلاحظ الباحث في هذا المجال أن عدة مجالات معرفية مثل علم الإدارة، وعلم المعلومات وعلم الحاسوب، والطب وعلم الاجتماع وعلم النفس تشير بكثافة إلى الغرق المعرفي، فالجميع يعاني من هذه الظاهرة. ولكنه لا يوجد تعريف معياري متفق عليه بخصوص هذا المفهوم. و عليه، فإن الغرق المعرفي يمكن أن يتضمن أكثر من معنى ودلالة. وبناء على ذلك، يمكن أن يعني الغرق المعرفي حصول الفرد على كم هائل من المعلومات بما يتجاوز قدرته على استيعابها أو الإفادة منها. كما يمكن أن يعني الغرق المعرفي تلك الحالة التي يجد فيها الفرد نفسه يرزح تحت وطأة حمل المعلومات بسبب توافر كميات هائلة من المعلومات غير المرغوب فيها وإن كان جزء منها قد يكتسي أهمية بالنسبة لحاجته[4].

يشير كلاب في هذا الخصوص إلى أن توافر كم هائل من البيانات يحدث ضجيجا أو تشويشا (noise) لدى الفرد مما يجعله عاجزا عن معالجة المعلومات بطريقة فاعلة، ويفتقر إلى التركيز، أو يعاني من الإجهاد والضغوط النفسية، الشيء الذي يزيد من احتمال ارتكاب الأخطاء[5]. و يصف فيذر (Feather) الغرق المعرفي بتلك الحالة التي يتكدس فيها فيض كبير من المعلومات بما يعيق الفرد عن توظيفها بطريقة فاعلة[6].

وسيتم استخدام مفهوم « حمل المعلومات » و « الغرق المعرفي » في هذه الدراسة للدلالة على ذلك الشعور الذي ينتاب عددا كبيرا من الناس، بأن في حوزتهم كميات كبيرة من المعلومات بما يستنزف وقتهم، ويجعلهم يشعرون بالإجهاد بما يؤثر سلبا على قدرتهم

(1) - (data smog shenk,1997).
(2) - (1997, analysis paralysis)(Stanley Cipsham).
(3) -(information fatigue syndrome) (oppenheim, 1997) .
(4) - (Butcher, 1998).
(5) - (klapp, 1986).
(6) - (Feather, 1998).

على الإفادة منها، وتوظيفها في حل مشكل قائم، أو اتخاذ قرار، وعادة ما يصاحب هذه الظاهرة بأرق نتيجة قلق الفرد من أن هناك معلومات ذات قيمة فقدت في خضم المعلومات ذات العلاقة بالموضوع الذي يحظى باهتمامه.

تعريف حمل المعلومات والغرق المعرفي:

يقترح جاكسون (Jackson) تعريفا إجرائيا مبسطا لمصطلح حمل المعلومات. وعليه، فإن حمل المعلومات والغرق المعرفي يحدث عندما يتجاوز كمّ المعلومات التي ينبغي معالجتها طاقة الفرد في مجال المعالجة خلال الوقت المتوفر للغرض(١).

حمل المعلومات والغرق المعرفي: المظاهر والتجليات:

تشير دراسة قام بها هيربيغ و كرامر (Herbig and Kramer) إلى أن الأمريكي العادي يتعرض يوميا إلى حوالي ٦١,٥٥٦ كلمة تبثها وسائل الإعلام المختلفة والقنوات التلفزية والراديو والصحف ..) و يعني ذلك أن الأمريكي العادي يتعرض إلى ٤٠٠٠ كلمة في كل ساعة من ساعات اليوم الواحد أي إلى ٦٠ كلمة في كل دقيقة(٢).

وتأخذ ظاهرة حمل المعلومات والغرق المعرفي أبعادا أخرى عندما نأخذ بعين الاعتبار بعض الجوانب الأخرى، إذ تشير إحصائيات نشر الكتب في العالم إلى أن إجمالي عناوين الكتب الجديدة التي تنشر يوميا يبلغ ١٠٠٠ عنوان، وهو ما يجعل إجمالي الكتب الجديدة التي تنشر شهريا يستقر ما بين ٣٠ و ٣١ ألف عنوان. و إذا ما ضرب هذا العدد في ١٢ شهرا فإنه يصل إلى ٣٦٦ ألف عنوان سنويا، على اعتبار أن معدل أيام الشهر الواحد هو ٣٠,٥ يوم.

ووفقا لبعض التقديرات فإن المعرفة البشرية المنشورة تتضاعف كل خمس سنوات، وأن الطبعة الأسبوعية من صحيفة نيويورك تيمز (New York Times) الأمريكية تحتوي على قدر من المعلومات يفوق ما كان الفرد العادي الذي عاش في القرن السابع عشر قادرا على الحصول عليه من معلومات ومعارف طوال حياته. وقد تجاوز حجم المعلومات التي تمّ إنتاجها خلال الثلاثين سنة الأخيرة ما تحقق خلال ٥٠٠٠ سنة الماضية من تاريخ البشرية(٣).

---

(1) - (Jackson, 2001).
(2) - (Herbig and Kramer, 1994).
(3) - (Emirates Women, 1998).

و ازدادت حدّة مشكل حمل المعلومات والغرق المعرفي بسبب الازدياد لأسّي لكمّ المعلومات الرقمية، التي تنشر في وسائط متنوعة، من أهمها شبكة الإنترنت. ووفقا لإحصائية حديثة فإن عدد مواقع الويب قد بلغ ١٠٨,٨١٠,٣١٦ موقعا خلال شهر فبراير ٢٠٠٧. وبما أن كل موقع ويب يحتوي في المتوسط على ٢٧٣ صفحة ويب، فإن إجمالي صفحات الويب المنشورة على شبكة الإنترنت يكون في حدود ٢,٩٧٠ بليون أي ما يقارب ثلاثة بلايين صفحة[1].

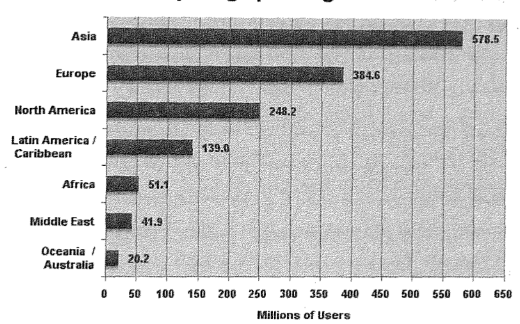
وفي نفس الفترة التي شهدت ازديادا أسّيا، في مواقع الويب وصفحاتها، فقد سجّل عدد المستخدمين لشبكة الإنترنت في العالم تطوّرا مماثلا، حيث بلغ عددهم ١,٤٦٣,٦٣٢,٣٦ مستفيدا. وجاءت أكبر نسبة من مستخدمي الإنترنت من آسيا، حيث بلغ عددهم ٦٠٠ مليون مستخدماً تلتها أوروبا بحوالي ٤٠٠ مليون مستخدماً ثم الولايات المتحدة بحوالي ٣٥٠ مليون مستخدماً، فأمريكا اللاتينية (١٣٩ مليون مستخدماً)، فإفريقيا (٥١ مليون مستخدماً) ثم الشرق الأوسط (حوالي ٤٢ مليون مستخدماً)، فأستراليا ونيوزلندة ب٢٠,٢ مليون مستخدماً. وسجل أكبر معدل في زيادة عدد المستخدمين لشبكة الإنترنت في الشرق الأوسط (١,١٧٦,٨٪) وفي إفريقيا (١,٠٣١,٢٪). وبلغ معدل زيادة المستخدمين للإنترنت على مستوى العالم إجمالا خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٠٨ ٣٠٥,٥٪[2].

INTERNET USAGE STATISTICS
The Internet Big Picture
World Internet Users and Population Stats

WORLD INTERNET USAGE AND POPULATION STATISTICS						
World Regions	Population (2008 Est.)	Internet Users Dec/31, 2000	Internet Usage, Latest Data	% Population (Penetration)	Usage % of World	Usage Growth 2000-2008
Africa	955,206,348	4,514,400	51,065,630	5.3 %	3.5 %	1,031.2 %
Asia	3,776,181,949	114,304,000	578,538,257	15.3 %	39.5 %	406.1 %
Europe	800,401,065	105,096,093	384,633,765	48.1 %	26.3 %	266.0 %
Middle East	197,090,443	3,284,800	41,939,200	21.3 %	2.9 %	1,176.8 %
North America	337,167,248	108,096,800	248,241,969	73.6 %	17.0 %	129.6 %
Latin America/ Caribbean	576,091,673	18,068,919	139,009,209	24.1 %	9.5 %	669.3 %
Oceania / Australia	33,981,562	7,620,480	20,204,331	59.5 %	1.4 %	165.1 %
WORLD TOTAL	6,676,120,288	360,985,492	1,463,632,361	21.9 %	100.0 %	305.5 %

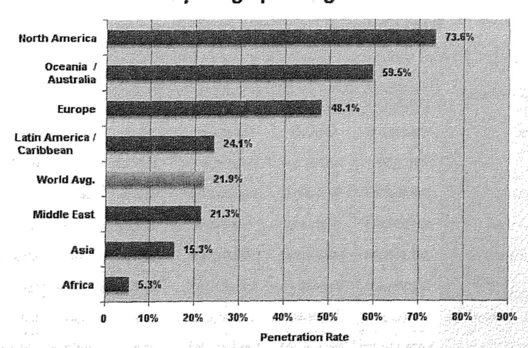
(1) - (Boutell,2008).
(2) - (Internet World Stats, 2008)

Internet Users in the World
by Geographic Regions

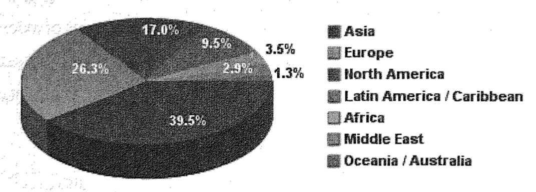


Source: Internet World Stats - www.internetworldstats.com/stats.htm
Estimated Internet users is 1,463,632,361 for Q2 2008

World Internet Penetration Rates
by Geographic Regions



Source: Internet World Stats - www.internetworldststs.com/stats.htm
Penetration Rates are based on a world population of 6,676,120,288 for mid-year 2008 and 1,463,632,361 estimated Internet users.



Source: Internet World Stats - www.internetworldstats.com/stats.htm
1,463,632,361 Internet users for June 30, 2008
Copyright © 2008, Miniwatts Marketing Group

البريد الإلكتروني عامل مساهم في ظاهرة حمل المعلومات:

يمثل البريد الإلكتروني أحد العوامل التي زادت في تفاقم حدّة مشكل حمل المعلومات، فقد ازدادت شعبية البريد الإلكتروني كأداة اتصال خلال السنوات الأخيرة على مستوى الأفراد والمؤسسات. فالفرد الواحد قد يتلقى المئات من الرسائل الإلكترونية من داخل المؤسسة التي يعمل بها ومن خارجها في اليوم الواحد، بما يتجاوز قدرته على الاطلاع عليها، وتمييز ما له قيمة من بينها. و وفقا لبعض الإحصاءات، فإن عدد الرسائل الإلكترونية التي كانت تتدفق في اليوم الواحد خلال ٢٠٠٦ تجاوز ٦٠ بليون رسالة في مختلف بلدان العالم، بعد أن كان ذلك الرقم لا يتجاوز ٣٢ بليون رسالة خلال ٢٠٠٢.

و استنادا إلى بعض التقديرات، فإن الموظف الواحد في البلدان الغربية يخصص يوميا ما بين الساعتين والساعتين والنصف لقراءة أو تصفح البريد الإلكتروني الذي يتلقاه.

و كشفت بعض الدراسات أن التكلفة الناتجة عن البريد الإلكتروني المنعدم القيمة بحساب كل ١٠ آلاف موظف تبلغ ١٦ مليون دولارا سنويا في الولايات المتحدة[1]. و تعزى هذه التكلفة إلى أن تخصيص الموظف ربع ساعات العمل لإدارة بريده الإلكتروني من شأنه أن يلهيه عن الأنشطة المنتجة، وذات المردود بالنسبة للمنظمة. و لا يقتصر التأثير

(1) (Groff, 2002).

السلبي للبريد الإلكتروني على المنظمة وإنما يشمل أيضا الأفراد حيث كشفت دراسات لعلماء النفس أن تراكم رسائل البريد الإلكتروني ينتج عنه ما بات يعرف ب « أرق البريد الإلكتروني ».«email anxiety». فقد لاحظ الباحثون في علم النفس أعراض الأرق (Symptoms of axiety) لدى مستخدميه عندما تتكدس كميات كبيرة من الرسائل في صندوق بريدهم الإلكتروني. ومن شأن هذه الأعراض أن تشلّ قدرة الموظف على إنجاز أعمال منتجة[1].

تأثيرات حمل المعلومات والغرق المعرفي:

أجرت وكالة رويتر دراسة حول تأثيرات حمل المعلومات على الأفراد والمنظمات. و من أهم نتائج هذه الدراسة التي شملت عينة من المديرين العاملين بمنظمات مختلفة أنه:

١- أقرّ ٤٣ ٪ من المستجوبين بأن القرارات المتعلقة بالأعمال غالبا ما تمّ تأجيلها.
٢- أفاد ٣٨٪ من عينة الدراسة أن كمّا مهما من الوقت قد ضاع بسبب البحث عن المعلومات.
٣- اعتقد ٤٢٪ أنهم عانوا من أعراض صحّية كسبب مباشر للضغوط الناتجة عن حمل المعلومات، وصعوبة تحديد ماله قيمة من بينها.
٤- ذكر ٦١٪ منهم بأنهم ألغوا أنشطة اجتماعية بسبب انشغالهم بالتعامل مع كم هائل من المعلومات.
٥- أفاد ٦٠٪ منهم أنهم عانوا من الإرهاق الشديد، وهو ما جعلهم يعرضون عن أنشطة ترفيهية.
٦- أوضح ٦٢٪ منهم بأن علاقاتهم الشخصية قد تأثرت سلبا بسبب حمل المعلومات [٢].

سبل التصدّي لحمل المعلومات والغرق المعرفي:

ينبغي الإقرار بأن التصدي لحمل المعلومات و للغرق المعرفي ليس بالأمر السهل إذ يرى بعض الباحثين في المجال أنه ينبغي على الإنسان أن يتعايش مع هذه الظاهرة التي تتحوّل بذلك إلى شرّ لا بد منه. بيد أن ذلك لا يعني الخضوع التام للواقع، والركون إلى

(1) (Grey, 2001).
(2) (Jackson, 2001)

الموقف السلبي، إذ بإمكان الفرد أن يختار من بين أكثر من استراتيجية للتعامل بإيجابية مع الظاهرة. وبعامة يمكن وضع هذه الاستراتيجيات في فئتين، وهما:

١- الاستراتيجيات العامـة.

٢- الاستراتجيات الخاصة.

١- الاستراتيجيات العامة:

يقترح لويس (Lewis) الاستراتيجية التالية لمواجهة حمل المعلومات:

- يفتقر الجزء الأكبر من المعلومات التي نحصل عليها إلى أية قيمة. وعليه، فإذا ما راودك أي شك بخصوص قيمتها تخلّص منها؛ لأنه بإمكانك أن تحصل عليها من جديد عندما تحتاجها.
- استخدم الوسيلة الأكثر فاعلية في إرسال المعلومات. فإذا كان بإمكانك اعتماد البريد الإلكتروني فما فائدة تصوير مذكّرة لكل الموظفين الذين يعملون بدائرتك.
- تدرّب على أسلوب القراءة السريعة. يستطيع الفرد العادي قراءة ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ كلمة في الدقيقة. يمكنك إذا ما اعتمدت فنيات المسح أن ترفع من قدرتك في مجال القراءة إلى ٣٠٠٠ كلمة في الدقيقة.
- تدرّب على القراءة الفاعلة. إنّ معظم التقارير والمقالات تتضمّن معلومات أساسية هي بمثابة النواة، وغالبا ما تدرج في نفس المكان. فإذا ما كنت تقرأ كتابا، استخدم الكشاف، واجعل قراءتك تقتصر على الفصول ذات الصلة بمجال اهتمامك أو موضوعك.
- أدر وقتك بطريقــة أفضل، قص مقالات الصحف والمجلاّت واحتفظ بها لتطّلع عليها لاحقـا عندمـا يتوفـر لديك الوقـت[1].

٢- الاستراتيجيات الخاصة بترشيح المعلومات المسترجعة من شبكة الإنترنت:

اهتم عدد من اختصاصيي المعلومات بوضع استراتيجيات عملية يمكن استخدامها بشيء من اليسر من قبل مستخدمي الإنترنت، لتقييم المعلومات المنشورة على هذه الشبكة. و يعزى اهتمام هؤلاء الاختصاصين بهذا الأمر للنمو الهائل الذي شهده النشر على الإنترنت، وتحوّلها إلى مصدر هام لا غنى عنه بالنسبة لكثير من المستفيدين.

(1) (Emirates Woman,1998).

سأل مدرّس أحد طلبته بخصوص دقّة المعلومات التي أوردها في عمله المكتوب، فأجاب الطالب « أنا متأكد من صحّتها لأنني حصلت عليها من الإنترنت ». ما لم يدركه ذلك الطالب هو أن الإنترنت على، خلاف وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى تفتقر إلى آلية لغربلة المعلومات. إن المعلومات التي تسترجع من الإنترنت تشبه في دقتها و موثوقيتها المعلومات التي تستقيها من شخص تلتقيه لأول مرة بمحطة الحافلات.

تعوّد معظم الناس على أن تقوم أطراف أخرى بغربلة المعلومات لفائدتهم، من خلال محطات التلفزيون والراديو، ووسائل الاتصال المكتوبة. ينبغي لنا- كمستفيدين من خدمات الإنترنت- أن نكون واعين بأن عدم توافر آلية لغربلة المعلومات، أو أي نظام لمراقبة نوعية المعلومات، يجعل المعلومات الدقيقة والموثوق بها تتعايش مع المعلومات ذات الطابع الخيالي، ووجهات النظر، والمعلومات المزيّفة. ويبدو أن الوضع لن يتغير في المستقبل القريب.

اعرف من أين تأتي المعلومات:

عندما تتصفح بحثا عن المعلومات باتباع مجموعة من الروابط، فإنه من السهل أن تفقد الخيط الذي يمكّنك من معرفة أين توجد. انتبه إلى محصل المصادر الموحد (URL) للروابط التي تنقر عليها لكي تعرف إذا ما زلت موجودا في إحدى الصفحات ضمن موقع الويب الحالي، أم أنك انتقلت إلى موقع ويب آخر.

فعلى سبيل المثال، إذا كنت تبحث عن معلومات عن السمنة المفرطة بإمكانك أن تبدأ بالبحث في صفحة تقوم بوظيفة مركز لتبادل المعلومات (Clearinghouse) الموثوق بها حول السمنة المفرطة. إن كل رابط تحصل عليه من هذه الصفحة قد يقودك إلى مواقع ذات نوعية جيدة، بيد أن الروابط التي تحصل عليها من موقع ثانوي قد يؤدي بك إلى مواقع ذات معلومات غير مضمونة الجودة. إن وعيك بمصادر المعلومات التي تصل إليها، وأنت تنتقل من موقع إلى آخر يجعلك في موقع مناسب لتقييم المعلومات المتوافرة بكل صفحة ويب.

وإذا انطلقت في بحثك من صفحة تتضمن روابط ذات علاقة بموضوع السمنة، تمّ تجميعها كنتيجة لبحث أنجز بواسطة محرك بحث، فإنه من الممكن أن يؤدي كل واحد من الروابط المذكورة إلى صفحة تمثّل وجهة نظر مختلفة عن موضوع البحث. فقد يقودك أحد هذه الروابط إلى صفحة تدّعي أن « البدانة شيء جميل »، حيث يمكن العثور على وجهة

نظر مخالفة لما هو معتاد بخصوص الموضوع. وقد يقودك رابط آخر إلى موقع ويب طبّي حيث تعتبر السمنة وراثية؛ لأنها تنتج عن أحد الجينات. إنّ الانتباه إلى أن عنوان URL يمكّنك من معرفة الجهة العارضة للمعلومات، ومن تحديد وجهة نظرها وهدفها من وراء توفيرها للمعلومات.

استنتج مصدر المعلومات:

قد يصادف في بعض الحالات أن تصل-لدى إنجازك لبحث بطباعة مصطلحات البحث، أو بالنقر على أحد الروابط-إلى صفحة ويب بعيدة عدّة مستويات في أسفل الصفحة الدليلية لأحد مواقع الويب. وإذا لم تتمكّن من التعرف على مزود المعلومات من خلال اسم صفحة الويب، أو من خلال مستوياتها، تأمّل في عنوان URL للتثبت إذا ما كان يعني شيئا بالنسبة إليك. و إذا لم يحالفك الحظ في ذلك فعليك أن تقوم بعمل العون السري لتتعرّف إلى اسم الكاتب. حاول أن تقطع عنوان URL بالرجوع إلى الخلف لدى كل شرطة مائلة (/) وبالضغط على < Enter> للانتقال إلى عنوان URL الجديد. استمر في هذا العمل إلى أن تصل إلى المعلومات المرغوب فيها، أو إلى الحد الذي لا يمكن أن تذهب أبعد منه.

مثال: بحث حول خنفساء أشجار الصنوبر(Boring Beetles in pine trees) يؤدي إلى عنوان URL التالي:(Phylogeny.arizona.edu/tree/home.pages/news.html) عندما تنقر على الرابط تجد نفسك بصفحة من الروابط التي تؤدّي إلى مقالات حول الحشرات والأشجار، مع قليل من المعلومات حول المزوّد بالمعلومات. وإذا كنت ترغب في معرفة المزيد احذف (news.html) من نهاية عنـوان (URL) واضغـط علـى <Enter>. وإذا لم يفض ذلك إلى نتيجة فاحذف (home.Pages) ثم (tree) إلى أن تصل إلى مجال الاسم (phylogeny.arizona.edu). وفي هذا المثال كان القطع ضروريا إلى غاية مجال الاسم للحصول على معلومات حول القائم بأمر الموقع، وهو كلية الزراعة بجامعة أريزونا(University of Arizona).

إذا لم تنجح في مهمّتك من خلال صفحة الويب نفسها، أو من خلال القطع الذي يستهدف عنوان URL فابحث عن رابط البريد الإلكتروني إلى الكاتب أو المسؤول عن الموقع (webmaster)، واطلب منه أية معلومات تحتاجها حول الصفحة المعنية بالأمر، أو بخصوص موقع الويب من خلال البريد الإلكتروني.

كيف يمكن التمييز بين المعلومات الجيدة والمعلومات غير الجيدة؟

إذا كنت تريد معلومات حول الضرائب ودخلت موقع ويب حكومي فلا داعي للقلق بخصوص مصداقية المصدر، و إذا كان المزوّد بالمعلومات غير مألوف بالنسبة إليك، فإن مجرد معرفة اسم الشخص أو المؤسسة غير كاف.

فعندما تبحث عن إجابات لأسئلة باستخدام الإنترنت، يجب عليك تقويم ما تحصل عليه من معلومات باعتماد المعايير التالية:

١.الحداثة. ٤.الدوافع.

٢.المرجعية. ٥.عمق التغطية.

٣.الموثوقية. ٦.سهولة الاستخدام.

إلى أي حدّ يجب أن يكون التقويم شاملا؟

استخدم معايير التقويم بكل صرامة وذلك حسب طبيعة حاجتك للمعلومات التي ترغب فيها. فقد لا تكون في حاجة إلى تقويم صارم إذا كنت تحاول التثبّت من معلومات تعرفها مسبقا، أو عندما يتعلق الأمر بمجرد فضول وليس لديك الوقت الكافي، أو عندما لا تشعر بالحاجة إلى القيام ببحث شامل. و في معظم الحالات يجب عليك أن تحاول التعرّف إلى هوية كاتب الصفحة، والجهة التي تكفلها، ومتى تمت مراجعتها في آخر مرة. ويوجد عدد من مواقع الويب الهزيلة، وذات العلاقة بموضوعات جادة، والتي من الممكن أن تربك مستفيدا يفتقر إلى التجربة في مجال استخدام الإنترنت.

١- حداثة المعلومات:

لماذا يعتبر هذا المعيار مهما؟ إن سهولة النشر على الويب وعدم وجود الحوافز لاستبعاد ملفات من الحاسوب، تتسبّب في وجود فيض من المواقع التي تتضمن معلومات تفتقر إلى التحديث الملح لتقادمها بشكل كبير. و تتراوح هذه المواقع بين تلك التي تتضمّن إعلانات ذات علاقة بأحداث جدّت خلال عام ١٩٩٤م، وأخبار حول إعصار جونو سنة ٢٠٠٦، ومواقع لشركات لم تعد موجودة، ومواقع لأفراد توقفوا عن صيانتها.

* **كيف يمكن تحديد حداثة المعلومات؟**

يمكن القيام بذلك بطرح الأسئلة التالية:

- متى تم عرض المعلومات لأول مرة؟
- ما آخر مرّة تم فيها تحديث المعلومات؟
- ما تواتر تحديث المعلومات؟
- هل تعمل الروابط بشكل جيد؟

إن أول شيء يجب القيام به هو البحث عن التاريخ بالصفحة، وعادة ما يوضع التاريخ في أعلى الصفحة أو في أسفلها. وإن لم تجد التاريخ بإمكانك أن تستخدم وظيفة أعرض(view) من شريط القوائم، وهو ما سيمكنك من الوصول إلى المعلومات المتعلقة بالوثيقة المحمّلة حاليا. ابحث عن التاريخ في الحقل الذي تعرّض لآخر تغيير، وغالبا ما تجده يتضمن « غير معروف » (unknown). واستنادا إلى تجربتي الشخصية فقد وجدت أن هذه الطريقة مجدية في نصف الحالات، إذ مكّنتني- في ٥٠ بالمائة من الحالات - من معرفة التاريخ الذي أبحث عنه. ومن أوجه الغرابة في هذا المجال أن هذا التاريخ كثيرا ما يكون أحدث من التاريخ الذي يظهر في صفحة الويب. وقد يرجع السبب في ذلك، على وجه الترجيح، إلى أن كاتب الصفحة قد نسي أن يغيّر من تاريخ مراجعة المعلومات على صفحة الويب نفسها في آخر مرة قام بذلك العمل. كما أن هذه الظاهرة قد تكون ناتجة عن عدم شعور الكاتب بأهمية تغيير التاريخ؛ لأن التعديلات التي أدخلها على المعلومات التي تحويها الصفحة كانت طفيفة.

٢- مرجعية مصدر المعلومات:

إن الحكم على مصداقية مصدر المعلومات بالإنترنت يكون أمرا سهلا عندما يتعلق الأمر بمؤسسة موثوق بها، أو بشخص يعتبر خبيرا معترفا به في المجال، أو أحد المعارف الشخصية أو المهنية بالنسبة للمستفيد. وعليه، فإذا كنت تريد معلومات حول الأمان بأماكن العمل فبإمكانك أن تزور موقع:

The Occupational Safety and Health Administration s (OSHA).

وقد يصادف في كثير من الحالات أن تجد نفسك بموقع ويب تتوافر به المعلومات التي

تريدها، بيد أن مصدر المعلومات يبقى غير مألوف بالنسبة إليك. و ينبغي عليك في هذه الحالة أن تقوم بدور البوليس السرّي، لتحدّد ما إذا كان المصدر جديرا بالثقة. ويستوجب ذلك منك معرفة الجهة التي أنشأت الصفحة، وما إذا كانت المعلومات التي تتضمّنها الصفحة متأتية عن تلك الجهة أم لا؟ ابحث عن رابط بالصفحة يقود إلى معلومات حول الموقع والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها. وغالبا ما يوجد رابط يحمل التسمية التالية: « معلومات حول الموقع » أو « من نحن ». وقد تؤدي في بعض الأحيان وظيفة « Help » الغرض نفسه، إذ تمكنك من الحصول على المعلومات الضرورية.

وحتى تستطيع تحديد مرجعية الجهة المسؤولية عن صفحة الويب، يجب عليك أن تستخدم معايير ذاتية من بينها:

أ- خلفيـــة عن الكـــاتب:

- هل يذكر الكاتب المصدر الذي يستقي منه المعلومات؟
- ما خبرة الكاتب وشهاداته الرسمية ؟
- هل بإمكانك أن تتصل بالكاتب؟
- هل نشر الكاتب شيئا آخر حول الموضوع؟

ب- تصميـــم الموقـــع:

- هل تمّ تصميم الموقع بشكل جيد؟
- هل يبدو التصميم حرفيا ؟
- هل تستطيع أن تتعرف إلى هدف الموقع؟
- هل تقوم الرسوم البيانية بوظيفة ما؟

ج- الانتبـــاه إلـــى التفاصيـــل:

- هل يحترم قواعد اللغة؟
- هل أن تهجّي الكلمات صحيح؟

د- تعدد الاستشهاد بالموقع:

- هل صادفت روابط من مواقع أخرى تثق بها تحيل إلى هذا الموقع؟
- هل توجد روابط بهذا الموقع تحيل إلى مواقع أخرى ذات سمعة حسنة؟

احذر من المواقع التي لا توفر ما يكفي من المعلومات للحكم على مرجعيتها. إن المزودين بالمعلومات على الويب الذين يتميزون بالجدية يكونون واعين بأهمية مثل هذه الخصائص.

٣- موثوقية الموقع:

قد تريد أن تعرف هل تعمل الروابط الموجودة، وهل سيكون الموقع موجودا في الأسبوع القادم. و تكتسي الإجابة عن هذه الاستفسارات أهمية خاصة إذا كنت ستقترح على أناس آخرين استخدام المعلومات الموجودة بالموقع، أو تريد أن تستشهد بها في أحد كتاباتك. ولكي تتأكد من موثوقية الموقع يجب طرح مجموعة من الأسئلة منها: هل تؤدي الروابط المتوافرة بصفحة الويب إلى مصادر معلومات أخرى ذات سمعة حسنة مرتبطة بها؟ هل تتوافر للموقع روابط تحيل إلى مصادر ذات قيمة ومألوفة بالنسبة إليك؟ إن تقيمك لحداثة معلومات الموقع ومرجعيته سيساعدك على تحديد موثوقيته.

٤- الدوافع:

انظر إلى الصفحة لترى إذا كان من الممكن معرفة الجمهور الذي يسعى الموقع إلى خدمته. وبالتحديد هل يهدف الموقع إلى إقناع المستفيدين؟ أو إلى إعلامهم؟ أو إلى شرح شيء ما ؟ أو إلى بيع منتج معين ؟

كما أن الإنترنت توفر لك بالسهولة نفسها معلومات حول بضاعة معينة، يكون مصدرها أحد العاملين بالمؤسسة الذين يحملون ضغينة تجاه المشغل، أو معلومات إشهارية حول البضاعة نفسها. فقد تجد نفسك في موقع تمّ إنشاؤه من قبل شخص يدّعي الحرفية في رأيه، لتكتشف فيما بعد أن الشركة التي يجب عليك أن تقتني بضاعتها الآن هي التي موّلت إنشاء الموقع.

حاول أن تتحقق من الجوانب التالية:

- **هل الموقع تجاري ويحاول بيع شيء معين؟**
- **هل للموقع صبغة تربوية ولا غرض له سوى الإعلام أو التفسير؟**
- **هل الموقع تابع لفرد يحاول تسويق نفسه أو ترويج بضاعة لشركة معينة؟**

إنّ تحديد الدوافع الكامنة وراء إنشاء الموقع، ومستوى الموضوعية التي يتحلّى بها سيساعدك على تقرير ما إذا كان الموقع يشكل مصدرا ملائما للمعلومات.

٥- عمق التغطية:

قد يحدث في كثير من الحالات أن تجد الصفحة التي تصل إليها تحوي معلومات حول موضوع بحثك، ولكنها ليست المعلومات المحدّدة التي تحتاجها. و غالبا ما يكون ذلك ناتجا عن أن الصفحة ما تزال في طور الإنشاء. وفي مثل هذه الحالة بإمكانك أن ترجع إلى موقع الويب من جديد بعد بضعة أيام، أو أسابيع قليلة لتتثبّت من الأمر. وغالبا ما تتضمن صفحات الويب الروابط الصحيحة، بيد أن تلك الروابط قد لا تؤدّي إلى معلومات ذات عمق يتماشى مع التوقعات التي خلقتها في ذهنك الروابط الموجودة بالصفحة الدليلية. لا تفترض أن كل رابط يبدو واعدا سيؤدي بالضرورة إلى معلومات ذات قيمة. وحتى تتأكد من الأمر، يجب عليك أن تنقر على الرابط. فإذا كنت تبحث عن معلومات حول موضوع يحظى بشعبية لدى طلبة المدارس الابتدائية، فستجد على الأرجح صفحات ويب موجّهة إلى هذه الشريحة من الطلبة، صمّمت من قبل مدرسين، أو من قبل الطلبة أنفسهم.

٦- سهولة الاستخدام:

هل أن تصميم الصفحة جيد؟ هل تستطيع معرفة ما يجب أن تقوم به عندما تصل إلى الصفحة، ولأي فئة من المستفيدين تم إنشاء هذه الصفحة؟ هل يوجد كثير من الصور التي تصرف انتباهك عن النص؟ هل تشدّ خلفية الصفحة انتباهك أم أنها تصرفه عن المحتوى؟ يكتسي تقويم سهولة استخدام الصفحة أهمية عندما ترغب في تقاسم المعلومات مع مستفيدين آخرين. وفي المقابل فإن هذه العملية لا تكتسي أهمية كبيرة عندما تبحث عن إجابة لسؤال مرة واحدة، وكنت قد حدّدت الموقع لمرجعيته.

وبما أن المستفيدين من خدمات الإنترنت ما ينفكّون يضجون، فإن مصمّمي الويب أصبحوا ينشئون مواقع أكثر تعقيدا، مستندين في ذلك إلى فرضية مفادها أن المستفيدين أصبحوا أكثر حنكة. وقد يكون هذا التعقيد مضلّلا في الحالة التي تزور فيها هذا الموقع لأول مرة. بيد أن تخصيص بضعة دقائق للتعرّف على طريقة الملاحة داخل هذا الموقع المعقّد، قد يساعدك على تجاوز الشعور بالارتباك الذي ينتابك في البداية.

استبانة تقويم المعلومات:

١- الحداثـــة:

أ- متى تم عرض المعلومات لأول مرة ؟

ب- ما تواتر تحديثها ؟

ج- هل تعتبر الصفحة حديثة؟

د- متى تم مراجعة الصفحة آخر مرة؟

هـ- انظر إلى التاريخ على الصفحة.

و- تثبت من ذلك باستخدام وظيفة اعرض للاطلاع على المعلومات المتعلقة بالوثيقة.

٢- المرجعيـــة:

أ- ما خبرة الكاتب ومؤهلاته العلمية؟

ب- هل سبق أن وجدت روابط في مواقع أخرى تحيل إلى هذه الصفحة؟

ج- هل تحيل الروابط الموجودة بهذا الموقع إلى مواقع أخرى ذات سمعة حسنة؟

د- هل يذكر الكاتب مصادره؟

هـ- هل توجد أخطاء في تهجّي الكلمات أو أخطاء لغوية ؟

و- هل تستطيع أن تتصل بالكاتب عن طريق البريد الإلكتروني؟

٣- الموثوقيـــة:

أ- هل تعمل معظم الروابط الموجودة بصفحة الويب؟

ب- بناء على تقويمك للحداثة والمرجعية هل تعتقد أن الموقع موثوق به؟

٤- الدوافـــع:

أ- هل الدوافع الكامنة وراء إنشاء الموقع واضحة؟

ب- هل هي تعليمية؟

ج- هل هي تجارية؟

د- هل توجد إعلانات إشهارية بالصفحة؟

هـ- هل أن تمييز الإشهار من بين محتوى الصفحة عملية سهلة؟

و- هل الهدف الأساس للصفحة هو بيع شيء معين للمستفيد؟

ي- هل تشعر أن هنالك شخصا (أو شركة) يريد أن يسوق نفسه؟

٥- عمق التغطية:

أ- هل الصفحة مكتملة أم أنها في طور الإنشاء؟

ب- هل موضوعك مغطى بشكل محدود، أم أنه مغطى بشكل متعمق؟

٦- سهولة الاستخدام:

أ- هل الموقع منظم بشكل جيد، أم أنه مربك عندما تراه أول مرة؟

ب- هل بإمكانك أن تطبع الكلمات المفتاحية لكي تبحث ضمن الموقع؟

ج- هل الموقع مصمم بشكل جيد؟

د- هل بإمكانك أن تميز النص عن خلفية الصفحة ؟

هـ- هل تعطي الخلفية قيمة للصفحة؟

و- هل تمنح الصور الصفحة قيمة، وليس مجرد ترك انطباع طريف لدى المستفيد؟

العالم الإسلامي والغرق المعرفي: حقيقة أم وهم؟

يجدر التنويه في الختام بأنه، و إن كان العالم الإسلامي يعاني من حمل المعلومات، فإن ذلك ناتج عن استهلاكه لما ينتجه الغرب من معلومات و معارف. وعليه؛ فبالرغم من التخمة المعلوماتية والمعرفية التي يشهدها الغرب، فإن العالم الإسلامي عامة، والعربي خاصة، يعاني من شحّ المعارف التي ينتجها. و من المفارقات اللافتة للنظر هو أن عدد المسلمين في العالم يبلغ ١,٥ مليار نسمة يتوزعون كالآتي:

- ١مليار في آسيا.
- ٤٠٠ مليون في إفريقيا.
- ٤٤ مليون في أوروبا.
- ٦ ملايين في أمريكا.

وعليه، فيكون خمس العالم يتألف من المسلمين، في حين أنه لا يتوافر لهم (٥٧ بلدا مسلما) سوى ٥٠٠ جامعة. وفي المقابل نجد أن عدد الجامعات في بعض بلدان العالم يتوزع كالآتي:

- الولايات المتحدة: ٥,٧٥٨ جامعة.
- الهند : ٨,٤٠٧ جامعة.

يضاف إلى ذلك، أنه لا توجد جامعة إسلامية واحدة ضمن ٥٠٠ جامعة الأفضل ترتيبا في العالم. وفي نفس السياق يمكن الاستدلال بالإحصاءات التالية لفهم الوضع المتردّي للمعرفة في العالم الإسلامي:

- تبلغ نسبة المتعلمين في العالم المسيحي إجمالا ٩٥٪.
- تبلغ نسبة المتعلمين في ١٥ بلدا مسيحيا ١٠٠٪.
- لا تتجاوز نسبة المتعلّمين في العالم الإسلامي ٤٠٪.
- أكمل ٩٨٪ من سكان البلدان المسيحية تعليمهم الابتدائي.
- لا تتجاوز هذه النسبة ٥٠٪ في البلدان الإسلامية.
- واصل ٤٠٪ من سكان البلدان المسيحية تعليمهم الجامعي.
- لا تتجاوز هذه النسبة ٢٪ في البلدان الإسلامية.
- يوجد في البلدان الإسلامية ٢٣٠ عالما لكل مليون من السكان.
- يوجد ٥٠٠٠ عالما لكل مليون من السكان في الولايات المتحدة.
- يوجد ١٠٠٠ فني لكل مليون من السكان في العالم المسيحي.
- يوجد ٥٠ فنيا لكل مليون من السكان في البلاد الإسلامية.
- يخصص العالم الإسلامي ٢,٠٪ من ناتجه القومي الخام للبحث والتطوير.
- يخصص العالم المسيحي ٥٪ من ناتجه القومي الخام للبحث والتطوير.

* وعلى صعيد بث المعرفة، يلاحظ الباحث أن وضع العالم الإسلامي يبقى متدنيا مقارنة بالبلدان الغربية وغير الغربية. وعليه، فيمكن الاستدلال بالحقائق الآتية:

- لا يوجد سوى ٢٠ صحيفة يومية لكل ١٠٠٠ ساكن في باكستان.
- يوجد ٤٦٠ صحيفة يومية لكل ١٠٠٠ من سكان سنغافورة.
- يوجد ٢٠٠٠ عنوان كتاب بحساب كل مليون من سكان المملكة المتحدة.
- لا يوجد سوى ١٧ كتابا لكل مليون مصري

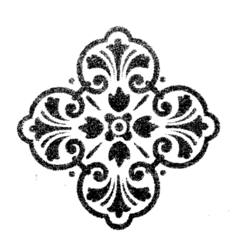
* وعلى صعيد آخر، يلاحظ المتمعن ما يلي :

- تصل على التوالي نسبة صادرات المنتجات التقنية العالية في كل من باكستان والمملكة العربية السعودية و(الكويت والمغرب والجزائر) ٠,٩٪ و٠,٢ و٠,٣
- في حين تصل هذه النسبة ٦٨٪ في بلد صغير مثل سنغافورة.

خلاصـــــة:

يجدر التنويه في ختام هذه الورقة بأن ما يعرف بالغرق المعرفي أو حمل المعلومات، هو من إفرازات التطور الهائل الذي شهده البحث العلمي في البلدان المتقدمة في القرن العشرين، والذي تواصل في الألفية الثالثة. وإن كان ذلك يمثل مؤشّرا إيجابيا على التقدم الذي أحرزته البشرية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإنه يمثل في الوقت ذاته ظاهرة غير صحية لما يسبّبه من آثار سلبية على صحة الفرد وأدائه المهني. و عليه، فينبغي على الفرد أن يتعامل مع هذه الظاهرة بإيجابية آخذا بعين الاعتبار نصائح علماء النفس وإرشاداتهم وأن يتعلّم الأساليب العلمية التي تمكنه من ترشيح المعلومات وخاصة تلك المتأتية من شبكة الإنترنت.

وفيما يتعلق بالعالم الإسلامي فينبغي عليه أن يغيّر من موقفه واتجاهه السلبي تجاه المعرفة التي تمثل أداة القوة والنفوذ الحقيقية، و التي من دونها سيبقى على هامش التاريخ، وأن يعمل على إنتاجها بدلا من الاكتفاء بدور المستهلك السلبي، وذلك وفقا لما ورد في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحثّ الإنسان على طلب المعرفة وإعمال العقل والتدبّر.



المصــــــادر :

(1) Savolainen. Reijo 2007. Filtering and Withdrawing Strategies for coping with information overload in everyday contexts. Journal of Information Science 33(5):611-621.

(2) Shenk. D. 1997. Data Smog: surviving the information glut. London:Abacus:31

(3) Stanley. A.J and P.S Clipsham 1997. Information overload-myth or realty? IEE Colloquium Digest 97 (340):1-4.

(3) Oppenheim. C. 1997. Managers' use and handling of information. International Journal of Information Management 17(4):246.

(4) Butcher. H. 1998. Meeting managers information needs. London: Aslib:53.

(5) Klapp. O.E. 1986. Overload and boredom Essays on the quality of life in the information society. Connecticut: Green Wood Press: 98-99.

(6) Feather. J. 1998. The Information Society: A Study of Continuity and Change. London: Library Association: 11.

(7) Herbig. Paul A. and Hugh. Kramer 1994. The effect of information overload on the infraction choice process. Journal of Consumer Marketing 11(2):45-54.

(8) Emirates Woman 1998. Learning to avoid information anxiety. Emirates Woman: 90-91.

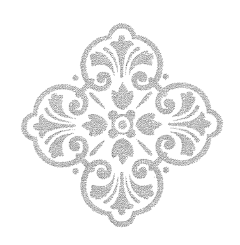
(9) www.BOUTELL.com. Visited on 13/12/2008.

(10) Internet World Statistics. The Internet big picture-World Internet users and population. Stats Retrieved 13/12/2008 www.internetworldStats.com/Stats.htm.

(11) Jackson.W.K.(2001). Information Overload and managerial roles: A naturalistic Study of engineers. Austin.Tx: University of Texas at Austin.

(12) Grey، M 2001.Making e-mail more productive. Garter Group (Research Note No.Com-12-7180). Retrieved in November 15.2008، from PsycInfo database.

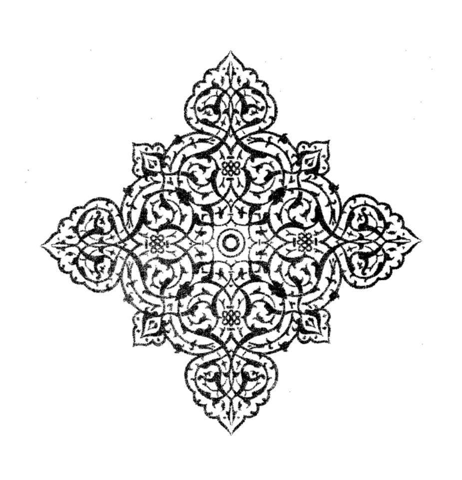
(13) Nantz، k and C. Drexel 1995. Incorporating electronic mail into the business communication course. Business Communication Quarterly.58(3):45-51.



الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة

د. سليمان بن سالم الحسيني (*)

(*) يعمل مساعدا لعميد شؤون الطلبة بالكلية التقنية بعبري في سلطنة عمان، كما عمل رئيسا لقسم اللغة الإنجليزية بالكلية التقنية بنزوى، وقد شارك في العديد من المؤتمرات، وحلقات العمل داخل السلطنة، وخارجها، وله مجموعة من المقالات والمؤلفات منها: التنافس مع الذات، الغرب والإسلام رؤية في مسار التوتر.





المقدمـــــة:

تقدم هذه الورقة رؤية تحليلية لمفهوم الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة؛ فبالرغم من القناعة السائدة بأن مجتمع المعرفة هو الطريق إلى الرقي، والسبيل إلى التغلب على كثير من المعوقات التنموية والتطويرية التي تواجهها الشعوب والدول، فقد واجه هذا المصطلح العديد من التحديات، من أهمها: عدم وجود نظريات حقيقية تحدد مجتمع المعرفة، والحاجة إلى نُهُج وطنية واضحة لتفعيل إمكانات المجتمعات، ومقدرات الشعوب والدول لبناء مجتمع معرفة ناجح. وقد سعت كثير من الدول والتجمعات الدولية المهتمة ببناء مجتمع معرفة إلى وضع تصوراتها وأهدافها وخططها في أطر توفر لها المرجعية، وتضمن الحفاظ على خصائصها الحضارية، واستثمار وتفعيل إمكانياتها وقدراتها الذاتية ثقافياً، وفكرياً، واجتماعيا، ومادياً. وهناك من ينادي أن التحول الجاري في مجتمع المعرفة، يمكن فهمه بشكل أفضل إذا نظر إليه في سياق أوسع، على أنه عملية اجتماعية تتفاعل فيها الجزئيات وشبكات الاتصال بين الجماعات والمعرفة في إطار السياق الاجتماعي. يجب أن لا ينظر إلى كل شــيء في مجتمع المعرفة على أنه محض معلومــات، أو تقنيات، أو معرفة. إن التقنية نفسها موجودة في سياق من التفاعل والتغير الاجتماعي المفهوم، ولا يمكن فهم التغير التقني بدون فهم عملية التغير الاجتماعي نفسها. إن نظم المعلومات الجديدة والاقتصاديات المحدثة تعكس حراكاً اجتماعيا مبنية عليه. لذا من المهم أن ندرك أنه لكي نفهم التغيير الذي يحدث في مجال تقنية المعلومات وما يرتبط بها من مواضيع، علينا أن ندرس بإمعان البعد الاجتماعي لمجتمع المعرفة (١٢، ص١).

لذا تسعى هذه الورقة إلى تقديم رؤية للثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة من منظور عُماني؛ باعتبار أن المجتمع العُماني له سماته وخصوصياته، وتطلعاته وآماله[1]. فتتناول موضوع الثوابت من **منطلقين:**

الأول: يرتبط بالانتماء إلى أمة لها مكانتها الحضارية، وتاريخها العميق، وثقافتها الأصيلة.

(١) - يختلف مفهوم الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة باختلاف الفكر والثقافة والهدف. فهناك ثوابت ومتغيرات على المستوى الديني، والمستوى الثقافي، والمستوى العلمي... إلخ. كما أن هنــاك ثوابت ومتغيرات تتبناها تيارات فكرية، أو جماعات، أو مؤسسات، أو دول.

والثاني: ينطلق من متطلبات مجتمع المعرفة وخصائصه وسماته، وما أحيط به من آمال وتطلعات، ومحاذير وتحفظات. أما المتغيرات فإنا نرى بأن دورها يتمثل في توفير الأرضية العملية الديناميكية لتحقيق أهداف مجتمع المعرفة. بمعنى آخر، إنها تعبر عن الأهداف الفرعية، والعمليات الإجرائية لبناء مجتمع المعرفة. والعلاقة بين الثوابت والمتغيرات علاقة أصول وفروع، أو كليات وجزئيات. فالمتغيرات تستمد وجودها من الثوابت، وتعمل في إطار الشرعية التي توفرها لها، وهي بدورها تقوي الثوابت، وترسخ مكانتها الحضارية.

وتكوين تلك الرؤية ذات الخصوصية الوطنية للثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة تستنير بتجارب بعض الدول[1] في مجال إنشاء مجتمع المعرفة، والأدبيات التي عالجت هذا المفهوم. فمن المعلوم أن الساحة الدولية تحفل بالعديد من التجارب لبناء مجتمع معرفة وتفعيله. وأخذ تلك التجارب بعين الاعتبار سيرينا كيف تحاول دول العالم أن توظف مفهوم مجتمع المعرفة في التنمية الذاتية، ونقف على المعايير التي اعتمدتها لذلك. وبشكل عام، استنتجنا من خلال قراءتنا في تجارب بعض الدول- التي سنذكرها بشكل تفصيلي لاحقاً في هذه الورقة- أن ثلاثة أبعاد مهمة أخذت بعين الاعتبار في وضع أي تصور لبناء مجتمع المعرفة، وهي:

١- الخصائص والملامح المعرفية، والصناعية، والاقتصادية، والمعلوماتية... الخ لمجتمع المعرفة حسب الدراسات، والبحوث، والمواصفات العالمية.
٢- الخصائص الثقافية والحضارية للدولة أو الشعب المعني ببناء مجتمع المعرفة.
٣- الإمكانات المادية والبشرية الحالية، وما تحتاج إليه من تحسين وتطوير حتى تفي بالاشتراطات المطلوبة لبناء مجتمع المعرفة.

الخلاصة: أن المنهجية التي تتبعها هذه الدراسة والتي أخذت بعين الاعتبار ثلاثة جوانب رئيسة وهي:

١- خصائص مجتمع المعرفة.
٢- التجارب العالمية السابقة في بناء مجتمع المعرفة.
٣- الخصائص والسمات الحضارية للمجتمع العماني ستساعدنا في تكوين تصور للثوابت والمتغيرات للمجتمع العماني كمجتمع معرفة.

(١) - نذكر في هذه الورقة أربعة أمثلة، وهي: إفريقيا تحت مظلة الاتحاد الإفريقي، و جنوب شرق أوربا، والهند، والاتحاد الأوربي.

خصائص مجتمع المعرفة :

لقد مر مفهوم مجتمع المعرفة بثلاث مراحل حتى تشكل بصورته الحالية(١٢).

* **المرحلة الأولى :** كانت من بداية السبعينات وحتى بداية التسعينيات من القرن الماضي ١٩٧٠-١٩٩٠م. ففي هذه المرحلة حدثت نقلة نوعية في مجال الاتصالات، واتساع البنى التحتية لاستخدام تكنولوجيا الاتصالات، إلى جانب تأسيس عدد من الهيئات والمنظمات التي عنيت بتطوير تكنولوجيا المعلومات، ففي اليابان تم تأسيس برنامج الجيل الخامس (Fifth Generation) وفي أوربا تم تأسيس (RACE) و (ACTS) و (ESPIT).

* **المرحلة الثانية :** والتي ظهرت في عامي ١٩٩١-١٩٩٢م وذلك أثناء الحملة الانتخابية للرئاسة بالولايات المتحدة الأمريكية، عندما أعلن آل جور في مشروعه الانتخابي فكرة « البنية التحية الوطنية للمعلومات » (National Information Infrastructure) كنقطة تحول نحو المستقبل. طُرحت في إطار هذا المشروع عدة أفكار: المنافسة، والتنمية الاقتصادية، والتشريعات، والخصوصيات، والأمن، وحقوق الملكية الفكرية. ولم تبق أفكار آل جور حبيسة حملته الانتخابية بالرغم من فشله في الفوز بمنصب الرئاسة الأمريكية، بل وجدت طريقها نحو العالمية، معلنة وبخطى حثيثة بزوغ الموجة الثالثة والحالية، التي اتسمت بظهور مصطلح مجتمع المعرفة[١].

* **المرحلة الثالثة :** التي نتجت عن المرحلة الثانية، حيث شهد العالم انتشاراً واسعاً للإنترنت واستخداماته، بشكل عمّق الحاجة إلى وجود تشريعات تحكم هذا المجال. وقد تبين أن صياغة التشريعات الجديدة لا يمكن أن تتم بعيداً عن المجتمع ومكوناته، الأمر الذي أكسب التقدم في استخدام تكنولوجيا المعلومات والإنترنت بعداً اجتماعيا. لذا لم تصبح اهتمامات هذه المرحلة مقتصرة على الطابع العلمي المحض لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وحسب، بل شملت مجالات عديدة منها التفاعل الاجتماعي، والهوية، والأخلاق، والدين، والأسرة وغيرها من المواضيع (١٢).

ومنذ أواخر التسعينيات من القرن الماضي بدأت الدراسات والبحوث التي تدور حول مجتمع المعرفة حيث تتحول من طابعها التكنولوجي البحت، لتصبح أكثر ارتباطاً بالبشر، وتركيزاً على المجتمع. إضافة إلى ذلك، رُبط التطور في مجال مجتمع المعرفة بالتقدم

(١) - استخدم مصطلح مجتمع المعرفة (Knowledge Society) لأول مرة عام ١٩٦٦م في مقالة للمتخصص في العلوم السياسية إي لين (E. Lane) الذي طالب باستبدال السياسات غير المنطقية بمعرفة أكثر منطقية تستعمل في تحسين عملية صناعة القرارات ذات الأبعاد الاجتماعية (٧).

الصناعي والتجاري، ورقي الشعوب، والرخاء. وسوقت الأمم المتحدة هذه الفكرة بين دول العالم التي أصبحت تسارع إلى تبني مفهوم مجتمع المعرفة، وتضع الخطط الاستراتيجية؛ لتحقيق المعايير التي تدل على التحول إلى مجتمع المعرفة. فقد جاء في تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة لعام ٢٠٠٤م، « ... إن ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أعادت بنهاية القرن العشرين صياغة طرق إنشاء المعرفة وجني ثمارها، وتجميعها، وتوليفها، ومعالجتها، وتحسينها، وتوجيهها. وهذا الأمر يزيد من كفاءة استخدام المعرفة، وفاعليته في النمو والتنمية في الميدان الاقتصادي، إلى الحد الذي أصبحت فيه المعرفة عاملاً رئيسياً من عوامل إضافة القيمة، وإنشاء الثروة في اقتصاد السوق. وفي عصر المعرفة الحالي، أصبح العقل والأفكار الخلاقة والابتكارية مصدراً رئيسا من مصادر التفوق. وهذه العوامل تبشر أيضاً بدفع عجلة التنمية البشرية وتحسين نوعية الحياة على نحو كبير» (١، ص ٥).

وقد أصبح مجتمع المعرفة ينظر إليه على أنه المجتمع الذي تغلب عليه السمات والصفات التالية:

١- المعرفة هي المصدر الرئيس المؤثر والفاعل في الحياة اليومية للأفراد والمجتمع، والسياسة العامة.

٢- تشتمل المعرفة على العلوم، والإنسانيات، والتكنولوجيا، والبحث العلمي، والتنمية البشرية، والإبداع، والتربية، واللغات، والأدب، والفنون، والثقافة التقليدية والمستترة.

٣- تختلف المعرفة عن المصادر المادية الأخرى، ليس في أنها غير قابلة للنضوب وحسب، بل إنها تتزايد وتنمو بالشراكة وتعدد المستخدمين.

٤- يعمل مجتمع المعرفة على تحديد المعلومات والمعرفة وإنتاجها، ومعالجتها، وتحويلها، ونشرها، واستخدامها من أجل التنمية البشرية.

٥- يهيء مجتمع المعرفة الطرق الضرورية لجعل العولمة تخدم البشرية وتساعد في رخائها.

٦- إن مجتمع المعرفة دائب التطور والتغير نحو الأفضل، ولديه من أجل تحقيق ذلك رؤية عالمية طويلة الأمد.

٧- المعرفة هي المصدر الرئيس للقوة السياسية لمجتمع المعرفة.

٨- للطاقة البشرية قيمة مميزة لدى مجتمع المعرفة؛ وذلك بجعل البشر هم المصدر الرئيس للإنتاج والإبداع.

٩- مجتمع المعرفة متواصل ومترابط بشكل جيد ومتين عبر وسائل الاتصال والتواصل الحديث، ويمكنه أن يصل إلى مصادر المعلومات بسهولة ويسر.

١٠- يعمل مجتمع المعرفة تحت مظلة اقتصاد المعلومات (economicsofinformation).

١١- لدى مجتمع المعرفة البنية التحتية المادية المتينة التي يقوم عليها أساسه الاقتصادي المتين، والتي توفر الدعم المادي لنقل المعلومات والعلوم وتوصيلها (٣ و١٠) .

لم ينتج الدخول في المرحلة الثالثة التحول عن فكرة المجتمع الصناعي، حيث كان رأس المال والأيدي العاملة هما المحركان الأساسيان للإنتاج، إلى واقع عالمي جديد أصبحت فيه المعرفة هي المصدر الرئيسي للإنتاج وحسب، بل أصبحت شعوب العالم أمام مفهوم عالمي جديد يجتذب الكثير من الجدل العلمي، والسياسي، والفلسفي بسبب تنوع تعقيداته، واحتمالاته، وانعكاساته على مستقبل البشرية وتطلعات الشعوب.

ومن ضمن التساؤلات المطروحة في هذا الشأن، تلك التي وردت في تقرير الأمانة العامة للأمم المتحدة، حيث ورد أنه « ...ما لم يوضع إنشاء المعرفة واستخدامها في إطار السياق المجتمعي المرغوب- أي سياق التنمية البشرية - وما لم يكن مدعوماً بقيم مشتركة، فإن التأثير المتزايد للمعرفة التي تخدم مصالحها الخاصة، أو مصالح سوق معينة، أو مصالح سياسية خاصة، ستحدد شكل السياق المجتمعي بمفردها. وقد يؤدي هذا إلى نتائج عكسية من حيث نوعية حياة جميع الشعوب في كل مكان. وفي الوقت الذي تمضي فيه مسيرة مجتمع المعرفة العالمي إلى الأمام، تثار أسئلة تتعلق بالأساس الأخلاقي لمجتمع المعرفة، وخصائصه، وصفاته الحالية، والغايات التي تطبق من أجلها المعرفة، والتغيرات الثقافية والقيمية، وقدرة المجتمع على المشاركة في تحديد شكل برنامج المعرفة، والدرجة التي تتماشى بها الأطر السائدة مع إطار إعلان الألفية » (١، ص ٥).

ورغبة منها في الوصول إلى مجتمع المعرفة، وخوفاً من الإخفاق في تحقيق ذلك الهدف، طرحت العديد من المجتمعات، والدول، والأقطار بعض الأسئلة التي لم تقتصر على اكتشاف، أو التعرف، على الآليات والطرق والمناهج والإصلاحات، والتشريعات المطلوبة للوصول، أو التحول إلى مجتمع المعرفة، وإنما شملت أيضاً تساؤلات مهمة حول مصير الهوية الذاتية، وما ارتبط بها من خصائص ثقافية وفكرية، خاصة في ضوء خاصية العولمة المصاحبة للتحول إلى مجتمع المعرفة.

وقد تنوعت الأسئلة المطروحة بحسب المستوى التنموي، والإنجازات، والأوضاع السياسية، والاقتصادية، والثقافية التي تعيشها كل دولة أو تجمع. فعلى سبيل المثال:

دول الاتحاد الأوربي متقدمة صناعياً وتكنولوجياً، ولديها بنية تحتية وقوى بشرية مؤهلة تمكنها من تحقيق شروط مجتمع المعرفة. وبالرغم من ذلك، فإن العلاقة بين العلم والمجتمع في دول الاتحاد الأوربي بحاجة إلى الكثير من التطوير والعناية، بسبب ما يعتريها من قصور، يعيق إنجازات هذه الدول في مجال مجتمع المعرفة. تكمن المشكلة الأساسية في دول الاتحاد الأوربي في قصور التشريعات والسياسات المعمول بها حالياً في اللحاق بقطار المعرفة، المتقدم بسرعة فائقة في هذه الدول. فالسياسات والتشريعات المطلوبة في هذا الشأن ليست تلك التي تكتفي بطرح حلول بسيطة أو ميكانيكية في مجال التكنولوجيا، بل هناك حاجة إلى سياسات وتشريعات تتعمق في معالجة المواضيع العلمية والاجتماعية العميقة، على أن يتم ذلك بصدق، وصبر، وبعد نظر. والتشريعات المناسبة في هذا المجال هي تلك المستمدة من قيم المجتمع وأخلاقياته. فالعلم لا يحدث في فراغ، بل في وسط اجتماعي يولد الحاجة إليه ويوجه سياقه. وبالرغم من أن الأخلاقيات قد أدخلت في التشريع وصياغة القانون في الدول الأوربية منذ عام ١٩٩١م، إلا أن التحدي الذي على هذه الدول أن تواجهه في هذا الإطار هو تحديد أي القيم والأخلاقيات (أو بصيغة أخرى، قيم مَن مِن الشعوب أو الحضارات الأوربية) يمكن اعتمادها والاعتماد عليها في صياغة التشريعات والقوانين العملية الاجتماعية في ضوء التعددية الثقافية والفكرية التي تسود المنطقة (٦).

ويمكننا أن نستنتج من تجربة الاتحاد الأوربي أن مجتمع المعرفة بحاجة إلى مرجعية نابعة من ثقافته وفكره، يُعتمد عليها في صياغة القوانين ذات الأبعاد الأخلاقية، خاصة في مجال العلوم الطبية والحيوية. وبالنسبة للمجتمع المسلم، فإن هذه المرجعية تتمثل في القيم الأخلاقية للدين الإسلامي.

من هنا نرى أن الهوية الدينية أحد المرتكزات في صياغة الثوابت للمجتمع المسلم الساعي؛ لأن يصبح مجتمع معرفة.

أما دول جنوب شرق أوربا الممتدة من إيطاليا والنمسا وهنجاريا، إلى تركيا والقوقاز، فهي تقدم مثالاً لأهمية الهوية الثقافية لمجتمع المعرفة، ودور الأيديولوجيات في إيجاد أرضية مناسبة لبناء مجتمع فاعل ومؤثر. فهذه الدول أمام تحد أكبر بسبب التركيبة العرقية، والثقافية، والتنموية، المعقدة للمنطقة التي تلتقي فيها أربع ديانات عالمية، وهي:

الإسلام، والأرثوذكسية الشرقية، والكاثوليكية الرومانية، واليهودية، وعاشت على أرضها حضارات وأيديولوجيات متعددة، بدءا من تلك التي بُنيت عليها الإمبراطوريتان الرومانية والبيزنطية، ثم الإمبراطورية التركية، وبعد ذلك النيتو وحلف وارسو (١٠)[1].

وأما إفريقيا (دول الاتحاد الإفريقي)، فإن تجربتها تركز على الهوية الثقافية، واللغة، والمقومات الحضارية في إنشاء مجتمع معرفة ذا هوية إفريقية مميزة ومؤثرة. وتقدم التجربة الإفريقية كذلك الأمثلة على الطرق والأساليب التي يمكن أن تحقق الأهداف العليا لمجتمع معرفة إفريقية. فتوجد لدى قادة دول الاتحاد الإفريقي رغبة سياسية قوية في أن تصبح الدول الإفريقية مجتمع معرفة، إلا أنه في ظروف الوضع الراهن تعاني هذه الدول من هوة متعددة الجوانب تفصل بينها وبين طموحها للوصول إلى مجتمع المعرفة المنشود. ومن أهم ملامح مجتمع المعرفة الذي تريد دول الاتحاد الإفريقي بلورته هو مجتمع يحافظ على الخصوصية الإفريقية، وذلك:

(١) - تشتمل خارطة الطريق لدول جنوب شرق أوربا نحو مجتمع المعرفة على عناصر سياسية، واقتصادية، واجتماعية، تهدف إلى التغلب على المعوقات التي تعاني منها هذه الدول، ومن أهم تلك العناصر:

١. بناء الرغبة السياسية: فلا بد من وجود الرغبة السياسية النشطة والفاعلة للتحول إلى مجتمع المعرفة، وذلك بوضع السياسات التي تضع البحوث العلمية موضع التطبيق في المسرح الاجتماعي.
٢. الضرورة الأمنية: التي تتمثل بالنسبة لهذه الدول في محاربة الجريمة، ووقف التصفيات العرقية، والأعمال الإرهابية، والمجاعات، وخطر أسلحة الدمار الشامل.
٣. الحرية، والاعتبار، والحقوق للأفراد والجماعات وهذه عناصر مهمة بالنسبة لدول جنوب شرق أوروبا، بسبب وجود العديد من الثقافات المتداخلة في هذه الدول، والعديد من المؤسسات التي تؤجج الصراع ذات الصبغة العرقية والثقافية. والكثير من القوانين والتشريعات الحالية في هذه الدول لا تأخذ في الاعتبار النمو المعرفي والتكنولوجي، بل إن بعض القوانين لا تعدو أن تكون معوقات تقف أمام التغيير السريع لمجتمع المعرفة، من هنا فإنه من الضروري أن يشارك العديد من العلماء في وضع القوانين. كما أنه من المهم أن تسعى تلك القوانين إلى تحقيق فهم وتفهم للثقافات المتنوعة في المنطقة، وليس مجرد التسامح معها.
٤. حماية حق التوظيف والعمل: فهناك زيادة في عدد الباحثين عن عمل، والمسرحين من أعمالهم، ناتج عن القوانين والنظم المعمول بها في هذه الدول. والارتفاع الكبير والمتزايد في شريحة الباحثين عن العمل يؤدي إلى مشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية. وحفظ حق التوظيف والحصول على عمل لا يساعد على خفض تلك المشكلات والتخلص منها وحسب، وإنما يساعد على خلق فرص الالتحاق بالوظائف التي يتطلبها مجتمع المعرفة. لذا على الحكومات المحلية والمؤسسات العالمية العمل على التنمية البشرية، وخلق فرص عمل جديدة في مجال البحث العلمي والجوانب التربوية والتعليمية.
٥. إنشاء ثقافة المعرفة: باعتبار أنه لا يمكن إنشاء مجتمع معرفة في إطار مجموعة محددة من المتعلمين الذين يعيشون في وسط بحر من الجهل، لذا لا بد من جعل روح المعرفة تسري في المجتمع بأكمله. وهذا يتحقق بتوسيع فرص التعليم بحيث تشمل كل فرد في المجتمع، وزيادة عدد الحاصلين على التعليم التخصصي، والتأهيل الوظيفي، ويكسر الحواجز الفاصلة بين التعليم، والبحث العلمي، والتوظيف (١٠).

أولاً: بتأكيد أن دول القارة الإفريقية هي نفسها المسئولة عن تحديد مصيرها المستقبلي كمجتمع معرفة، ويتم ذلك « ... ليس فقط بإعادة اكتشاف الجذور التاريخية والقيم الثقافية التي تزخر بها القارة الإفريقية قبل فترة الاستعمار، وإنما بتحويل تلك القيم والقدرات إلى ميزات تنافسية تضع إفريقيا كمجتمع معرفة في مصاف الدول العالمية » (٣، ص٢٩).

أما الجوانب الأخرى، التي تحفظ الصبغة الإفريقية لمجتمع المعرفة الإفريقي فتتمثل في تفعيل دور اللغات المحلية، وتلبية البحث العلمي للحاجات الإفريقية، وتأهيل العقول وتفعيل الطاقات البشرية[1].

---

(١)- وأما عملياً، فالإجراءات التي تؤدي إلى تحقيق هدف إفريقيا كمجتمع معرفة تتمثل في:

١. ضرورة تنمية وتطوير البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات الرقمية بالقارة الإفريقية.

٢. جعل محتوى المعلومات التي تقدمها القارة الإفريقية مفيداً من حيث:

أ- السعر: وذلك بأن تصبح كل من المادة المعلوماتية المنتجة إفريقياً، والمادة المستورة من الخارج بسعر معقول، وفي متناول يد الفرد الإفريقي، وبذلك يتم بتضييق الهوة بين المجتمعات الغنية معلوماتيا (information-rich societies) والفقيرة معلوماتيا (information-poor societies).

ب- الوفرة: ويتحقق ذلك بالزيادة في كمية المادة العلمية/البحثية المنتجة إفريقياً، وتوفير الوسائل التي تنشر بها/عبرها تلك المادة مثل الدوريات العلمية، والكتب، والمواقع الإلكترونية... إلخ.

ج- الوقت، وذلك من خلال إيجاد الوسائل السريعة مثل الإنترنت التي يتم بها عرض وتدوين المادة العلمية المنتجة إفريقيا.

د- الموضوعية: وذلك بأن تكون المادة العلمية المنتجة إفريقياً تخدم الواقع الإفريقي ونابعة منه، وتكون أيضا متوافقة مع الشروط العالمية للبحث العلمي، حتى يتم التعرف عليها والإستفادة منها عالمياً.

هـ - اللغة: «هناك إقرار وتأكيد على أنه يجب أن تلعب اللغات الإفريقية دوراً أكثر بروزاً في تنمية إفريقيا، خاصة في مجال العلوم والتكنولوجيا» (٣، ص٣٤). ففهم اللغات العالمية ليس مشكلة بالنسبة لإفريقيا. فالأفارقة يجيدون عدداً كبيراً من اللغات العالمية، وإنما تكمن المشكلة في فهم الأفارقة للغات الإفريقية نفسها. فيوجد أكثر من ألف لغة في إفريقيا بعضها غير مكتوب. وقد اتخذت الأمم الإفريقية إجراءً للتغلب على هذه المشكلة من خلال إنشاء مؤسسات تعنى بأرشفة وتطوير اللغات الإفريقية منها "أرشيف الموارد اللغوية الإفريقية (ALMA). وللتأكيد على الدور المهم للغات الإفريقية في الوصول بإفريقيا إلى مجتمع معرفة، عقدت الدول الإفريقية مؤتمراً خرج بما يعرف بـ « بيان أسمرة حول اللغات والثقافات الإفريقة 2000 » ومما نص عليه هذا البيان:

١. الإقرار بتساوي اللغات الإفريقية في المكانة والأهمية بالنسبة للقارة الإفريقية، وهذا أمر مهم وأساسي لأي جهود مستقبلية لتطوير إفريقيا.

٢. يجب أن تجرى وتدون البحوث العلمية في القارة الإفريقية باللغات الإفريقية.

٣. يجب تنمية وتطوير البنى التحتية للاتصالات والنقل في الدول الإفريقية.

٤. تنمية وتطوير الإمكانات البشرية والعقلية، فنتيجة لذلك ستتمكن القارة من إيجاد حلول للمشكلات الخاصة بها، ويكون لدى عقولها المحلية القدرة على الإبداع البحثي والاختراع العلمي.

٥. رفع عدد الطلبة والمدرسين في الدول الإفريقية.

٦. تطوير البحث العلمي ووضع خطط طموحة لتنمية الموارد البشرية وتدريبها.

٧. التحكم في هجرة العقول من إفريقيا إلى الخارج (٣).

ونجد تركيزاً آخر على الهوية الثقافية، وخصوصيات المجتمع، متمثلاً في التجربة الهندية، التي تشكل فيها الخصوصية التي عُبِّر عنها بالمعرفة التقليدية (traditional knowledge) أحد العوامل المهمة لتحقيق مجتمع معرفة ناجح عالمياً.

فحسب النظرة الهندية يتحقق الوصول إلى مجتمع المعرفة من خلال ثلاثة محاور:

١- تطوير التعليم العام والجامعي كماً وكيفاً، ووضع التشريعات الضابطة للعملية التعليمية، ونظم تقويم الأداء.

٢- تأهيل الحكومات المحلية (Panchayats) المنتخبة، وذلك بتزويد أعضاء هذه الحكومات بالمعارف الحديثة، خاصة في المجالات المرتبطة بأسلوب الحياة، والطبيعة الزراعية لحياة الريف الهندي.

٣- تنمية الثروات التقليدية المتمثلة في الفنون التراثية، والحرف التقليدية، والممارسات الثقافية المتوارثة عبر خمسة آلاف سنة من عمر الحضارة الهندية. فهذه المجالات تمثل المعرفة التقليدية (traditional knowledge) التي توازي في أهميتها المعرفة الحديثة (modern knowledge). وتفعيل المعرفة التقليدية بمثل تلك الأساليب سيعزز من النمو الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الهندي، وسيقوي من مكانة الهند كمجتمع معرفة(٢).

إن القراءات السابقة في تجارب الدول العالمية في توجهها لإنشاء مجتمع المعرفة، تؤكد أنه في الوقت الذي توجد فيه رغبة حقيقية لإنشاء مجتمع معرفة، فإن ذلك يتم في إطار الحفاظ على الهوية والخصوصية الحضارية لهذه الشعوب[٢]. والأهم من ذلك أن الحفاظ على الهوية الحضارية ليس ترفاً فكرياً أو وجدانياً، وإنما ضرورة تفرضها حاجات مجتمع المعرفة إلى حاضن حضاري تقوم عليه تشريعات مجتمع المعرفة التي يجب أن تستند إلى أسس أخلاقية وقيمية تنبع من المجتمع نفسه.

الثوابت في مجتمع المعرفة: رؤيـــة عمانيـــة:

لقد ذكرنا في المقدمة أننا نتناول الثوابت من منطلقين:

الأول: يتصل بالسمات الحضارية للأمة، وثقافتها، وفكرها، وتطلعاتها، وآمالها، وهواجسها، وأحاسيسها، وهذا ما نطلق عليه في هذه الورقة، المستوى الأول من الثوابت (الثوابت الأساسية).

والثاني: مرتبط بخصائص مجتمع المعرفة وسماته، وهو ما نطلق عليه في هذه الورقة: المستوى الثاني من الثوابت (الثوابت الفرعية)، العلاقة بين هذين المستويين من الثوابت يبينها الرسم التوضيحي رقم(٢).

المستوى الأول: الثوابت الأساسية

فبالنسبة لمجتمعنا العماني تتمثل الثوابت على هذا المستوى في الهوية الحضارية التي توارثتها الأجيال عبر القرون والسنين، والتي يمكن أن نعبر عنها في هذه الدراسة بثلاثة مكونات وهي: الانتماء، والدين، واللغة. وهذه الخلفية الحضارية التاريخية لعُمان أكد عليها النظام الأساسي لسلطنة عمان، وذلك في الباب الأول المعني بالدولة ونظام الحكم. حيث جاءت المواد رقم ١ و ٢ و٣ موضحة وناصة على الانتماء، والدين، واللغة للمجتمع العماني، على النحو التالي:

- **مادة (١)** سلطنة عمان دولة عربية، إسلامية، مستقلة، ذات سيادة تامة عاصمتها مسقط.
- **مادة (٢)** دين الدولة الإسلام، والشريعة الإسلامية هي أساس التشريع.
- **مادة (٣)** لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربية.

ولا نقدم هذا الفهم للثوابت بسبب المكانة الخاصة لهذه المكونات الحضارية في عقل وقلب المجتمع، ودورها المهم في تشكيل ثقافته وفكره وحسب؛ بل لأن وجود إطار أعم، ومستوى أعلى من الثوابت أحد متطلبات مجتمع المعرفة، وسمة من سماته الفاصلة.

ويمكن إدراك أهمية الثوابت في مجتمع المعرفة من خلال الجدل القائم حول الحاجة إلى المرجعية في مجتمع المعرفة نتيجة لازدياد حجم المعرفة، واتساع دوائرها، وتضارب المصالح بين الفرقاء والشركاء من المنتجين والمستهلكين للمعرفة. وهذا الوضع غير المتزن يمكن أن يصل إليه المجتمع؛ لأن عجلة التقدم ماضية بسرعة نحو المستقبل الذي يحمل كثيراً من التعقيدات التي تواجه الإنسان. وإذا ما وصل مجتمع المعرفة إلى حالة من عدم

الاستقرار، حينئذ تثار قضية المصداقية، ويصبح من الصعب على الإنسان أن يعرف مَنْ أو ماذا يُصَدِّق. من هنا تصبح المسألةِ ذات أبعاد أخلاقية وقيمية؛ أي لابد من الرجوع إلى القيم والأخلاقيات لرفع اللبس، وتوضيح الغموض، وحل المشكلات المتجددة، وصياغة القوانين لحسمها، وحَلّ النزاعات الناتجة عنها. ومن المهم أن ندرك أن أثر الأخلاق لا يقتصر على مجال دون آخر في مجتمع المعرفة، إذ يمكن أن تدعو الحاجة إلى الرجوع إلى الأخلاقيات والقيم عند الحديث عن سائر مجالات الحياة كالمجتمع ذاته، أو التضامن والتآزر بين أفراده، أو الاتصالات، والتكنولوجيا، أو الاقتصاد أو غيرها كثير من الجوانب(١٢).

١- الديـــــن:

يبقى السؤال المطروح، ما هو مصدر الأخلاقيات، أو القيم التي يمكن لمجتمع المعرفة أن يرجع إليها؟ هنا نلاحظ في أدبيات مجتمع المعرفة دوراً للأطروحات الفلسفية حول القيم والأخلاق ،وعلاقة كل من الفرد والمجتمع في صياغتهما، كالجدل الدائر بين نيتشه (Nietzsche) الذي يرى أن القيم مصدرها الفرد، وكانت (Kant) الذي يرى أن القيم هي اتباع لنسق أخلاقي عام يعترف به الجميع(١٢). وبغض النظر عن تلك الجدليات الفلسفية، نحن نعتقد أن الحصيلة الأخلاقية والقيمية التي يحملها ديننا الإسلامي قادرة على توفير المرجعية الأخلاقية العامة للمجتمع الإسلامي كمجتمع معرفة، وذلك لاشتمالها على القيم الأخلاقية الصالحة عبر الزمان والمكان، وقدرة الفكر الإسلامي في غرس تلك القيم في وعي الإنسان وعقله. فعبارات ومأثورات مثل «لا ضرر ولا ضرار»، و «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، تعكس الجانب القيمي والأخلاقي للمجتمع المسلم.

وهنا يطرح سؤال آخر نفسه بإلحاح، هل للدين مكانة في مجتمع المعرفة؟ أو هل يمكن أن يقوم الدين بدور في مجتمع المعرفة؟ الجواب، نعم؛ حيث سيكون الدين أحد العناصر أو المكونات لمجتمع المعرفة، ومادة مطروحة للتداول المعرفي من حيث البحث والدراسة والتأليف والتدوين والتدريس والتعليم، كما يوضح الرسم التوضيحي رقم ١.

فنحن نشاهد في هذا العصر أن للدين حضوراً قوياً، ودوراً بارزاً في الحياة العامة للناس. ويُتوقع أن يستمر دور الدين القوي في حياة البشرية كعامل استقرار للمجتمعات وأحد دوافعها نحو المستقبل؛ بل سيكون للدين في المستقبل دور أكبر، وأكثر، فاعلية مما يتوقع في هذا العصر. والمنطلق الآخر لمكانة الدين في مجتمع المعرفة نابع من أخلاقيات

مجتمع المعرفة، نفسها، المتعلقة بالحريات الشخصية، والديمقراطية التي تعطي الأفراد والجماعات الحرية في مجال المعتقدات الشخصية، وحق الاختيار، وحرية الرأي والتفكير، وحرية الأديان. ثم إن مجتمع المعرفة مطالب بأن « يتبنى قيم الانفتاح، والتنوع، والتسامح، وعدم الاستبعاد »(١، ص٧) .

وإضافة إلى ما سبق، فقد اقتحم الدين فعلياً عالم التكنولوجيا، خاصة في مجال الاتصالات الرقمية، وذلك من خلال الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت)، حيث توجد الكثير من المواقع الإلكترونية الدينية، التابعة لشخصيات، أو مؤسسات، أو مجموعات شعبية، أو رسمية. وذلك بدوره، يثبت أن الدين قد اقتحم بثقله المعهود السوق التجارية، و أصبح أحد مجالات الاستثمار الاقتصادي لعدد من المؤسسات، كمؤسسات الاتصالات، وصناعة الحاسب الآلي (في مجال البرمجيات مثلاً). وتشير التوقعات إلى نمو أكبر في هذا المجال في مستقبل الاتصالات، والإنترنت، والحاسب الآلي.

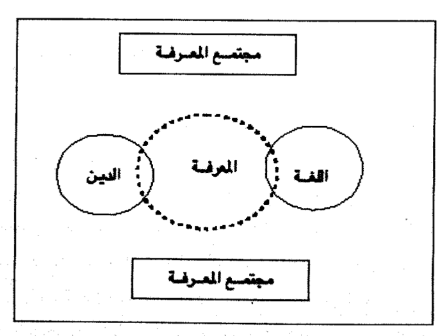
إن الحضور البارز للدين في مجتمع المعرفة سيجعل من الدين أحد المجالات المعرفية لمجتمع المعرفة، ويضعه على مسرح الدراسات العلمية والبحثية. فمن المجالات التي ستلقى قبولاً معتبراً في مجتمع المعرفة: الدراسات المقارنة للأديان، والمجتمعات، والهويات، والسياسات، والمؤسسات المجتمعية؛ وذلك لأجل التعرف على العوامل الحضارية المشتركة كالمعتقدات، والسلوكيات التي يشترك فيها أصحاب الحضارات المتعددة، للاستفادة منها في تطوير مجتمع المعرفة. أضف إلى ذلك أن المرجع القيمي والأخلاقي الذي يستند إليه مجتمع المعرفة- وقد ناقشنا هذا المجال سابقاً في هذه الدراسة يضع الدين والمصادر الأخرى للقيم والأخلاق في إطار طاولة الدراسات والبحوث؛ لأن الحاجة إلى القيم والأخلاقيات مستمرة ومتجددة بتجدد المعطيات، والمخترعات، والاكتشافات العلمية. ويبرز مجال آخر لدور الدين في مجتمع المعرفة من خلال الاستثمار في مجال المعرفة التقليدية المتمثلة في الممارسات الثقافية (ومنها الشعائر الدينية)، والفنون التراثية، والحرف التقليدية، وغيرها، وما ارتبط بها من أماكن ومنشآت، وذلك في إطار الاستثمار السياحي الهادف إلى مكاسب اقتصادية، وتكميل لدور المعرفة الحديثة (٢).

إلى جانب ذلك، يُنظر إلى الدين على أنه جزء من الهوية المجتمعية، التي تحرص كثير من الدول على الحفاظ عليها كسمة مميزة لها في مجتمع المعرفة. فالدول الإفريقية ترى في إعادة اكتشاف وتفعيل قيمها الحضارية، وفلسفتها، وتراثها الفكري من العوامل المُسَرِّعة لانضمامها إلى مجتمعات المعرفة (٣).

٢- اللغـــــة :

تحظى اللغة الوطنية بالأهمية نفسها التي يلاقيها الدين في الحضور الفاعل في مجتمع المعرفة كعنصر هوية ومادة علمية (انظر الرسم التوضيحي رقم ١). فبالنسبة للتجربة الإفريقية، « هناك إقرار وتأكيد على أنه يجب أن تلعب اللغات الإفريقية دوراً أكثر بروزاً في تنمية إفريقيا، خاصة في مجال العلوم والتكنولوجيا »(٣، ص ٣٤). أما دول جنوب شرق أوربا فترى في تفعيل هوياتها الثقافية، ومنها لغاتها الوطنية، جزءاً من الحرية، والاعتبار، وحقوق الأفراد والجماعات التي تحتاج إليه هذه الدول؛ لتتمكن من اللحاق بركب مجتمع المعرفة المتقدم(١٠).

إن هذه النظرة الخاصة التي تحظى بها اللغات القومية لا تعني بأي حال من الأحوال أن مجتمع المعرفة أحادي اللغة، أو أنه لا يعير الاهتمام المناسب للغات الأخرى. فمجتمع المعرفة يؤكد على أهمية اللغات العالمية كعنصر في التنمية المعرفية لمجتمع المعرفة المحلي. « فتعتمد مجتمعات المعرفة على احتضان أنماط وأشكال مختلفة من المعرفة المستمدة من مصادر متنوعة ». ويرى البعض أن إجادة لغات عالمية يجعل أفراد مجتمع المعرفة أكثر قدرة على التنافس عالمياً في الحصول على فرص حياة أفضل (٢).



رسم توضيحي (١):

مكانة الدين واللغة في مجتمع المعرفة، حيث يشكل كل من الدين واللغة أحد مكونات مجتمع المعرفة، وأحد عناصر المعرفة.

٣- الانتمـــــاء:

إن الهوية الحضارية تعني بالنسبة لنا أننا جزء من أمة، ولسنا نكرة في الوجود البشري. وهذا الانتماء الحضاري يكسبنا مكانة في التاريخ، وجذوراً في مسيرة البشرية، وفي الوقت نفسه يوفر الأرضية المشتركة لتنمية مجتمع معرفة مع الدول التي تشاركنا الانتماء إلى نفس الحضارة التي ننتمي إليها. فتميل دول العالم التي تجمعها خصائص حضارية معينة إلى تشكيل تكتلات أو تجمعات ترفع من قدرتها إلى اكتساب وتنمية خصائص مجتمع المعرفة. فدول الاتحاد الأوربي تعمل تحت مظلة واحدة لإنشاء مجتمع معرفة متين وثابت. وبالرغم من أن دول الاتحاد الأوربي ليست متجانسة ثقافياً، إلا أن الانطلاق من العوامل المشتركة ثقافياً، واجتماعياً، وسياسياً ساعد هذه الدول على وضع إطار عام لمجتمع معرفة أوربي مشترك، وقد شُكل لذلك العديد من فرق العمل واللجان، وظهرت العديد من الدراسات، والتقارير، والتوصيات التي تُعنى بمجتمع المعرفة الأوربي، منها تقرير مجموعة كبار الخبراء الصادر عام ١٩٩٧م، وفريق الخبراء المكلف بدراسة العلوم والحاكمية في المجتمع الأوربي (٦ و ١٢). وقد نحت الدول الإفريقية منحى الدول الأوربية في الانطلاق نحو مجتمع المعرفة، من منظور مشترك يجمع دول الاتحاد الإفريقي التي تلفها هوية حضارية مشتركة(٣).

وعلى صعيد العالم العربي/الإسلامي، نرى تكتلات أسستها الدول العربية/ الإسلامية مبنية على الهوية الحضارية المشتركة، مثل « منظمة المؤتمر الإسلامي » و« جامعة الدول العربية »، و« منظمة الخليج العربي »، وغيرها. وقد شكلت هذه الهوية العربية/الإسلامية المنطلق لعدد من البرامج التقييمية للدول العربية/ الإسلامية، منها تقرير الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٣م المعنون « تقرير التنمية البشرية في العالم العربي ٢٠٠٣: بناء مجتمع المعرفة» (Arab Human Development Report 2003: building a knowledge society). ثم أتبع هذا التقرير بدراسة تقويمية في عام ٢٠٠٨م تحت عنوان « ألفية جديدة للمعرفة » (a new millennium of knowledge) قام بها معهد سابان تحت مظلة مشروع يعنى بالعلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الإسلامي(٨). بل إن بعض التقارير الدولية توصي بأن تعمل الدول العربية تحت مظلة جماعية موظفة لذلك العوامل المشتركة للتنمية البشرية، وتحقيق مجتمع المعرفة، مستفيدةً من المعطيات المتوفرة للجميع. « بالرغم من أنه يمكنهم، بل عليهم أن يتعلم بعضهم من بعض، على العرب أن

يحددوا مستقبلهم بأنفسهم. وفي سعيهم لبناء مجتمع المعرفة ينبغي لهم أن لا يفقدوا الاتجاه السليم، وأن لا يكونوا وحيدين في هذه التجربة. فيمكنهم أن يستفيدوا من النماذج الناجحة التي تقدمها الدول، ليس البعيدة عنهم فقط، بل وحتى دول الجوار مثل تركيا وإيران» (٨، ص ٦١).

المستوى الثاني: الثوابت الفرعية

عند مقارنة طبيعة المعرفة، والتطلعات المعقودة على مجتمع المعرفة، بالثوابت التي دار حولها النقاش إلى الآن، والمتمثلة في الانتماء الحضاري، والدين واللغة، وهي - كما قلنا سابقاً - ثوابت توفر مظلة حضارية عامة للمجتمع، نرى حاجة إلى رؤية تفصيلية للثوابت، مستجيبة لطبيعة المعرفة، وخصائص مجتمع المعرفة. من هنا نتحدث في هذا السياق عن ما نسميه المستوى الثاني من الثوابت أو مستوى الثوابت الفرعية. وهذا المستوى سيساعدنا في عرض الثوابت التي قدمت بدرجة عالية من العمومية في المستوى الأول، على شكل معطيات حضارية، وأهداف واستراتيجيات معرفية مفصلة ومجزأة.

فمن الثابت تاريخياً أن الأمة الإسلامية صانعة حضارة، ومؤثرة بفاعلية في الحياة البشرية، ومشاركة في إبداع المعرفة وتطويرها على الصعيدين النظري والعملي. وهذا في حد ذاته إرث مهم، يُحمِّل الأجيال الجديدة مسؤولية دفع عجلة الحضارة إلى التقدم والرقي الذي تنشده الحضارة الإسلامية، وما لم تقم الأجيال الجديدة بدورها الحضاري الذي ورثته، فإن انتماءها إلى هذه الأمة سيصبح عديم المعنى، بل إن الثوابت الحضارية لهوية الأمة ستغدو غير ذات قيمة في مجتمع لا يحمل على عاتقه الحفاظ عليها. فماذا يعني أن يكون فريق ما جزءاً من الأمة الإسلامية، إن كان ذلك الفريق متخلفاً معرفياً، ومتأخراً علمياً، واقتصادياً، وصناعياً، وغير قادر على المساهمة في خدمة البشرية، وتطوير الإنسانية. ومن هنا، فإن السعي إلى التقدم والرقي في كل المجالات» الحضارية، سيصب في تدعيم الهوية الحضارية للأمة؛ لأنها ستكون أمة منتجة، ومساهمة في الرقي الحضاري، ورفع مستوى ما تقدمه لخدمة الإنسانية. وهذا الدور الفاعل ليس له مجالات دون أخرى، بل يشمل سائر مجالات الحياة. لذا نصبح أمام مستوى ثانٍ من الثوابت تبدو فيه مجالات الإنجاز أكثر تفصيلاً، فتشمل مثلاً: الاقتصاد، والصناعة، والتعليم، والبحث العلمي، والطب وغيرها من المجالات. وإن كانت هذه الثوابت الفرعية تستند إلى الثوابت

الحضارية الأساسية في المستوى الأول، وتستمد وجودها منها، فإنها أيضاً لا تتصادم مع معطيات مجتمع المعرفة وأهدافه وطموحاته، بل تشترك معها في السعي إلى تحقيق إنجازات حضارية تصب في رقي البشرية، وتنمية الإنسان والمجتمع.

فالمعرفة تشمل تخصصات مختلفة منها « التعليم، والعلوم، والتكنولوجيا، والبحوث، والتطوير، والابتكار، والاقتصاد، والسياسة الإعلامية، وحقوق الإنسان، والنهوض بالثقافة، والنظم الاجتماعية، والسياسية التي تشمل المعرفة في ثناياها، والتي تعزز، أو تعوق النشوء الحقيقي لمجتمع المعرفة »(١، ص١١) . وقد طولب مجتمع المعرفة الذي يعالج كل المواضيع السابقة أن يصل بالتنمية البشرية إلى الحد الأقصى، وأن يكون مجتمعاً ديناميكياً، لا تتوقف وتيرة حراكه وتطوره؛ لأن المعرفة لا متناهية، وهي ليست نقطة يمكن الوصول إليها ثم التوقف عندها، « فمجتمع المعرفة، الذي يقوم على أساس الإبداع البشري، يمكن أن يكون نسقاً قابلاً للتطوير، بل ويمكن إسراع وتيرته إلى ما لا نهاية »(١، ص١١).

والمستوى الثاني من الثوابت (الثوابت الفرعية) يشمل مجالات المعرفة التي تُعلّق عليها الآمال لتحقيق الرقي والتقدم، للوصول إلى مجتمع المعرفة الحقيقي. فالدرجات القصوى من التقدم المعرفي تَعني أن مجتمع المعرفة قد حقق إنجازات عُليا في مجالات معرفية وحضارية متنوعة ومتعددة منها، على سبيل المثال لا الحصر: التكنولوجيا، والصناعة، والاقتصاد، والتعليم، والبحث العلمي، والثقافة، والاجتماع، والسياسة، والإعلام. فالمجتمعات المتقدمة معرفياً تختلف عن المجتمعات المتراجعة معرفياً ـ أي المُنَظَمة على أساس عدم المعرفة ـ، والمجتمعات الراكدة أي ذات التنظيم المتخلخل أو الاعتباطي أو المرضي، إلا أن المجتمعات الأولى مبنية على أساس الإسراع بوتيرة المعرفة من خلال مجموعة مختلفة من العناصر الفاعلة، والأهداف، والمؤسسات، والشراكات، والعمليات، والنظم أو الآليات. إن الثوابت على هذا المستوى تعني إدراكاً بالأهداف الواجب تحقيقها، وبما يجب فعله للوصول إلى مستوى المجتمعات المتقدمة معرفياً، بحيث يتم بناء أمة ناجحة في إنشاء المعرفة وتوليدها، واستخدامها، والحصول عليها، ونشرها، واستيعابها، وتملكها، وتكييفها، ومعالجتها، واستثمار تلك المكتسبات المعرفية في بيئة مُعَزِّزَة للنمو، وجلب قيمة مضافة في مجالات الأعمال التجارية، والسياسة، والحياة الاجتماعية بصورة عامة.

بشكل إجمالي، يشكل هذا المستوى من الثوابت القاعدة المركزية والمنطلق الرئيسي لـ:

إنشاء وتطوير مجتمع متقدم معرفياً في كل مجالات المعرفة الحديثة والتقليدية، بما فيها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والمعلوماتية، والتكنولوجية، والثقافية، والصناعية، والطبية، والدينية... إلخ.

- وضع السياسات والممارسات والاستراتيجيات الملائمة لتوسيع حيز الإبداع وازدهاره.
- جني ثمار المعرفة بغرض تحقيق التنمية.
- نشر ثقافة مجتمع المعرفة بين كافة أفراد الشعب.
- ضمان الاستمرارية والبقاء لمنجزات مجتمع المعرفة المتقدم.

وهكذا نرى أن أهمية الثوابت في هذا المستوى تنبع من أنها تشكل سقف الإنجازات التي يجب أن يتم تحقيقها واكتسابها للوصول إلى مستوى المجتمع المتقدم معرفياً. وأي خلل يصيب هذه الثوابت، أو إفراط أو تفريط في صياغتها وتحقيقها، سيؤثر سلباً على الهدف العام. وهو تحقيق مجتمع معرفي متقدم، ودور حضاري ذي قيمة للإنسانية. وبلا شك، يتطلب تحقيق هذه الثوابت بنجاح وجود آليات تنفيذ، واستراتيجيات تطبيق عملية ومرنة، وهذا بدوره يقودنا إلى الحديث عن المتغيرات في مجتمع المعرفة.

المتغيرات في مجتمع المعرفة:

إن التطبيق والتفعيل هو المجال القابل لاستيعاب مفهوم المتغيرات في مجتمع المعرفة. بمعنى آخر أن المتغيرات تأتي على مستوى التطبيق والتفعيل، وليس على مستوى هوية الأمة وانتمائها الحضاري، ولا على مستوى الطموحات والأهداف في تحقيق مجتمع معرفة ينسجم مع الدور الحضاري للأمة. وتصنيف المتغيرات في خانة التطبيق والتفعيل يساعد على تحقيق غايتين.

أولاً: عدم المساومة على الدور الحضاري للأمة وهويتها وفكرها وثقافتها، والطموحات والأهداف العليا؛ لتحقيق مجتمع معرفة متقدم وفق المعايير العالمية. فالثوابت هي المنطلق، والأساس والغاية السامية التي ينبغي أن تسخر كل الطاقات للوصول إليها.

وثانياً: وضع المتغيرات تحت مظلة التطبيق والتفعيل يساعد في إيجاد نوع من المرونة للتعامل مع التحديات والمعوقات التي تعترض تطوير مجتمع معرفة متقدم؛ حيث ينبغي أن تشمل المتغيرات جانبين مترابطين، هما: أساليب التنمية المعرفية وطرقها، والجزئيات التي تشتمل عليها مجالات المعرفة وعناصرها. فمن البدهي أن إنشاء مجتمع معرفة متقدم لم ولن يكون يوماً من الأيام من البساطة بمكان. فهناك أشكال متعددة من التحديات تواجه الشعوب الراغبة في التطور المعرفي، وتعترض تفعيل المعرفة، وتجعل الطريق إلى تحقيق مجتمع معرفي فعال هدفاً صعباً ومعقداً. ومن المهم أن ندرك أن التحديات لا تقتصر على الجوانب المادية، أو المالية، أو الفيزيائية، كالبنى التحتية، والأصول، والإدارة، بل تشمل سائر المجالات الثقافية، والاجتماعية، وحتى الإنسان نفسه باعتبار أنه حجر الأساس في صناعة المعرفة، وإبداعها، واستخدامها، وتطويرها.

وتشمل تلك التحديات أيضاً المعرفة نفسها باعتبار أنها خاضعة للتجديد والتبديل والتطوير وفق تغير المعطيات العلمية، وما يصاحب العقلية البشرية ومفهوم الإنسان، ومبادئه، وفلسفته، من تطورات وتغيرات.

وتشكل الفجوة المعرفية بين « الأغنياء معرفياً » و« الفقراء معرفياً » إحدى جوانب التحدي، وهي عقبة قائمة ومتجددة لأسباب كثيرة، منها استمرار عدد من المؤسسات العالمية - شركات الدواء مثالاً - على احتكار المعرفة، واستغلال إمكانات المجتمعات النامية لمصالحها الذاتية (٥). وإلى جانب ذلك، لا تزال نظرية مجتمع المعرفة غير مكتملة التبلور في العقلية العالمية، وهذا بدوره يشكل مصدراً للتحديات. كما أنه لا توجد مناهج علمية لوضع استراتيجيات للمعرفة على المستوى الوطني؛ مما أدى إلى اتباع أساليب تتسم بالارتجال. والأساليب الوطنية المتبعة حالياً بحاجة إلى الدراسات والبحوث التقويمية لمعرفة مدى نجاحها. وقد اتضح أيضاً أن « اتباع نَهج متسق وحيد في وضع استراتيجية للمعرفة تشمل جميع جوانب مجتمع المعرفة أمر صعب المنال، وقد لا يكون عملياً » (١، ص١٢).

وللعالم العربي خصوصياته فيما يتعلق بالتحديات والصعوبات المرتبطة بإنشاء مجتمع معرفة متطور. فهناك خمسة مجالات بحاجة إلى تطوير وعناية حتى تحسن الدول العربية من فُرص نجاحها في بناء مجتمع معرفة متقدم، وهي:

- المناخ الداعم لخلق حرية التعبير الإبداعي والحُر وممارسته.
- التعليم ذو الجودة العالية في كل المستويات الدراسية والتعليمية.
- عناية كاملة وإخلاص في مجال العلوم والبحوث العلمية.
- قطاع صناعي قائم على الإنتاج المبني على المعرفة.
- ثقافة التعلم والإبداع (٨).

ولمواجهة المعوقات، والتغلب على الصعوبات، « يجب مراعاة جميع العناصر المكونة لقدرة المجتمع على توليد المعرفة، والحصول عليها، ونشرها، واستيعابها، وتملكها، وتكييفها، ومعالجتها، واتخاذ التدابير الملائمة لبلوغ هذه الغايات. وتتمثل إحدى هذه التدابير في وضع استراتيجيات ونظم ترمي إلى جني ثمرات المعرفة بغرض تحقيق التنمية. وتشمل الإستراتيجيات الفهم العام لمفهوم المعرفة من أجل التنمية، والأهداف، والسياسات، والطرائق، وأخيراً التخصيص الإستراتيجي للموارد. وينبغي أن تكون السياسات متجذرة في البيئة الاجتماعية والثقافية ومتطابقة مع الأهداف ومعقولة من حيث الأهداف المتوخاة» (١، ص١٢).

والعلاقة بين المتغيرات والثوابت ديناميكية. فالمتغيرات امتداد للثوابت، وتفعيل لها على أرض الواقع، لكن لا يمكن أن تتضمن إلغاءها أو تعطيلها، وإلا أصيب المجتمع بخلل معرفي كبير ومؤثر. فعلى سبيل المثال، العملية التعليمية في حد ذاتها، أحد الثوابت الحضارية لمجتمع المعرفة. وهذا الثابت يتكون من جزئيات كثيرة تختلف في درجة أهميتها، وفاعليتها، وتأثيرها على غيرها من الجزئيات منها، على سبيل المثال، المعلمون المؤهلون، والمدارس المجهزة بأحدث المعدات والتكنولوجيا، والمناهج الدراسية المتطورة، والمواد التعليمية المناسبة.

وكما هو معلوم للجميع، وفي كل دول العالم، أن عملية تطوير التعليم تواجهها كثير من التحديات، نأخذ منها المعوقات المالية كمثال لهذا النقاش التوضيحي للعلاقة بين الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة. فعلى سبيل المثال، إن كانت المخصصات المالية لعام دراسي بعينه لا تسمح بشراء أجهزة الحاسوب لطلاب مدرسة ما في إحدى المدن، فإن حل هذه المشكلة لا يتمثل في إلغاء العملية التعليمية بأكملها من المجتمع. فلو ألغيت العملية التعليمية لعجز المجتمع أن يصبح مجتمع معرفة، بل يصبح مجتمعاً متخلفاً معرفياً.

فكيف إذاً يمكن التغلب على هذه الصعوبة؟ هناك كثير من الحلول، منها على سبيل المثال: تأجيل شراء أجهزة الحاسوب إلى العام أو الأعوام القادمة. بالتأكيد أن عدم استخدام الطلبة للحاسوب لمدة عام دراسي أو أكثر سيحرمهم من اكتساب عدد من المهارات والمعارف، لكنه أقل أثراً وبشكل لا يقارن من خيار إلغاء التعليم في البلد. وبلا شك، هناك حلول أخرى لمواجهة هذه العقبة، منها على سبيل المثال: أن تضع المدرسة آلية لتشجيع الطلبة على استخدام أجهزة الحاسوب المنزلية، أو التردد على أحد المراكز

(١) - انظر الرسم التوضيحي رقم ٢.

الثقافية بالمدينة لعمل واجبات تكلفهم بها المدرسة. وبمثل هذه الحلول لا يحرم التلاميذ من اكتساب مهارات الحاسب الآلي. وهكذا نرى من خلال هذا المثال، أن التعليم، في حد ذاته أحد الثوابت في مجتمع المعرفة، في حين أن استخدام الحاسوب في العملية التعليمية أحد المتغيرات المتعلقة بهذا الثابت. وهذا المتغير، كما ذكرنا سابقاً، يشمل جانبين: الجزئيات: (استخدام الحاسوب في المدارس)، والاستراتيجيات (طريقة تفعيل الجزئيات والتغلب على المشكلات التي تواجه ذلك)، وهما وجهان لعملة واحدة.

مجتمع المعرفة

الثوابت

المستوى الأول: الثوابت الأساسية

الهوية الحضارية للمجتمع العماني المتمثلة في:

الانتماء إلى الأمة الإسلامية العربية
الدين الإسلامي
اللغة العربية

المستوى الثاني الثوابت الفرعية

مبني على الثوابت في المستوى الأول.
يأخذ في الاعتبار متطلبات مجتمع المعرفة.
يشتمل على سائر مجالات المعرفة مثل: التعليم، الصناعة، البحث العلمي، التجارة، الانسانيات، نظم الاتصالات، حرية التعبير، السياسة... إلخ.
تحقيق هذا المستوى يحتم وجود المتغيرات

المتغيرات

مبنية على الثوابت الفرعية.
ضرورية لتحقيق الثوابت الفرعية.
تشمل الجزئيات التي تتكون منها مجالات المعرفة التي احتوت عليها الثوابت الفرعية.
تشمل الاستراتيجيات، والخطط، والوسائل، الضرورية لبناء مجتمع المعرفة وتطويره.

المجالات: التطيم العام، التطيم الجامعي، التعليم التقني، التعليم المستمر، التدريب على رأس العمل... إلخ.
البنى التحتية: المدارس، الكليات، الجامعات، المعاهد، (الحكومية والخاصة)،... إلخ.
التجهيزات: المواد التعلمية، أجهزة الحاسوب، أجهزة المختبرات، معدات الورش ... إلخ.
الموارد البشرية: مدرسين، أكاديميين، فنيين، إداريين، باحثين... إلخ
أخرى: الخطة الخمسية، الخطة الاستراتيجية، مناهج التدريس، البحوث العلمية، المؤتمرات، حلقات العمل، الدوريات، خدمة الانترنت... إلخ.

مثال

التعليم

مجتمع المعرفة

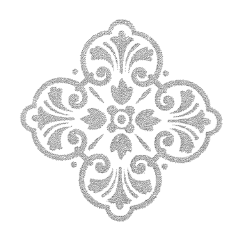
رسم توضيحي (٢):

العلاقة بين الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة

الخاتمـــــة :

تتحدد الثوابت والمتغيرات في مجتمع المعرفة بعاملين أساسيين هما:

الخلفية الحضارية والثقافية للمجتمع الساعي للوصول إلى مجتمع المعرفة، وخصائص وسمات مجتمع المعرفة وفق المعطيات العالمية المعاصرة. والرؤية التي قدمتها هذه الورقة للثوابت والمتغيرات تأخذ في عين الاعتبار الهوية الحضارية للشعب العماني، الذي تربطه جذور تاريخية عميقة بالحضارة الإسلامية العربية. وقد حمل هذا الشعب على عاتقه عبر قرون طويلة الحفاظ على خصوصيات هذه الهوية بالحضور الفاعل على ساحة الحضارة الإنسانية. من هنا تشكل هذه الخلفية الحضارية للشعب العماني العربي المسلم منطلقاً للثوابت في مجتمع المعرفة. إلا أن لمجتمع المعرفة خصائص وسمات، ما لم يتم الوصول إليها فإن المجتمع لا تتحقق له اشتراطات مجتمع المعرفة المتقدم. من هنا فإن لدينا مستوى ثاني من الثوابت تتمثل في مجالات المعرفة التي على المجتمع أن يعتني بها، حتى يمكن أن يصبح مجتمع معرفة متقدم. ووفق التجارب العالمية في هذا المجال، فإن الوصول إلى درجة مجتمع معرفة متقدم، لا يتم إلا باستراتيجيات وخطط ومناهج تتجاوب مع كل التحديات، وتتغلب على كل الصعاب. لذا، فإن الأولويات، والخطط، والاستراتيجيات، والبدائل، تندرج تحت مظلة المتغيرات. وإن أمكن تحديد هذا الإطار للثوابت والمتغيرات، فإن هناك حاجة ماسة لمزيد من الدراسات والبحوث، تحدد نوع الثوابت والمتغيرات لكل مجال من مجالات المعرفة. فجوانب المعرفة كثيرة ومتجددة، والمتغيرات المرتبطة بها متشعبة ومتداخلة. لذا فإن الدراسات والبحوث هي وحدها القادرة على تحديد خارطة الطريق إلى مجتمع المعرفة المتقدم للمجتمع العماني.



المراجــــع

١- « دور القطــاع العام في تقــدم مجتمع المعــرفة »، تقرير الأمانة العامــة، الأمم المتحــدة، المجلس الاقتصــادي والاجتمــاعي، (E/c.16/2004/4; 0421218).

2 - Bhargava. P. (2007) How to make India a knowledge-based society. Futures: 39, pp 997-1007.

3 - Britz. J.; Lor. P; Coetzee. I. & Bester. A. (2006) Africa as a knowledge society: areality check. The International Information Library Review: 38. pp 25-40.

4 - Cheng. C. Y. (2004) Fostering local knowledge and human development in globalization of education. The International Journal of Educational Management. 18 (1). pp. 7-24.

5 - Evers. H (2002) Knowledge Society and the Knowledge Gap. Paer read at an International Conference. "Globalisation, Culture and Inequalities", in honour of the work of the late Professor Ishak Shari. 19-21 August 2002. University Kebansaan Malaysia.

6 - Felt. U & Wynee. B. (2007) Taking European knowledge society seriously. European Commission: European communities. No: EUR 22700.

7 - Kring. B (2006) The sociological perspective on the knowledge-based society: assumptions. facts and visions. MPRA: 7110; pp 9-19.

8 - Lord. K (2008) A new Millennium of knowledge? Brooking: Saban Centre.

9- Saviott. P. (2007) on the dynamics of generation and utilization of knowledge: the local character of knowledge. Structural Change and Economic Dynamics: 18. pp 387-408.

10 - Slaus. I. (2007) Building a knowledge-based society: the case of South East Europe. Futures: 39. pp 986-996.

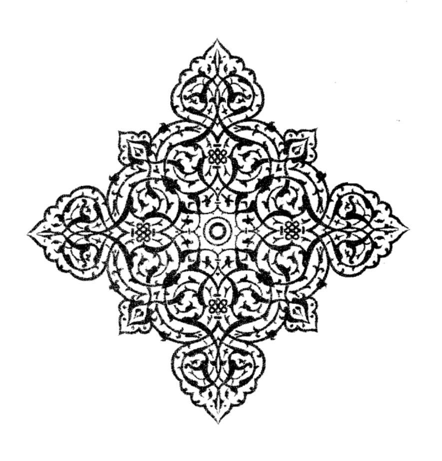
11- Tripathi. M. (2006) Transforming India into a knowledge economy through information communication technology- current developments. The International Information & Library Review: 38. pp 139-146.

12 - Tuomi. I (2001) From periphery to centre: emerging research topics on knowledge society. Technology Review 116. Helsinki: TEKES.

العلـوم الشرعيـة في عصر الانفتاح المعرفي

أ. خميس بن راشد العدوي (*)

(*) عمل مستشارا بالمديرية العامة للوعظ والإرشاد، بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عمان، وشارك في عدة ندوات ومؤتمرات واللجان المتخصصة، وشغل عضوية عدد من الجمعيات، وصدر له العديد من الأبحاث والكتب منها: الواقعية والوحدة الإسلامية، الفكر والتطبيق، رواية الفرقة الناجية.





مقدمـــــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛؛؛

فبداية، أتقدم بالشكر الجزيل إلى مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية على إقامته هذه الندوة بعنوان « الإسلام ومجتمع المعرفة »، والتي يؤمل منها أن تدرس ظاهرة الانفتاح المعرفي المعاصر، وتدفقه بالمعلومات الهائلة على مجتمعاتنا المسلمة، وأثره على البنية الاجتماعية في عمان، وكذلك مدى التغيير الذي يلحقه بالعلوم الشرعية، ثم الخروج بتوصيات علمية وعملية للبناء الاجتماعي، والتدوين العلمي بنجاح، متخطين في ذلك قدر الإمكان الجوانب السلبية.

هذه الندوة فعلاً تأتي في وقتها المناسب، حيث إن عقدين من الزمن تقريباً قد كشفا كثيراً من معالم الانفتاح المعرفي في العصر الرقمي، وكذلك أعطت المجتمع العماني؛ بمختلف قواه السياسية والمعرفية والاقتصادية والاجتماعية رؤية نرجو أن تكون واضحة بما يكفي لترتيب أوراقه للدخول إلى هذا العصر، ليس من النافذة الخلفية؛ حيث التبعية والاستجداء المعرفي، بل من الباب الأمامي، حيث العمل الأكيد والسعي الحثيث لإنتاج المعرفة، كما عملنا في الأزمنة المنصرمة في المشاركة بفاعلية في صناعة المعرفة، حين شارك العمانيون باقتدار في البناء العلمي إخوانهم المسلمين.

فأسس جابر بن زيد أحد المذاهب الثلاثة التي يسير عليها المسلمون في تفكيرهم الديني والعلمي وهو المذهب الإباضي، وجمـع الربيـع بن حبيب الفراهيـدي في مسنده أحـاديث رسول الله ﷺ، والذي يعدّ بحق نقلة في التفكير الروائي لدى المسلمين، حيث لم يكن همه مجرد النقل، بل اختاره بعقل الفقيه الذي رسخ في فهم الشريعة الإسلامية، وإلى الخليل بن أحمد الفراهيدي يرجع الفضل في تأسيس علوم اللغة العربية، ومنها اختراعه علم العروض ووضع معجم العين وغيرهما، وكان لمحمد بن دريد إسهاماته اللغوية الكبيرة، وعلم التأريخ لا ننسى فيه مساهمات أبي سفيان محبوب بن الرحيل الصحاري، الذي

لم يُدرَس إلى الآن منهجه التأريخي، والذي يعود له الفضل في تأسيس التفكير التأريخي لنظرية الشورى والفكر الديمقراطي، والعقل الفقهي لدى العمانيين؛ بأصوله يعود إلى أبي محمد عبدالله بن بركة البهلوي بوضعه كتابه « الجامع »، وبالتفريع الفقهي يعود إلى أبي سعيد محمد بن سعيد الكدمي بتأليفه كتبه العديدة ومنها: « الاستقامة » و« المعتبر » و« الجامع المفيد »، والتفكير العقدي كانت اليد في تأصيله وإنضاجه وتبويبه لأبي الحسن علي بن محمد البسيوي كما يشهد عليه الربع الأول من كتابه « الجامع ».

راجياً الله تعالى أن يقدرني في ورقتي البحثية هذه المعنونة بـ « العلوم الشرعية في عصر الانفتاح المعرفي »، على كتابة بعض الخطوط العريضة في مجال تأثير الانفتاح على العلوم الشرعية، ورسم بعض ملامح التغيير عليها، والإلماح إلى سبل الاستفادة منه إيجاباً، بدلاً من مواجهته سلباً.

هذا؛ والموضوع دقيق ومتشعب، وليس لي القدرة على إيفائه حقه، فإني قليل العلم، ضعيف الهمة، فأنا لا زلت استجمع أمري لأكون طالب علم، فتفتر عزيمتي ويكّل ذهني، فما بالكم بمعالجة هذا الموضوع الذي يحتاج إلى عقول راسخة في الفهم، مستجمعة لمعاني الحكمة، متحصلة على فنون العلم وأضرب المعارف، ولكن ما شجعني على الكتابة فيه نيل شرف تلبية دعوة من لا ترد دعوته، والوقوف بين أيدي العلماء أمثالكم للاستفادة من واسع علمهم، والنهل من معين فكرهم، والتأدب بخلقهم وسلوكهم، فمجالسة العلماء إن لم يقدر الطالب على نيل الحكمة منها، فإنها تفيض عليه أدباً، وإلا فقد حبس نفسه بين يديهم عن فضول الحياة.

في ورقتي هذه قمت بتتبع العلوم الشرعية وعلاقتها بالانفتاح المعرفي منذ لحظة بزوغ الإسلام، فهو الذي غرس لهذه العلوم بذرتها الأولى، وهو الذي منحها سر الحياة والاستمرار، مبتدأ بالعنوان للوقوف على معناه ونقده، ثم الأطوار التي مرت بها العلوم الشرعية، نافذاً منها إلى الطور الأخير، حيث فيه العصر الرقمي وقدرته الهائلة على تغيير الأفكار، وهو ما يستلزم المسلمين مواكبته بصناعة مناهج معرفية جديدة، بدلاً من المناهج الغربية التي تعصف بتفكيرهم كل لحظة، مستخدمة آلة الزمن؛ الشبكة العالمية للمعلومات « الإنترنت » والقنوات الفضائية.

لم أشأ التوسع والتفصيل وكثرة ضرب الأمثلة؛ لطول الموضوع وتشعبه، ولطبيعة الملتقيات والندوات، وإنما سلكت مسلك الاختصار ووضع النقاط العريضة، ومع هذا جاءت

صفحات الورقة أكثر من المحدد، ولم أركن فيها إلى دراسة سابقة بعينها، وإنما استجمعت فيها قراءاتي وملاحظاتي المتراكمة، واستحضرت قدر الإمكان المراجع التي قربت الفكرة، وتمدني بمساحة قرأت فيها تجليات التغيّر والتفسير، ولذا فقد تكون رؤية تحتاج إلى مزيد من الكشف والبيان، وإلى تخطي النواقص وتصويب الأخطاء، وهذا ما أنتظره من العلماء والمفكرين الكرام الذي يغنون هذا المحفل بفكرهم النيّر وعلمهم الوافر.

في معنى العنوان ونقده:

العلم لغة: هو الإدراك بيقين الذي ضد الظن والشك، جاء في معجم « لعين » (اليَقِين: العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر)[1]، وهو أيضاً ضد الجهل، لأن الجهل مرتع الظنون والشكوك، ففي « العين » « علم: عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْماً، نقيض جَهِلَ »[2].

ويقصد بالعلم هنا الفن الذي يدرس جانباً معرفياً وفق المناهج العلمية المعتبَرة في مجالها، والتي تبغي الوصول إلى الحقائق، متجاوزة بذلك أوهام العقول المؤثرة على الإدراك، محققة الموضوعية، ومبتعدة عن الذاتية والمذهبية.

والشرعية: نسبة إلى الشرع الإسلامي، وسمي الإسلام شرعاً؛ لأنه الأصل الذي يرجع إليه ويرتوى من معينه.

فالشريعة لغة هي مورد الماء الوافر الذي لا ينضب، ويكون في العدّ والأصل، جاء في « لسان العرب » « والشَّرِيعَة والشِّراع والمَشْرَعَة: المواضعُ التي يُنْحَدر إلى الماء منها، قال اللَّيث: وبها سمي ما شَرَع الله للعبادِ شَريعة في الصوم والصلاة والحج والنكاح وغيره. والشِّرْعَة والشَّرِيعَة في كلام العرب: مَشْرَعَة الماء، وهي مَوْرِدُ الشارِبَة التي يَشْرَعُها الناس فيشربون منها ويَسْتَقُون، وربما شَرَّعُوهَا دوابّهم حتى تَشْرَعَها وتشرَب منها، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهراً مَعِيناً لا يُسْقَى بالرِّشاءِ»[3]، وعندنا في لغة أهل عمان شريعة الفلج: موضع أصله وأمه.

(١) - الخليل بن أحمد، العين، فصل (ق ن أ، أ ن ق، أ ق ن، مُستعملات).
(٢) - المرجع نفسه، فصل (ع ل م، ع م ل، م ع ل، ل م ع، مُستعملات).
(٣) - ابن منظور، لسان العرب، فصل (شرع).

والعلوم الشرعية: هي الفنون المعرفية التي تعنى بالشرع الإسلامي؛ دراسة وتحقيقاً وتبويباً، وتأصيلاً وتفريعاً، وأخذاً ورداً، ومنها:

- علوم القرآن، وتضم فروعاً منها: علم القراءات، وعلم التجويد، وعلم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، ونحوها.
- علوم الحديث النبوي، وتضم فروعاً: منها علم السند، وعلم الجرح والتعديل، وعلم الدراية، ونحوها.
- العلوم الفقهية، وتضم فروعاً منها: علم أصول الفقه، وعلم الفقه، وعلم المقاصد، وعلم القواعد الأصولية والفقهية، ونحوها.
- علوم الكلام، وتضم فروعاً منها: علم الجدل والمناظرة، وعلم العقيدة، ونحوها.
- علوم الآلة: وهي العلوم التي تخدم العلوم السابقة كعلوم العربية بما فيها النحو والصرف والبلاغة ونحوها، وعلم التأريخ، وعلم الحساب والرياضيات، وما كان في مستواها.

وكلمة « الشرعي » يقابلها على الضد « غير الشرعي »، و« الشرعي »: هو الذي له سند من الشرع، أو هو منبثق من شرع الله، و« غير الشرعي » هو عكسه، أي الذي ليس له سند من شرع الله، ولا له به صلة، وعلى هذا فالعلوم الشرعية هي العلوم الجائز دراستها والاشتغال بها، والأخذ منها، وغير الشرعية هي عكس ذلك، فهي المحظور دراستها في كل ذلك.

وهذا التقسيم بهذا الاعتبار فيه نظر؛ لأنه يوحي أن علوم الاقتصاد، والعلوم الطبية، والعلوم الاجتماعية، وعلم النفس، وعلم السياسة، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء، وعلم الذرة، وعلم الفلك، وعلم الفضاء، وسائرها؛ غير شرعية، أي كأنها علوم محظورة، وعلى أقل تقدير لا دخل للشرع فيها، وهذا أمر مرفوض، فهي علوم مشروعة، بل وجهنا الله تعالى إليها في محكم كتابه، وذلك في آيات التسخير، والسير في الأرض، والتدبر والاعتبار، منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]،

(١) - سورة إبراهيم الآية ٣٢-٣٣.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴿٩﴾ ﴾[2].

خاصة مليئة بالتوجيهات نحو علوم الكون.

ودين الله مهيمن على كل مناحي الحياة، وكل علم هو في أصله شرعي، ويجب أن يُلتزم فيه بضوابط الشرع وأخلاقه، وكل علم ليس شرعياً هو علم يحرّمه الشرع كعلم صناعة الخمور وتسويقها، أو علم القمار والميسر، أو علم الفنون الإباحية، أو علم السرقة والسطو، أو علم ترويج المخدرات وتسويقها، ونحو ذلك، إلا إن كانت هذه العلوم تدرس لأجل القضاء على موبقاتها، وتجنيب الناس شرورها وآثامها.

ومع أنني لا أعترض على مسمى العلوم الشرعية، لكنني أحببت أن أسلط الضوء على هذا الجانب، وخاصة في هذا الزمن الذي انتشر فيه التوجه العلماني، الذي يفصل بين الدين وكثير من نواحي الحياة، وهو توجه أصبح يصبغ الكثير من الدراسات الإنسانية، ومع أنني سأعتمد مصطلح العلوم الشرعية، إلا أنني أقدم مصطلحاً آخر لعله يكون الأوفق، وهو « علوم دراسة الشرع ».

عصر الانفتاح: يقصد به هذا العصر الذي نعيشه، وهو ما يصطلح أيضاً على تسميته بعصر العولمة، أو العصر الرقمي، و(العولمة: هي إخراج الأشياء من حيز الخصوصية إلى آفاق العالمية، في أقصى سرعة ممكنة، بوسائل الاتصال الحديثة بغية تحقيق المصالح)[3].

ويمكن أن نحدده ببداية العقد الأخير من القرن العشرين المنصرم، وكحدٍّ فاصل هو سقوط المنظومة الشيوعية متمثلة في تفكك جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وفشل النظرية الماركسية عملاً وواقعاً. وكأن المنظومة الرأسمالية كانت تنتظر سقوط الاتحاد السوفيتي لتطلق آليات العصر الرقمي وبرامج العولمة، وفي مقدمتها القنوات الفضائية

---

(١) – سورة العنكبوت الآية ٢٠.
(٢) – سورة الروم الآية ٩.
(٣) – خميس بن راشد العدوي، رسالة المسلم في عصر العولمة، نسخة إلكترونية.

والانترنت، ويأتي الهاتف النقال في سياقها، وذلك حتى تنفرد الرأسمالية الغربية بتسويق أيديولوجياتها، وحتى لا تستغلها الشيوعية.

وإذا أخذنا الانفتاح بمعنى ضد الانغلاق، حيث جاء في « تاج العروس » « فَتَحَ البَابَ كَمَنَعَ؛ يَفْتَحُه فَتْحاً فانفتحَ: ضِدُّ أَغلَقَ »[١]، « ومَا أَحْسَنَ ما افتُتِحَ عامُنَا به، إذا ظَهرتْ أَمَارَةُ الخصْب »[٢]، فالانفتاح بهذا المعنى هو الانكشاف، فـ « الكَشْفُ والكاشِفَةُ: الإظْهارُ، ورَفْعُ شيءٍ عما يُواريه ويُغَطِّيه »[٣]، وهو أيضاً الصدارة والبروز، ومن ذلك سميت السورة الأولى في القرآن بالفاتحة، فأيضاً حصر مصطلح « عصر الانفتاح » على العصر الرقمي فيه نظر، وذلك أن الانفتاح لا يختص بهذا العصر، بل الانفتاح هو سمة الحضارة في أي عصر من العصور، وما من حضارة قامت على هذه البسيطة إلا وكان الانفتاح خصيصة من خصائصها.

والحضارة الإسلامية منذ نشأتها الأولى قائمة على الانفتاح، والانفتاح أذكاها ونشرها، ويكفي أن نشير بأن الإسلام لما كان في مكة المكرمة كان محدود الانتشار، وعندما هاجر المسلمون بقيادة النبي الأعظم ﷺ إلى المدينة المنورة، وانفتح على الأديان والثقافات والقبائل والشعوب، انتشرت دعوته، واعتنقها الناس، ودخلوا في دين الله أفواجاً، ولذلك كان ﷺ منذ سنينه الأولى في مكة يبحث عن مكان آخر غيرها، بعد أن انغلق أمر دعوته فيها، ولذلك حدثت الهجرة إلى الحبشة، وعرض رسول الله أمره على كثير من قبائل العرب. والعلوم الشرعية هي الأخرى كانت نتيجة الانفتاح على الثقافات المعاصرة آنذاك.

إذن لا يمكن أن نحصر الانفتاح على هذا العصر، ومع ذلك فله سماته الخاصة به التي ينبغي دراستها وبحثها، وكان يجدر أن يكون العنوان بهذه الصيغة « علوم دراسة الشرع في العصر الرقمي » وذلك حتى يكون أكثر تحديداً، وأوفى على معالجته.

وبما أن عنوان ورقة البحث هو « العلوم الشرعية في عصر الانفتاح المعرفي » فيلزمنا تتبع حركة العلوم الشرعية عبر العصور المختلفة، بإلقاء الضوء على أهم سماتها، وصولاً إلى هذا العصر.

---

(١) - أحمد بن عبداللطيف الزبيدي، تاج العروس، فصل (فتح).
(٢) - المرجع نفسه، فصل (فتح).
(٣) - محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، قاموس المحيط، فصل (كشف).

الانفتاح لا يستلزم الجانب السلبي وحده :

كثيراً ما يستحضر الجانب السلبي من الانفتاح، وخاصة عندما يكون الحديث عن الجوانب الفكرية والثقافية، ويتم تفعيل هذا الاستحضار عن طريق الندوات والمحاضرات والكتب والمقالات، وعبر شتى وسائل الإعلام، وفي نظري لا يعدم أي منتج إنساني من جوانب سلبية، لكنه في نفس المقام لا يخلو من جوانب إيجابية، بل قد تكون الجوانب الإيجابية هي الأكثر والأعم.

والشحن الفكري والعاطفي ضد الانفتاح يؤدي إلى أمرين:

الأول: يؤخر البناء الفكري الداخلي للأمة، مما يجعلنا متأخرين في إعادة صياغة مناهجنا وأفكارنا بما يتناسب مع حركة الوجود من حولنا، وهذا يعني مزيداً من التقدم العلمي والمعرفي لغيرنا، وهو تكريس لتبعيتنا لهم؛ لأنهم بذلك يحافظون على الصدارة والانتاج، ونبقى نحن في موقع الاستجداء والاستخذاء.

الثاني: أن هذا الشحن يعطي الأمة مناعة من الانسياح في حقول الآخرين، وتبني مقولاتهم بدون وعي حضاري، ويعطينا كذلك وقتاً لمراجعة المستحدَثات الفكرية، والعودة بتأنٍ إلى تأصيلها وفق حقولنا المعرفية، فليس أضر على الأمة من تحطم جهاز مناعتها، والشحن بهذا المعنى هو أمر محمود، لكن لا ينبغي أن يصرفنا عن إعادة صياغة مناهجنا وإنتاج معارفنا وفق أصولنا الفكرية حتى لا نغرق في مستنقع التأخر[1].

والانفتاح يتكون من شقين:

١- **شق تكويني** جَبَل الله تعالى عليه الإنسان؛ جنساً وأفراداً، وهذا أمر لا يمكن الفكاك منه، ولابد أن يمضي الإنسان فيه، وإلا لعاكس الوجود وصادم الفطرة، وأنى له ذلك؟، والانفتاح هنا هو عبارة عن آلة ووعاء، يعود خطأ استخدامها و سلامته إلى مستخدِمها.

٢- **وشق معرفي** يعود إلى الإنسان، فبإمكانه أن يحسن استخدام هذا الوعاء ويفعّل آلته فيما هو خير وصلاح للإنسانية، ويمكن أن يستخدمه بعكس ذلك، فيكون دماراً للمكونات المعرفية، وانحرافاً بالمنهج الفكري نحو ما هو سيء وممقوت في ميزان القيم الأخلاقية، والمنافع الحقيقية للبشر.

---

(١) - انظر: أحمد بن حمد الخليلي، إعادة صياغة الأمة، حيث نادى بإعادة صياغة المناهج الإسلامية.

وبهذا فنحن لا يمكن أن نوقف سير الحياة التي تجرها عربة الانفتاح، ومن يقف أمامها فهو معرض نفسه لأن تدوسه عجلاتها، بيد أنه يمكننا أن نواكب هذا السير بتقديم مناهج علمية نابعة من أصول شرعنا، ومنبثقة من الهدي الإلهي، ومتوائمة مع التقدم الإنساني، ومنسجمة مع معطياته الحضارية.

إذن علينا ونحن نبني حياتنا المعرفية أن نقوم ببناء مناهجنا وإعادة صياغتها من منطلقاتنا الثقافية والإيمانية، ولن يجدي كثيراً التحذير من الانفتاح دون القيام بهذه الصياغة، وما يجدي من التحذير هو تكوين أجسام مناعية تحصن جسم الأمة من التبعية العمياء للآخرين، في حين يجب أن لا يطغى ذلك على مسك زمام الانفتاح، والتثاقف الحضاري، وإنتاج مكونات معرفية قادرة على بلورة مناهج تأخذ بالأمة نحو التقدم والإعمار الكوني، وأداء رسالة الاستخلاف التي أناطها الله بالإنسان وفق شريعته المنزلة.

الإسلام قائم على الانفتاح:

بما أن موضوعنا هنا هو « العلوم الشرعية في عصر الانفتاح المعرفي » فمن اللازم علينا أن نبحث أولاً في النص الإلهي ومدى تأسيسه الانفتاح، وحركة دعوته القائمة على ذلك.

كان العرب قبل الإسلام يعيشون فترة من الزمن، بعد أن كانت تتنزل عليهم الرسالات الإلهية التي تشع بنورها على العالم من حولهم، وبعد أن كانت لهم حضارات سادت ثم بادت، فدخلوا في طور الانكماش الحضاري بكل أوجهه؛ الثقافية والعلمية، والسياسية والاجتماعية، والاقتصادية والعسكرية، ونحوها.

وأصبح العرب أمة مفككة تعيش على هامش الأمم، لا يكاد تدري ما يجري في ربوعها، فضلاً عما هو حولها أو بعيد عنها، ولما جاء الإسلام بداعيته العظيم سيدنا محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ورسالته الخالدة القرآن الكريم، شعر مشركوا مكة أن منظومتهم الدينية ستئول إلى الفناء، وأن مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية مهددة بالزوال، فكان أول ما بدر منهم هو محاولة كتم صوت الدعوة في مهدها، فتعرض المؤمنون إلى العذاب والتنكيل، هنا بدأ رسول الله يعمل على الانفتاح بالدعوة في الآفاق، وأخذ يبحث في وجوه العرب وقبائلهم من يحتضنها، ولكن قريشاً وهي صاحبة الزعامة الدينية في العرب، أبرقت في حمأة حملتها على الدين الجديد إلى القبائل برفضه، ورفض معتنقيه أن يلجأوا إليها ويدخلوا في جوارها[1].

(١) – محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج١ ص٤٨١.

ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وهو انفتاح كبير في ذلك الوقت، وهذه الهجرة في أغلب الظن سبقها انفتاح تمهيدي، إذ انتقال جماعة دينية إلى مجتمع ديني له تركيبته الكهونتية، والسياسية بدون تعريف سابق بمعتقداتها هو مغامرة غير محمودة، وإلقاء بالنفس فيما هو مظنة الهلكة، ولذلك من المفترض أن يكون أمر الدعوة الإسلامية قد وصل إلى الحبشة قبل الهجرة إليها، وتم الترحيب بالجماعة المهاجِرة قبل انطلاقها من مكة.

فالهجرة من مجتمع عربي؛ عرقاً ولساناً إلى مجتمع آخر مختلف في العرق واللسان، ومن مجتمع ذي ثقافة وثنية متعددة الآلهة إلى مجتمع ذي ثقافة ذات بقايا توحيدية، وإن شابها التحريف والتبديل، ومن مجتمع القرية إلى مجتمع الدولة، ومن النظام القبلي البدوي إلى النظام الحضري، وفي حقبة كان المسلمون مستضعفين، حديثي عهد بجاهلية، لم تكتمل منظومتهم الإيمانية، ولم يعلموا من أحكام الإسلام إلا أولياتها، تعد هذه الهجرة انفتاحاً كبيراً، ذي دلالة مهمة، أهمها في تقديري أن الإسلام لا يخشى من الانفتاح، ولا يخشى على أتباعه من السياحة في الأرض ومخالطة الشعوب، والأهم من ذلك أنه بهذا يؤسس لحقبة من الانفتاح الديني لم تألفها الأديان الأخرى؛ التي كانت تتضام حول كهنوتها.

وعندما انتقل المسلمون إلى المدينة المنورة، وهناك كان المجتمع مختلفاً كثيراً عن مكة المكرمة، ففي المدينة بالإضافة إلى وجود الوثنية متعددة المشارب وجد اليهود بطوائفهم، ووجدت أيضاً قبائل متعددة، كما أن المدينة لم تكن مركزاً دينياً من قبل، فهي منفتحة من أصلها على التغييرات الحضارية بما فيها الدين، حيث وجدت فيها اليهودية، بينما لم توجد في مكة، وكل من وجد في مكة من غير الوثنيين أفراد من المتحنثين، وأقل منهم من النصارى، لم يشكّلوا ظاهرة مؤسَّسة لطائفة دينية مغايرة للوثنية، في هذه البيئة المنفتحة رسخت أقدام الإسلام وعرقت أصوله، فكانت أمته التي انطلقت في الأرض، نشارة له بين الأمم الأخرى.

ثم بعد أن انتقل نبي الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى واصل المسلمون انفتاحهم على الأمم بنشر الدعوة الإسلامية وما رافقها من فتوحات ضخمة. في هذه الحركة الدائبة لتمدد

الإسلام نرى الانفتاح هو الباب الذي ولج منه الدين الخاتم، وهذا يدعونا أن لا نرسم مبتدأ صورة غير حسنة عن الانفتاح، بل يحيلنا إلى صورة فيها الكثير من الجوانب المشرقة التي غيّرت أوجه الحياة لصالح الإسلام وأمته.

انفتاح قائم على تدوين العلم:

لم يعرف العرب الوثنيون تدوين معارفهم، وضعفت لديهم الكتابة والقراءة إلى درجة أنهم عرفوا بالأميين[1] في مقابل أهل الكتاب، ولما نزل القرآن الكريم كان من وسائل حفظه تدوينه على الرقاع والجلود وجريد النخل، مع حفظه في الصدور وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ولكن ما يعنينا هنا أن العلم عند العرب بدأ يأخذ طريقاً آخر، فلم يقتصر على النقل الشفهي، بل صاحبه التدوين، ماذا يعني هذا؟.

يعني أن القرآن الكريم سيصل إلى الناس بوثائق دقيقة، وسيتعرض للنقاش بناءً عليها مرَّ الدهور، وإذا علمنا أن التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب الدينية محتكَرة في فهمهما وتدبرها وشرحها لعامة الناس بيد طائفة كهنوتية محددة، وعلمنا كذلك أن القرآن الكريم عرضه الله تعالى على الناس كافة لتدبره والنظر فيه، وحتى نقده بالإتيان بمثله، إن استطاعوا وما هم بمستطيعين أبداً، إذا علمنا كل ذلك فإن القرآن الكريم يفتتح حقبة جديدة في العلوم، ومنها علوم دراسة الشريعة الإسلامية، أو العلوم الشرعية بحسب هذا الاصطلاح، فضلاً عن سائر العلوم والمناهج الإنسانية.

وإن كان القرآن الكريم لا يهاب الانفتاح؛ لأنه قائم على الحقيقة وحدها، فإن أي علم آخر يجب أن لا يخشى منه؛ لأنه إما أن يكون حقيقة ثابتة، فلا يمكن دحضها، وإما أنه ليس كذلك فمن الأولى رفضه، أو تطويره، أو إعادة النظر فيه على أقل تقدير.

هذا التأسيس المنهجي للمعرفة ظهر واضحاً في تعامل المسلمين مع ما نقل إليهم عن رسولهم الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد مارس الصحابة الكرام نقد الرواية، رفضاً وقبولاً، من لحظة رحيل نبيهم ﷺ عنهم، بل أن تأسيس هذا النقد كان نابعاً من كتاب الله تعالى عندما ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ

(١) - محمد بن الحسن الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تأريخ الفقه الإسلامي، ج١ ص٦.

﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾[١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾[٢] ثم ظهرت مدارس بين الصحابة ﷺ عُنيت بممارسة نقد الرواية، من أهمها مدرسة الفاروق عمر بن الخطاب ومدرسة السيدة أم المؤمنين عائشة[٣]، ومدرسة حبر الأمة عبدالله بن عباس[٤]. ثم تبلور علم الرواية على هذا الأساس، فنشأ فيه علم الجرح والتعديل، وعلم الرجال، وعلم الدراية.

إذا كان القرآن الكريم لم يستطع أحد نقض ربانية مصدره وصدق نزوله الإلهي، مع عرض نفسه على ذلك، فإن ما بعده من العلوم وهو علم الرواية قد نحى هذا المنحى، فظهر فيه رجال ميّزوا الصحيح من الموضوع، والمقبول من المرفوض، وهو لا يزال بابه مفتوحاً لم يغلق إلى الآن، فإن كان هذا شأن العلم الثاني في الإسلام فإن من باب أولى أن بقية العلوم ترحب بالانفتاح والنقد والتجديد؛ لأنها وإن كانت تخدم الشريعة وتستمد منها معطياتها، فهي قائمة على استنباط بشري غير معصوم، بعكس الحديث النبوي الصادر عن المعصوم عليه السلام، وكل ما سوى المختار يأخذ من كلامه ويرد.

نصوص مؤسِّسة للانفتاح:

بالإضافة إلى حركة الدعوة الإسلامية المنبنية على الانفتاح، فإننا نجد نصوصاً كثيرة جداً في الكتاب العزيز تؤسِّس له، وسأذكر هنا بضعاً من هذه الأدلة:

١. **بث عقيدة وحدانية الخالق:** مما يجعل الكون بأسره في خط واحد متجه إلى الله ﷻ، وهذا الاتجاه يستلزم تداخل الناس، وتبادل مصالحهم، وتمازج كثير من مناهج تفكيرهم، وذلك لأجل تحقيق هذا الهدف الجليل، والأصل الأصيل في الدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾[٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ﴾[٦]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا

(١) – سورة الحجرات الآية ٦.
(٢) – سورة النساء ٥٩.
(٣) – أحمد بن حمد الخليلي، إعادة صياغة الأمة، ص٢٢–٢٣.
(٤) – خميس بن راشد العدوي، قراءة في فقه مؤسسي المدرسة الإباضية، نسخة إلكترونية.
(٥) – سورة يونس الآية ٣٤.
(٦) – سورة النساء الآية ٣٦.

تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[٢].

٢. **التوجيه نحو العالمية:** ولا يتأتى السعي نحوها إلا من خلال الانفتاح، والوقوف على النتاج العلمي والفكري لدى الآخرين، والتحاور معهم، ودعوتهم نحو الحق المنزل، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[٤].

ويقول سبحانه رابطاً بين القرآن الكريم وبين كونه تعالى رب العالمين: قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٥]، ويقول: قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾[٦].

ويكفي أن أول ما نزل من القرآن أو من أول ما نزل فاتحة الكتاب العزيز، التي جاء في صدرها التوجيه نحو العالمية بالتوجه إليه سبحانه بالحمد والثناء بكونه رب العالمين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾[٧].

٣. **الدفع بالنظر إلى الكون وأفلاكه وأجرامه:** قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ

(١) - سورة النحل الآية ٥١.
(٢) - سورة النور الآية ٣٥.
(٣) - سورة الأنعام الآية ١٦٢.
(٤) - سورة الأعراف الآية ٥٤.
(٥) - سورة يونس الآية ٣٧.
(٦) - سورة السجدة الآية ٢.
(٧) - سورة الفاتحة الآية ٢.
(٨) - سورة الرعد الآية ٢.
(٩) - سورة إبراهيم الآية ٣٢-٣٣.

﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾(١)، وهذا يوجه المسلم نحو النظر الكوني الكلي، ويجعله منفتحاً على الوجود بكل معطياته العلمية التي رسّخها الله في هذا النظام الكوني البديع.

٤. **السير في الأرض، والسعي في مناكبها:** والاعتبار بما فيها، قال تبارك اسمه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾(٣)، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾(٤).

٥. **النظر في مآل الأمم السالفة، والاعتبار بها،** واستنباط عوامل نهوضها وانهيارها، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾(٧).

٦. **الاستفادة مما عند الآخرين بغية الوصول إلى الحق،** يقول ﷻ في سورة النحل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٨)، ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾(٩).

---

(١) – سورة الحج الآية ٦٥.
(٢) – سورة الحج الآية ٤٦.
(٣) – سورة العنكبوت الآية ٢٠.
(٤) – سورة الملك الآية ١٥.
(٥) – سورة آل عمران الآية ١٣٧.
(٦) – سورة محمد الآية ١٠.
(٧) – سورة الروم الآية ٩.
(٨) – سورة النحل الآية ٤٣.
(٩) – سورة الأنبياء الآية ٧.

٧. حوار الآخرين ومجادلتهم، وهذا يستلزم الاطلاع على ما عندهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3].

٨. ذكر أحوال الأمم السابقة وحال أنبيائهم الكرام معهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[4]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾[5].

٩. خطاب الناس أجمعين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[6]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[7]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم

---

(١) – سورة آل عمران الآية ٦٤.
(٢) – سورة النحل الآية ١٢٥.
(٣) – سورة العنكبوت الآية ٤٦.
(٤) – سورة التوبة الآية ٧٠.
(٥) – سورة إبراهيم الآية ٩.
(٦) – سورة البقرة الآية ٢١.
(٤) – سورة النساء الآية ١.

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، ولأجل وصول هذا الخطاب إلى الناس جميعاً لابد من الانفتاح عليهم، والوقوف على مناطق تفكيرهم، وعلى عاداتهم وأخلاقهم، والعمل على الارتقاء بإنسانيتهم.

١٠. **عدم المنع من العيش مع الآخرين**، بل وجود دعوة للتداخل معهم والقسط إليهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[2]، وهذا هو طريق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حيث يعيشون واقع أممهم، ويخالطون شعوبهم بغية تقويمهم على دين الله تعالى.

كل هذه النصوص وغيرها هي التي أسست للعلوم الشرعية قابليتها الانفتاح والاستفادة من المعطيات الكونية، والإنجازات الإنسانية إن كان فيها حق وخير، ويخدم الإنسان في دينه ودنياه.

أطوار العلوم الشرعية:

في نظري العلوم الشرعية هي كائن حي كغيرها من الكائنات، يسري عليها قانون الولادة والموت، والصحة والسقم، والانتعاش والخمول، وهي كالنهر الجاري ما أن يشيخ حتى يجدد نفسه، وقد مرت العلوم الشرعية بخمسة أطوار[3]، أغلبها دخل فيه عنصر الانفتاح، وأثر عليه، ولذلك كانت أطواراً ثرية بالعطاء، تفاعلت مع البعد الحضاري للإنسان، ورفدته في كل أعصره، وهي تعتبر بحق عصر توهج علمي وإشعاع ثقافي.

والطور الرابع هو الطور الوحيد الذي خفت فيه الانفتاح إلى درجة كبيرة، ورغم ذلك لا نستطيع أن نقول: إنه انغلق انغلاقاً تاماً فهو مظلم، بل كان له بؤر انفتاحه المضيئة التي تركت بصماتها على الحقل المعرفي الإسلامي، وفي هذا المقام سألمح إلى بعض معالم هذه الأطوار الخمسة بحسب تسلسلها الزمني.

---

(١) – سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) – سورة الممتحنة الآية ٨.

(٣) – انظر: محمد بن حسن الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تأريخ الفكر الإسلامي، وهو موسوعة عنيت بتتبع أطوار الفقه من العلوم الشرعية، وهي أيضاً لديه خمسة أطوار، ولكن بمسميات مختلفة، سأذكرها في موضعها.

أولاً: طور النص المؤسِّس[1]:

في البدء لم يكن نص شرعي وإنما هي جاهلية، ولم يكن علم بل هو ضرب من ظنون الأساطير وأوهام الخرافات، ولم تكن علوم مدونة ممنهجة وإنما روايات شفهية فطرية تخضع لفهم ناقلها وذوقه، وعندما ابتدأ الوحي الإلهي يتنزل بدأ العلم والأمة، وشرع في التدوين، وكان منعطفاً لتحول إنساني كوني نشهد إلى الآن معطياته.

لم تكن لدى العربي ـ على ما آل إليه حال العرب ـ قبل الإسلام النظرة الكلية للوجود، بل هو يرى الأمور من حوله مجزأة، ينظر إلى الصحراء الشاسعة، فلا يرى فيها إلا شجرات متوزعة، وبيوتاً متفرقة، وتجمعات سكانية متباعدة، وعندما يرفع نظره إلى السماء لا يتحصل لديه إلا على شمس تضيء بالنهار، وقمر ينير بالليل، وأنجم متفرقة تلمع في فضاء رحب، لم يقف على قانون يربطها[2]، وإنما مبلغ علمه وقصارى جهده أن استهدى بها في بيدائه، وحسب بها أيامه، وأما عبادته فتتمزعها معبودات لا يكاد يحصى عديدها، ففي الكعبة وما حولها فقط أكثر من ثلاثمائة وستين وثناً، وفي كل بيت من بيوت العرب عشرات الأصنام، وإذا ضرب ببعيره في كبد الصحراء حمل في خرجه أكثر من صنم، وإن عدمه قام فصنع بيده ما شاء من الآلهة[3].

فلما نزل القرآن المجيد كان البذرة التي تفتقت عنها العلوم الشرعية، وبدأت النقلة الأولى للتحول في المعارف الإنسانية، وبها تمت إعادة صياغة هذه المعارف، وكانت أولى الخطوات تجميع العقل المتشظي في بنيـة منهجية واحـدة، في بنية قائمة على وحدانية الخالق ـ جلَّ وعلا ـ وعلى انتظام هذا الكون بتنوعه الضخم في قانون سنني واحد، قانون يشير إلى خالق واحد لا شريك له.

ولو تدبرنا سورة الفاتحة وهي سورة نزلت مع انبلاج الوحي الإلهي الخاتم، لوجدنا فيها حديثاً عن رب واحد، هو رب العالمين قاطبة، ووجدنا ربطاً بين الدنيا والآخرة، وربطاً بين العبادة وحركة الإنسان، أي بين ما هو إيماني وما هو سنني، ووجدنا صراطاً مستقيماً واحداً، لا يصيبه المرء إلا إذا سلك طرق هدايته، كل هذه العناصر تجدها بعد ذلك في مناهج العلوم الشرعية بصورة أو أخرى.

---

(١) - يسميه محمد الفاسي «صاحب الفكر السامي» طور الطفولية، ج١ ص ١٦.

(٢) - أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٤٩-٥٠.

(٣) - محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج١ ص ٢٩ - ٣٠.

هذا التوحيد وهذه الوحدة لم تكن منغلقة على الذات، بل على العكس تماماً، حيث لملمت الذات المتمزقة في كيان منهجي منسجم، لينفتح على الكون بأجرامه وسمائه، وأرضه وبحاره، وإنسه وجنه، وحيوانه وجماده، بل أرشد الإنسان لينظر خلف المادة من قوى غيبية، ولينظر إلى ما بعد الدنيا من حياة أخروية، فانظر إلى مقدار هذا الانفتاح الذي ينبلج في النفس العالِمة، وانظر بعد ذلك عصارة فهمها وعمل يدها.

وقد انقسم هذا الطور إلى مرحلتين: المرحلة المكية، والمرحلة المدنية[1]، ولكل مرحلة خطابها الذي جاء متناغماً مع طبيعة المرحلة، وكلا الخطابين جاءا مؤسِّسين للانفتاح ومؤثرين فيه.

- **المرحلة المكيــة:**

كان الخطاب الإلهي يخاطب الناس كافة، داعياً إلى توحيد الخالق ﷻ، موجهاً البصائر نحو ترابط مفردات هذا الوجود، وإلى المرحلية التي تعيشها الحياة، ومنها مراحل خلق الإنسان، وتعاقب خلقته في رحم أمه، وأطوار حياته، أيام نشوء الكون، وامتداد الحياة نحو أخرى لا نهاية لها.

وركّز القرآن المكي على وحدة خط الأنبياء - عليهم السلام -، وأن أفراد الكائن الإنساني لا يتحركون في كيانات منفصلة، بل هم يحملون سمات مشتركة منذ أبيهم آدم، وأن الأمم ترث بعضها بعضاً، وتسير وفق سنن مشتركة، وأن التأريخ لا يؤمن بالقفزات الحرة، وإنما تجري أحداثه في سياقات مسبَبة مترابطة، آخذة بعضها بحجز بعض.

هذه السمات أثّرت بعد ذلك في إنشاء العلوم الشرعية، وعليها بنيت مباحث وحدانية الخالق وتنزيهه كما هو الحال في علم الكلام، ووجدت القواعد الكلية والضوابط الفقهية في علم الفقه وأصوله، وبها قرئ ترابط أحداث التأريخ، حيث وجدنا المدونات التأريخية التي تدرس الإنسان منذ أبيه الأول، وبمختلف مناطقه وأجناسه وشعوبه، وعلى ذلك قام علم التأريخ.

(١) - أحمد بن حمد الخليلي، جواهر التفسير، ج١ ص ١٥٦ وما بعدها.

- المرحلة المدنيــة:

إذا كانت سمة الخطاب المكي هو الانفتاح على الوجود، فإن سمة الخطاب المدني هو الانفتاح على البشر وأفكارهم، حيث وجد في المدينة أصناف جديدة من الوثنيين لا يرتبطون بالكعبة المكرمة مباشرة، ووجد المنافقون وأهل الكتاب: اليهود والنصارى، وبدأ المسلمون يتكاثرون ويحتكون بأصحاب الملل الأخرى كالصابئة والمجوس وعبدة الكواكب.

وأصبح المسلمون أمة مستقلة، لهم نظامهم الخاص: الاجتماعي والعبادي، هذه الأمة احتكت مع الأمم الأخرى، ونشبت بينهم الحروب، وعقدت الاتفاقيات، وتبودلت المصالح، كما ظهرت أيضاً علاقات اجتماعية بين المسلمين مختلفة في كثير من أوجهها عن نظم الأمم الجاهلية، بمن فيها أهل الكتاب، احتاجت إلى تنظيم وتأطير، وفي هذا الخضم المتزاحم من الحياة كانت للمؤمنين حوادث مستجدة، جاء القرآن الكريم ليعالجها، وليراعي فيها مصالح الأمة الناشئة[١].

فأسست سمات هذه المرحلة، لعلم « الملل الست »[٢]، والذي عالجه علم الكلام، والأحكام العسكرية وطرائق الحرب التي عالجها علم الجهاد[٣]، والمقاصد والمنافع الشرعية التي بحثت بعد ذلك في الفقه تحت مسمى علم المقاصد[٤].

وأصبحت المرحلة المدنية هي التي تصبغ العلوم الشرعية حتى هذا اليوم، فلا يزال من أهم عدة الفقيه، وخاصة المستنبط، معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومعرفة العام والخاص، والمطلق والمقيّد، وهي علوم في معظمها ترجع إلى المرحلة المدنية، حيث كثر نزول آيات الأحكام.

وهكذا نرى أن لطور النص المؤسِّس بصمته التي طبعت العلوم الشرعية بعد ذلك، ويكفي أن نقول: إنه لولا نزول الوحي لما كانت هناك أصلاً علوم شرعية.

(١) - انظر: محمد مصطفى شلبي، تعليل الأحكام، فيه بحث شيق ومهم عن حركة الفقه في العهد النبوي الشريف.

(٢) - أبو زكريا يحيى بن أبي الخير الجناوني، الوضع، ص ١٦.

(٣) - انظر: محمد بن سالم الرقيشي، النور الوقاد على علم الرشاد في أحكام الجهاد، مثالاً على مباحث علم الجهاد.

(٤) - انظر: أحمد الريسوني، علم المقاصد عند الإمام الشاطبي، وعلال الفاسي: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، حيث درسا بتوسع علم المقاصد.

هذا؛ وإن كنت قد ألمحت سلفاً إلى علم التأريخ، فلا يخفى أن علوم العربية هي الأخرى صنعت بمادة الوحي القرآني؛ نحواً وصرفاً وبلاغة، ولا يزال الناس يقوّمون لسانهم بلسان القرآن المبين، الذي لم يحتكر نزوله على قبيلة عربية بعينها، وإنما شمل ألسن العرب، بل الأكثر من ذلك قد قيل: إن فيه ألفاظاً غير عربية، بعد أن هذّبها العرب بلسانهم، وهذا يدل بوضوح على تشريع القرآن الكريم للانفتاح على اللغات الأخرى، أليس الله تعالى هو القائل في كتابه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾[١]، وهذا يستدعي تعلم ألسنة الأمم لمعرفة أحوالها، وليبلغ المسلمون هداية القرآن الكريم إليها، وهذا انفتاح لغوي كبير[٢].

ثانياً: طور بناء الدولة والاحتكاك العسكري[٣]:

كان عهد رسول الله ﷺ هو عهد نشوء الأمة المؤمنة، ولم يتطرق إلى إنشاء الدولة، لا بالمعنى الذي سبق الإسلام كدولة فارس أو الروم أو مصر أو غيرها، ولا بالمعنى الذي لحق العهد النبوي، كالدول التي عرفها العرب، ولم يرد مصطلح الدولة بهذا المعنى في كتاب الله تعالى، ولا في الرواية عنه عليه السلام، فالكيان القائم كان كيان أمة، وإنما ابتدأ يتشكّل كيان الدولة باختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة للمسلمين، ثم أخذ ينمو شيئاً فشيئاً، حتى أصبح له تقاليده وأطره وأنظمته في دولة بني أمية، وهذا الخط المتتالي والمتسارع من الأحداث، كان يقفز بشدة نحو الانفتاح، وقد تميّز هذا الطور بتكوّن الدولة وتوسعها، وبالاحتكاك العسكري؛ داخلاً وخارجاً، وتجدد الوقائع والأحداث.

ففي عهد أبي بكر الصديق؛ واجه المسلمون عسكرياً لأول مرة مجموعات خارجة على أمة الإسلام الواحدة؛ فيما عرف بحروب الردة، ورغم وجود فئة تظهر الإسلام وتبطن الكفر على عهد رسول الله ﷺ، إلا أن الأمر لم يتطور إلى صراع مسلح معهم.

---

(١) - سورة إبراهيم آية ٤.

(٢) - انظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، لمعرفة المزيد من خصائص المرحلتين المكية والمدنية.

(٣) - ويسميه صاحب «الفكر السامي» بطور الشباب، ج١ ص٢٢١.

وفي عهد الفاروق عمر بن الخطاب؛ وقعت الفتوحات الإسلامية الكبرى، فنشأ الخراج والديوان، وتغيّر كثير من تقاليد توزيع العطاء الذي سار عليه رسول الله ﷺ بما يتناسب مع المستجدات ويحفظ قيم العدالة والمساواة التي جاء لأجلها الإسلام(١).

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان؛ حدث أول خلاف داخلي حادٌ بين المسلمين، تصاعد لينتهي بمقتل الخليفة عثمان.

وفي عهد الإمام علي بن أبي طالب؛ تطور الصراع بين المسلمين إلى صراع مسلح، عرف فيما بعد بالفتنة، وأثمر عن انقسام الأمة إلى ثلاث طوائف: شيعة علي بن أبي طالب، وجماعة معاوية بن أبي سفيان، والمحكمة.

ثم افتتح معاوية بن أبي سفيان عهد حكم الدولة وراثةً، وأصبحت الفرق غير المعترفة بحكمه فرقاً معارضة، لتصنّف بعد ذلك بأنها فرق خارجة عن جماعة المسلمين، وأتباعها بأنهم خوارج(٢).

هذا الطور أبرز سماته نشوء الروايات، فلم تقتصر الرواية على ما أثر عن نبي الله عليه السلام، بل شهد انفتاحاً كبيراً على الإرث الحضاري لدى الأمم الأخرى، بما فيهم اليهود والنصارى وثقافات الدول المجاورة، حتى تم تنصيص ذلك الإرث في روايات تنسب إلى النبي ﷺ، وقد غلب على هذا التنصيص البعد السياسي، وذلك لأجل الصراع على السلطة مباشرة من بعد انتقال الرسول الأكرم - عليه الصلاة والسلام - إلى الرفيق الأعلى(٣).

هذه الروايات ـ مع المحاولة المستمرة لتنقية الصحيح منها من السقيم ـ تعتبر هي المصدر الثاني للعلوم الشرعية، بل حتى محاولة التنقية هذه شكّلت فرعاً كبيراً من فروع العلوم الشرعية، وهي علم الرواية بكافة فروعه.

---

(١) - الخليلي، إعادة صياغة الأمة، ص ٦٠-٦٢.

(٢) - عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، الباب الأول، الفصلين الأول والثاني.

(٣) - عبدالجواد ياسين، السلطة في الإسلام، ص ٢٥.

ثالثاً: طور تدوين العلوم[1]:

بحسب التنظير التأريخي فإن العلوم يبدأ تدوينها بعد استقرار الدولة، وبعد الانتهاء من حركة الفتوحات، وإخضاع المعارضة، أو إقصائها جانباً بعد تهميش فاعليتها، وبحسب تعبير ابن خلدون بعد انتقال الدولة من السيف إلى القلم[2]، وقد ابتدأت هذه المرحلة مع بدايات العهد العباسي، حيث توسعت الدولة، ودخلت كثير من الأقاليم؛ شرقاً وغرباً فيها، واحتوت على كثير من الشعوب التي أخضعت بالقوة، أو دخلت في الدين الجديد عن رغبة أو رهبة، وتعددت الثقافات، وهي أمم -كثير منها- ذات إرث حضاري مكتوب، لها أدبها وعلمها وثقافتها، وكان لابد أن تدخل هذه المرحلة طور التدوين، لأسباب منها:

١. طبيعة المرحلة، حيث في استقرار الدول تنتعش العلوم وتزدهر، والعلم بطبيعته ذو حالة انفتاحية.
٢. التأثر بالحضارات والدول المفتوحة، حيث إن تأريخها وعلومها وآدابها مدونة.
٣. حركة الترجمة التي ازدهرت في الدولة العباسية؛ سواء من قبل المسلمين أو غيرهم.
٤. النهضة العلمية التي جاء بها الإسلام، والتي افتتحها الرسول ﷺ بتعليم المسلمين وأبنائهم القراءة والكتابة.
٥. إيجاد مناهج منطقية لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية، والاستنباط منهما، وحماية اللسان العربي، وحفظ تأريخ المسلمين ووقائعهم.
٦. نشوء الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية، التي سعت إلى أن تجعل لنفسها تراثاً يحفظ لها كيانها، وينقل علمها إلى أتباعها، بالإضافة إلى الصراع المذهبي والجدل الكلامي الذي جرى بين هذه المدارس.
٧. العمل على حماية العقائد والآراء الإسلامية من الأفكار والعقائد غير الإسلامية، وقد أحدث ذلك جدلاً كبيراً ترك أثره في تدوين العلوم الشرعية.
٨. الحركة العقلية؛ النظرية والعملية، وظهور المستجدات الكبرى في الحياة الإسلامية، والعمل على المواءمة بين المنتجات العقلية والاجتماعية وبين النصوص الشرعية.

هذه الأسباب عندما ننظر إليها سنجدها كلها كانت وليدة الانفتاح الداخلي والخارجي.

---

(١) - يسميه صاحب «الفكر السامي» طور الكهولة، ج٢ ص٥.
(٢) - عبدالرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص٢٠٠-٢٠١.

وهي أسباب ـ مع عدم وجود إرث علمي مدوّن سابق ـ جعلت حركة التدوين العلمي متوهجة وفاعلة ومبتكِرة، وذات طبيعة حرة في البحث والتقصي والتأصيل والمنهجة، ولا يزال الجميع يشهد لهذه الحركة إلى الآن من مسلمين وغيرهم بالريادة في كثير من الطرائق العلمية، وأنها هي التي صبغت الأمة الإسلامية بالسمات الحضارية، وكانت معبر الغرب إلى الحضارة المعاصرة، وقد استفاد منها كثيراً.

ولأن العلوم الشرعية قد كتبت خلال هذه الحقبة بهذه القوة المنهجية، فقد ترسمت في التفكير والضمير الإسلامي على أنها العلوم المعيارية التي لا يمكن تجاوزها، فأصبحت هي المهيمنة لما جاء بعدها من دراسات وتصانيف وتآليف، ولم يظهر عقبها ـ في الغالب ـ إلا الشروح والتعليقات والمختصرات والتقييدات.

وقد هيمنت هذه الحقبة على طور الانكماش الذي ابتدأ بنهاية القرن الرابع الهجري تقريباً، بل حتى مع دخول طور الانبعاث لا يزال طور تدوين العلوم الشرعية هو المهيمن، وحتى يومنا هذا، مع ما قدمه طور الانبعاث من تجديد في النظر إلى هذه العلوم ومناهجها(١).

رابعاً: طور الانكماش(٢):

ثم دخلت الأمة الإسلامية بعد القرن الرابع الهجري طور الانكماش الحضاري، وبحسب عبارة الحجوي الفاسي (طور الشيخوخة والهرم، المقرّب من العدم)(٣)، هناك عوامل كثيرة أدت إلى هذا الانكماش، لا يزال الباحثون مختلفين فيها، أو على أقل تقدير لم تحسم بعد، ولكن ما يعنينا هنا هو العلوم الشرعية، وفي تقديري أن جزءاً ـ ولعله العامل الأهم– من الانكماش فيها يعود إلى تشكّل المناهج وختمها بعدم جواز مراجعتها وتعديلها والإضافة عليها، فاعتبرت قواعدها وأصولها من المسلّمات التي لا يجوز نقضها، وخاصة أنها علوم مرتبطة بالشرع، وصوّر الأمر على أن المساس بها هو مساس بجوهر الإسلام وحقائقه.

إن هذا التمحور حول ما تم إنتاجه في القرن الرابع من مناهج علوم الشرع، أخذ شيئاً فشيئاً يؤثر على آلة الإبداع لدى علماء المسلمين، فأنتج أناساً مشتغلين بالعلم مقلّدين، لا هم

---

(١) – محمد عابد الجابري، نحن والتراث، ص ١٦.
(٢) – يسميه صاحب «الفكر السامي» طور الشيخوخة والهرم، ج٢ ص ١٦٣.
(٣) – المرجع نفسه، ج٢ ص١٦٥.

لهم إلا نصرة المذهب، والتفريع عليه، والاستنباط ـ إن وجد ـ في فروعه، وأصبح استنساخ المتأخر علم المتقدم هو العمل السائد عبر معظم طور الانكماش، وذلك لرتابة حياة المسلمين وجمودها بشكل عام.

وقد أثّر هذا كثيراً على الحركة العلمية في علوم الشرع، فأصبح هَمُّ المتكلمين نصرة مذاهبهم عن طريق الجدل الأقرب إلى العقم، والطعن في مذاهب الآخرين، وفي دائرة الفقه جمّد باب الاستنباط بما عرف بغلق باب الاجتهاد، ونودي بتحريمه وتجريم صاحبه، وفي الأدب نزلت الذائقة إلى السجع والبديع المصطنع والنظم المتكلّف، وهكذا في سائر الفنون.

وبذلك يتبيّن لنا أن حياة العلوم الشرعية وفاعليتها والإبداع فيها مرتبط بدرجة الانفتاح المعرفي، فلما عاشت الأمة الانفتاح ومارسته وتفاعلت مع المجتمعات من حولها منذ اليوم الأول من مجيء الإسلام؛ رأينا النضج العلمي، والتفاعل المعرفي، وبسبب الانفتاح نشأت العلوم الشرعية، وانتشرت الدعوة الإسلامية، وكانت القيادة والريادة لأمة الإسلام.

ولم أشأ أن أسمي هذا الطور بطور الانغلاق؛ لأنه يوحي بعدم وجود أي انفتاح معرفي، وهذا ليس دقيقاً أولاً؛ لأن الطائفة من البشر مهما كان حالها وحجمها وموقعها؛ فإنها لا يمكن أن تنقطع عن بقية البشر، فلابد من وجود نوع من التثاقف المنفتح على الآخر، فكيف بالأمة الإسلامية بحجمها وحضارتها وموقعها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ وجد في هذا الطور بعض الإبداع، ففي علمَي التأريخ والعمران ظهرت مقدمة ابن خلدون، وفي الفقه وجد كتاب « الموافقات » للشاطبي، وفي علمَي الكلام والمنطق برز كتاب « الدليل والبرهان » للوارجلاني، وفي النهوض السياسي قامت في المشرق الإسلامي إمامة اليعاربة في عمان التي طردت الاستعمار البرتغالي من عمان والشرق[1]، هذه الإمامة التي كان رئيسها العلامة سعيد بن خميس الشقصي صاحب كتاب « منهاج الطالبين وبلوغ الراغبين »، الذي كان مميزاً عما سبقه من التآليف العمانية التي وجدت في طور الانكماش، ولو تتبعنا هذه الإبداعات لوجدنا أيضاً وراءها الانفتاح المعرفي؛ لأجل هذا آثرت أن أسميه طور الانكماش لا الانغلاق.

(١) - انظر: سالم بن محمد الرواحي، الدعوة الإسلامية في عمان في عصر اليعاربة.

خامساً: طور الانبعاث[١]:

ظل وضع الخفوت والجمود في العلوم الشرعية سائداً حتى دكت مدافع الاستعمار الغربي بلدان المسلمين من جديد[٢] مع الحملات العسكرية الفرنسية والإنجليزية، وقد ذهل المسلمون من القوة الجديدة لدى الغرب التي لم يألفوها من قبل، فهم حتى ذلك الوقت لا يرون حضارة إلا حضارتهم، ولا قوة إلا قوتهم، فلما زحف إليهم الغرب، لم يكن قصده مجرد المعارك الحربية العابرة، بل أتى ليستوطن الأرض، ويستعبد الناس، وليحل حضارته محل حضارتهم، ولتكون السيادة للثقافة المسيحية الغربية على الثقافة الإسلامية الشرقية.

ويمكن أن نحدد ـ نوعاً ما ـ الحملة الفرنسية النابليونية حدّاً فاصلاً (١٧٩٨م)، بين طور الانكماش وطور الانبعاث، إذ قدم نابليون إلى الشرق؛ وخاصة مصر، مع جيوشه، بالعلماء والكتّاب والمؤرخين، كما أنه جلب معه المطبعة التي عرفها المسلمون لأول مرة تقريباً[٣]، مع النظم الاجتماعية والإدارية والاقتصادية الحديثة، التي لم تكن معروفة لدى المسلمين من قبل، فضلاً أن تكون مألوفة لديهم[٤].

إذن ابتدأ عصر جديد بالنسبة للمسلمين قادهم مرغمين نحو الانفتاح المعرفي، وهنا فارق كبير بين هذا الانفتاح وبين الانفتاح الأول بمجيء الإسلام الذي صنع الحضارة الإسلامية، وابتكر العلوم الشرعية، ففي الأول كان أقرب إلى الاختيار منه إلى الإرغام، ولو على أقل تقدير في مفرداته وبنيته وصياغة مناهجه، وكان العنصر الأساس في بناء العلوم الشرعية هو التأسيس لما يحفظ الشرع، فالشرع بنفسه فاعل وبكثافة في الأمة، وإنما هي عملية ضبط وتأطير للدفقة الكبرى التي أحدثها الإسلام، وكانت حضارة الإسلام وثقافته في موضع القيادة، والأمم من حولهم تهابهم، وتخشى سيادة ثقافتهم الإسلامية، فهم كانوا في موضع قوة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

---

(١) - اختلف في تسمية هذا الطور، فمنهم من سماه طور الإحياء، ومنهم من أطلق عليه طور الصحوة، وأشار إليه الفاسي بتجديد الفقه في الفكر السامي، ج٢ ص٣٩١.

(٢) - مرّ العالم الإسلامي بأكثر من محاولة استعمارية غربية قبل الاستعمار الأخير، منها الحروب الصليبية على الشام التي قادتها فرنسا ودحرها صلاح الدين الأيوبي، ومنها الاستعمار الأسباني على المغرب العربي الذي قاومه إباضية جربة، ومنها الاستعمار البرتغالي على الشرق والذي قضى عليه الأئمة اليعاربة.

(٣) - ويكيبيديا الموسوعة الحرة، الحملة الفرنسية على مصر، موقع على الإنترنت: http://ar.wikipedia.org

(٤) - إدوارد سعيد، الاستشراق، ص١٠٧، وما بعدها.

أما الانفتاح في طور الانبعاث فقد قدم إليه المسلمون مجبرين، وفي حالة ضعف وتأخر معرفي وحضاري، بلغ فقههم درجة الانسداد، وأدبهم نزل في حضيض البيان، وتفكيرهم العقلي سادته الخرافة والأساطير، بل أصيبوا في معتقداتهم الإيمانية، عندما أعلي شأن المخلوقات، وأعطيت قدرات إلهية، فسيطرت عليهم ثقافة الخوارق، وأصبحت الجن تحكم حركة حياتهم اليومية، فهي التي تمرض وتشفي، وهي التي تعطي وتمنع، وهي التي تؤلف بين الناس، وتبذر بينهم بذور العداوة والشحناء، وهي التي بنت أمجاد آبائهم، وصرعت أعداءهم، وغشيهم الجهل، وفشت فيهم الأمية[١].

في هذا الوضع فاجأهم الانفتاح المعرفي الحديث، وهم في حالة لم يكن لهم قدرة على تصور شيء من مفرداته، فضلاً أن يكون بيدهم زمام قياده لمواجهة هذا القادم العملاق، كان لابد من فهم سر قوته وعظمته، فاتجه المسلمون إليه، فأرسلوا أبناءهم أول الأمر إلى أوروبا لدراسة العسكرة والنظم الحربية، ولكن ما وجدوه في الغرب، ليس قوة عسكرية فحسب، بل حضارة مختلفة عما ألفوه، في العلوم والمعارف، وفي الأدب والشعر، وفي القيم والأخلاق، وفي التربية والسلوك، فجرهم إلى دراسة كل ذلك، ولما كان المغلوب يتأثر بالغالب، كما يقول ابن خلدون[٢]، فإن المسلمين تأثروا بشدة بما هو في الغرب، وكاد المسلم يذهب إلى الغرب فيرجع إلى بلاده غربي الوجه واليد واللسان.

حينها انقسمت المعرفة لدى المسلمين إلى شطرين: معرفة جامدة عقيم يجدونها سائدة في مجتمعاتهم الإسلامية، ومعرفة متحركة نامية فاعلة مؤثرة جلبوها من الغرب، لكن هذه المعرفة خطرة على علومهم الشرعية، وتفكيرهم المعرفي، وقيمهم الأخلاقية[٣]، بل هي بما تملك من تطور سريع وتمكن في البحث أصبحت استئصالية لكل ما هو قديم من المعارف، بغض النظر أين يوجد الحق والخير؟.

افتتح جمال الدين الأفغاني (ت:١٣١٤–١٨٩٧)[٤] ومحمد عبده (ت: ١٣٢٣–١٩٠٥)[٥] ومن تأثر بهما طور الانبعاث المعرفي[٦]، عندما لم يجمدوا على الموروث المعرفي

(١)- ابن خلدون، المقدمة، ص ١١٦.

(٢)- أحمد الخليلي، جواهر التفسير، ج١ ص٤٠.

(٣) - أحمد الخليلي، جواهر التفسير، ج١ ص ٤٠.

(٤)- انظر: عبدالمنعم حسنين، حقيقة جمال الدين الأفغاني، للاطلاع على بعض مقالاته الإصلاحية.

(٥)- انظر: أدونيس وخالدة سعيد، الإمام محمد عبده، للاطلاع على بعض مقالاته الإصلاحية.

(٦)- عندنا في عمان سبق هذين المفكرين العلامة ناصر بن أبي نبهان الخروصي (ت: ١٢٦٣–١٨٤٧) الذي كانت له إصلاحاته في المنطق العقلي أدى به إلى تكوين آراء في الحقل الفقهي سبق بها غيره من المحدثين، إلا أنه ظل غير معروف في العالم الإسلامي، وكما ظل تجديده مغموراً إلى الآن حتى على النطاق العلمي في عمان.

لدى المسلمين، ولم يرتموا أيضاً في أحضان المعرفة الغربية، وذلك عندما عمدوا إلى التراث العلمي الإسلامي وأعادوا قراءته من جديد، فأزاحوا عنه ركام التقليد، وثاروا بقوة على عقلية الأسطورة، وبدأوا يرسخون قيماً معرفية جديدة لم تكن ممارسة من قِبَل المسلمين في طور الانكماش، ونشأت بهذا المنهج المعرفي الجديد ما سمي بعد ذلك بالمدرسة الإصلاحية، وكان إماماها العلامة محمد عبده ذي النزعة العقلية، والعلامة رشيد رضا (ت:١٣٥٤-١٩٣٥) ذي النزعة السلفية[١]، ثم تزاوجت النزعتان بعد ذلك في عملية الإصلاح.

وإلى يومنا هذا فالمدارس الإصلاحية لدى المسلمين عامة تأخذ بالجانبين، وإن حدث في كثير من الأحايين نزاع بينهما، وهو نزاع في النسبة فقط، وليس في أصل الفكرة، كما أنه تقف خلفه أصابع السياسة والصراع المذهبي والأهواء الشخصية، وهذا أمر معتاد في الأفكار، يحدث لكل أمة وفي كل مجتمع، يفسره قانونا التدافع بين البشر[٢]، وهو نزاع بلغ أوجه في طور تدوين العلوم الشرعية، عرف أولاً بأصحاب الرأي وأصحاب الأثر، ثم لما ترسمت المذاهب عرف بها، كالمعتزلة المعلين من شأن العقل، وأهل الحديث المعلين من شأن الرواية والأثر، مع أن الطرفين عند التأمل يستخدمان نفس الأداة، وهي العقل والأثر، كلٌّ من وجهة نظره، وأصبح هذا هو التيار التقليدي في العلوم الشرعية.

ما يميّز هذا الطور على المستوى الجوهري هو أن المادة المعرفية كانت موجودة، فهي ليست إبداعاً جديداً بمقدار أن تكون إعادة اكتشاف، ومواءمة بين الموروث القديم والدخيل الجديد في عالم الأفكار والمناهج، ولم يحتج الأمر إلى تخلية وتحلية في العقل الإنساني على نحو ما فعل رسول الله ﷺ، إذ جاء بالإسلام والوثنية راسخة جذورها، تهيمن على عقول الناس دون أن يكون لديهم كتاب إلهي محفوظ يحتكم إليه، وهناك أمر آخر جوهري؛ وهو أن ما سبق الانفتاح الأول كان تغييباً شبه كامل للعقل الإنساني، بينما جاء الإسلام بدعوة قائمة على العقل ومعطياته، بل الاقتناع بصدق الرسالة أسنده الله تعالى إلى المعطيات العقلية في الوجود، في حين أن الانفتاح في الحالة الأخيرة كان قائماً هو الآخر على العقل ومنجزاته، بغض النظر عن منتجاته هل هي متوافقة مع العقل ذاته ومع ما جاء به الإسلام، أو غير متوافقة؟، فهناك أصل واحد ينادي الجميع بالرجوع إليه؛ الإسلام وما انبنى عليه من علوم، والغرب وما يحمل من مناهج.

---

(١)- انظر: أدونيس وخالدة سعيد، محمد رشيد رضا، للاطلاع على بعض مقالاته الإصلاحية.

(٢)- قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة:٢٥١، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج:٤٠.

وفي تقديري لأجل هذا استطاع المسلمون أن يحيوا هويتهم المعرفية من جديد، وأن تصمد معارفهم إلى حدٍّ كبير أمام الزاحف الثقافي من الغرب، بل ولا يزال المسلمون بما يملكون من عقيدة توحيدية وقيم أخلاقية تتكئ على العقل؛ قادرين على تجاوز الانفصام بين العلم والأخلاق في الحضارة الغربية الذي نراه يتبدى بين الحين والآخر، وإن كان هناك ما يعرقل النهوض العلمي والانسجام مع القيم الأخلاقية الإنسانية، فليس بسبب عدم قبول المنظومة المعرفية الشرعية للعقلانية، بل لعدم استيعابها من قِبَل كثير من المنظرين للعلوم الشرعية لدينا، وهي مسألة لا تعود برمتها إلى هؤلاء المنظرين، بل تعود في المقام الأول إلى الوضع السياسي المحتقن في العالم الإسلامي بشكل عام، وإلى المناهج التربوية والتعليمية التي لا زالت تعتمد على التلقين والحفظ والتقليد من الروضة وحتى الدراسات الجامعية، في كل مناهج العلوم؛ الشرعية، والإنسانية، والتقنية.

بل حصلت أزمة انفصام بين هذه العلوم الثلاثة، فالعلوم الشرعية أخذت تراوح مكانها في تقليد الموروث، والعلوم الإنسانية هي استنساخ لما عند الغرب، دون قدرة حقيقية على صناعة علوم إنسانية إسلامية، مع أن هذه العلوم هي ذات خصوصية حضارية في كثير من جوانبها، أما العلوم التقنية فلم تُعنَ الأمة أصلاً بتدريس أصولها، والوقوف على طرائق مناهجها، وإيجاد مختبراتها لإجراء التجارب واستخراج القوانين والقواعد التي يرتكز عليها التفكير التقني، بمقدار ما هي معاهد تدريب على ما تم إنجازه وترسيمه في الغرب، فهي لم تدخل عندنا بعد حيّز التفكير العقلي، بل اقتصرت على البرمجة العصبية - إن صحت العبارة - حتى في الطب والهندسة والحاسوب، ناهيك عن الإبداع في الاختراعات والاكتشافات.

فأصبحت العلوم الشرعية تهيم في واد بعيداً عن بحر الحياة، وعندما تقترب منه فلا تكاد تلمس سواحله، أما أن تسبق العلوم الأخرى لتؤطرها وتصبغها بالقيم الأخلاقية، وتفرض رؤيتها الشرعية عليها، وتساهم في إنتاجها، فهيهات هيهات إلى الآن.

وكان للاستشراق أثره البالغ في عملية الانبعاث المعرفي لدى المسلمين، وقد أتى أثره من جهتين:

الأولى: اشتغال المستشرقين بتحقيق التراث الإسلامي بمختلف أوجهه ومذاهبه، وهذا جعل أصحاب المذاهب الإسلامية أمام أمرين: أحدهما: الانفتاح على آراء وأفكار لم تكن ضمن اهتماماتهم من قبل، أصبحوا بعد نشرها مجبرين على الاهتمام بها؛ لأنها

جزء من التفكير الإسلامي، والآخر: أن كثيراً من هذه المادة المنشورة أحيت معها الصراع الفقهي والمذهبي القديم، فلزمهم أن يتعاملوا معها للرد عليها، وهذا إحياء لتراث ظُنَّ أنه قد غَبَر واندثر، ولا أدل على ذلك من رجوع مذهب المعتزلة من جديد، بعد أن مضى وانقضى.

الثانية: لم يكن كثير من الدراسات الاستشراقية موضوعياً، بل متحيّزاً[١]، وفي كثير منه طعن في الإسلام وقيمه بدون أي اعتبارات علمية، وهذا استلزم الرد عليه من دائرة التراث العلمي الإسلامي، ولكثرة الدراسات الاستشراقية نشأ علم الاستشراق الذي طال حوله الجدل، حتى نشأ ما يمكن أن نسميه بعلم نقد الاستشراق[٢].

وعلى كل حال؛ الاستشراق ونقد الاستشراق طوّرا من العلوم الشرعية، وأدخلاها مرحلة جديدة هي مرحلة نقد العلوم الشرعية.

ثم إن المستجدات في الحياة كانت تتسارع بشدة في كل المناحي، في الاقتصاد والسياسة والأوضاع الدولية، والطب والنفس والاجتماع، والأدب والفن، والفلك والفضاء، والنظريات والمناهج، والاختراعات والاكتشافات، وأصبح العالم في كل يوم يختلف عما سبقه، حتى يمكننا أن نقول بدون مبالغة إنه يصدق عليه قول الحق: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴿١٤﴾﴾[٣]، هذا الخلق الجديد الذي يتعاقب كل يوم جعل المشتغلين بالعلوم الشرعية يعيدون قراءتها باستمرار، حتى نشأت بعد ذلك المجامع الفقهية والندوات العلمية، وتوج ذلك في الجانب الفقهي بمجمع الفقه الإسلامي، وفي بقية الفروع نشأت مجامع علوم الحضارة، وهكذا في سائر فروع المعرفة.

وأما على المستوى التقني فقد كان دخول المطابع إلى العالم، وسرعة انتشار الكتاب، وكذلك ظهور الجرائد والمجلات عاملاً مهماً في طور الانبعاث، حيث تحركت الأفكار بسرعة، وأخذ كل فريق ينشر ما لديه، كما كان أيضاً بإمكان أي عالم وباحث أن ينشر أفكاره ورؤيته وتصل إلى القراء في مدة زمنية قصيرة؛ مقارنة بما كان عليه الحال أثناء المخطوطات.

---

(١)- إدوارد سعيد، الاستشراق، ص٥٥.
(٢)- انظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة؛ السلطة؛ الإنشاء، فقد نقد الاستشراق بقوة.
(٣)- سورة المؤمنون آية: ١٤.

وكان لدخول نظم التعليم الحديثة دور حاسم في انتشار التعليم والقضاء على الأمية، وهذا هيأ للأجيال الجديدة الفرصة لأن تقرأ وتدرس الظواهر الكونية والسنن العلمية، وكذلك أن تقف على الظواهر الاجتماعية، وأن تفهم حركة السياسة والاقتصاد، والأهم من ذلك أن الرفاه الاجتماعي واليسر الاقتصادي ارتبطا بدرجة التعلّم.

وفي ظل هذه الحركة العلمية الدائبة والمتصاعدة، كان لابد للعلوم الشرعية أن تطور نفسها، سواء بإعادة النظر في المعارف القديمة، أو بإعادة صياغة المناهج.

ولحق هذا التعليمَ الجامعاتُ كتطوّر طبيعي لمراحل الدراسة، فنشأت أقسام وكليات للعلوم الشرعية في كل بلد إسلامي، فنقلها من علوم ذات طابع فردي إلى طابع جماعي، ومن استنباط أقرب إلى الملاحظة منه إلى دراسات أكاديمية دقيقة، وبلفظ آخر؛ أصبح للعلوم الشرعية مصانع تعمل على مدى الأربع والعشرين ساعة.

كل هذا لا يمكن أن يترك العلوم الشرعية على ما هي عليه من قبل في الأطوار السالفة، بل شهدنا في ظل المائة السنة الماضية تطوّراً نوعياً في هذه العلوم، ووجدت دراسات مستحدثة لم تعرف من قبل.

وطور الانبعاث هذا الذي شهد حركة متسارعة في الحياة لم يكن ذا طيف واحد، بل هو متنوع في التدرج بالعلوم الشرعية، ويمكنني أن أوجزه في الآتي:

١. مرحلة نقد التفكير[1]:

وهي المرحلة التي ابتدأ بها محمد عبده مشروعه الإصلاحي، وكان يهدف منه إلى تنقية العقل المسلم من الأساطير والتصورات الساذجة، وحمله على التفكير المنطقي في الأمور، وقد اعتمد في مشروعه هذا على محاولة الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، ولذلك قام بتفسيره تفسيراً جديداً يختلف عما دأب عليه المفسرون، وفيه حمل بشدة على الخرافات، وعمل على الربط بين النصوص الشرعية ومكتشفات العصر والسنن المطردة، وقد نشر له آراءه وأقواله تلميذه رشيد رضا في مجلة المنار، ثم جمعها في تفسيره الذي سماه بنفس الاسم « تفسير المنار »[2].

(١)- خميس بن راشد العدوي، صمود النص، مقال.
(٢) - انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار.

ولأن إصلاح الشيخ محمد عبده قام على نقد تفكير سائد لدى فقهاء عصره فإنه واجه معارضة شديدة، اتهم فيها بالزندقة والمروق من الدين تارة، وبالعمالة للغرب واعتناق الماسونية الصهيونية تارة أخرى[١]، ولكن إصراره على الإصلاح وتحمله الإيذاء كان سبب نجاح رسالته الإصلاحية، ففدت العلوم الشرعية بعد محمد عبده هي غيرها قبله.

لم يكتف محمد عبده بنقد التفكير، بل شرع أيضاً في نقد الرواية المنسوبة إلى النبي ﷺ، وجعل محور نقده لها كتاب الله تعالى والمسلّمات العقلية، بيد أن هذه الخطوة انقلب عليها تلميذه المباشر محمد رشيد رضا، وفي تقديري أن بنزعته السلفية تخوّف على التراث الروائي، فلو واصل خط أستاذه لما سَلِم من كم الرواية الضخم إلا بضع مئات، وهو ما يتوافق مع القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وهذه الرؤية النقدية لم تكن جديدة بالمرة في الساحة الإسلامية، إذ شهدنا مثلها في طور التدوين، وذلك عندما قام الإمام الربيع بن حبيب العماني بجمع الرواية عن النبي عليه السلام في مسنده فلم تزد عن السبعمائة رواية[٢]، ولكن هذا العمل ظل محصوراً إلى الآن للاستفادة منه في المدرسة الإباضية.

٢. مرحلة تفكيك التراث:

ويمكننا أن نحدد زمن ظهورها بكتابات محمد عابد الجابري في نقد التراث بداية ثمانينات القرن العشرين، وذلك من خلال مشروعه الكبير نقد العقل العربي[٣]: تكوين العقل العربي (١٩٨٢م)، وبنية العقل العربي (١٩٨٦م)، والعقل السياسي العربي (١٩٩٠م)، حيث قدم دراسة تفكيكية للعلوم الشرعية، تمكن من خلاله أن يكشف عن البنية العقلية التي صنعت العلوم الشرعية.

وبذلك لم تعد مناهج هذه العلوم، ومنها علم الكلام، والفقه وأصوله، وعلوم اللغة، أمراً مصمتاً لا يستطيع القارئ العربي أن يسبر غوره، بل جعلها متاحة أمام الدارس الجامعي،

---

(١) - ناصر الدين الألباني، لقاء مسجل حول موقفه من ماسونية رجال المدرسة الإصلاحية؛ تعليقاً على رأي مقبل الوادعي، منشور عبر اليوتيوب:

http://www.youtube.com/watch?v=Kztksjs3QbE&feature=related

وخالد بن مبارك الوهيبي، معالم للزمن القادم، ص١١٨-١٢٤.

(٢) - انظر: الربيع بن حبيب الفراهيدي، المسند.

(٣)- تولى نشر دراسات الجابري مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت.

فضلاً عن المتخصص، وهو مشروع وإن لم يقدم بنية جديدة متكاملة للعلوم الشرعية؛ إلا أنه يهدف إلى إعادة صياغة العلوم من جديد، وهو ما سيقدم عليه الدارسون ولو بعد حين، بما أن قواعد هذه المناهج ومنطلقاتها تم تفكيكها ووضعها في مشرحة العلم.

ما قدمته هذه المرحلة لم يكن أمراً عابراً على العلوم الشرعية، بل قرأ في مناهجها البيئة الفكرية التي قامت عليها، بدأ من معتقد منشئيها، ومروراً بالصراع السياسي والمذهبي الذي جرى بينهم، واللغة العربية التي كتبت بها العلوم، والمؤثرات الحضارية والاجتماعية، والثقافات المحايثة التي وضعت عليها بصماتها، ومنها أساطير العرب وخرافاتهم، وروايات أهل الكتاب وقصصهم، وأدب فارس وسياستها، وعرفان الهند وغنوصها، ومنطق اليونان وفلسفتهم، بل إنك تقف على آمال الإنسان المسلم في وقت كتابتها وآلامه، ومَن يحب ومَن يكره، وكيف يفكر وفيمَ.

وهذا يوقفنا على أن هذه العلوم لم تكن موضوعية بالقدر الذي يظن فيها، بل هي جاءت معبّرة عن وضع منشئيها؛ الديني والاجتماعي واللغوي والسياسي والنفسي.

إن هذه المرحلة لها وقعها على فهم العلوم الشرعية السالفة، كما أنه سيكون لها أثرها في صياغة هذه العلوم لاحقاً، أو إعادة بنائها، بل وحتى اختراع فروع جديدة لهذه العلوم.

٣. مرحلة نقد الرواية :

مع أن الإمام محمد عبده قد افتتح نقد الرواية، وقد جاء من بعده من مارس هذا العمل، فظهرت دراسات كثيرة في هذا المجال، لكن لم يحض هذا العمل برؤية منهجية حتى جاء بعد تسعين عاماً تقريباً المستشار عبدالجواد ياسين بكتابه « السلطة في الإسلام »[1]، فقام بدراسة واعية على الروايات المنسوبة إلى النبي ﷺ، وخرج بمحددات موضوعية يمكن الفصل بها بين ما هو من السنة النبوية وما ليس منها.

تكمن الخطورة في نقد الرواية أنه يتعرض مباشرة إلى النص النبوي، حيث تركبت العلوم الشرعية كلها على الرواية، وأصبحت هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، وأيضاً لأن الروايات هي المميِّز بين المدارس الإسلامية، وهو ما أعطاها الخصوصية المذهبية من الذوبان في بعضها البعض، فأي نقد للراوية يتعرض إلى الحقل المذهبي، وهو

(١)- نشره المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ٢٠٠٠م.

حقل حساس كما هو معلوم، فالدفاع عنها هو أمر جبلي للحفاظ على الذات، قبل أن يكون إيمانياً أو علمياً.

هذان المكمنان هو ما يعوق عملية نقد الرواية، ومن يقوم به فهو عرضة للطعن في دينه، كما حدث من قبل للإباضية ـ تحت مسمى الخوارج ـ حينما اتهموا بعدم الأخذ بالسنة النبوية[1].

هناك تحولات أكيدة في حقل العلوم الشرعية من جراء مراجعة كل مدرسة من المدارس الإسلامية الرواياتِ؛ أخذاً ورفضاً؛ لأنه إن وجدت حقول معرفية ترفض بعض الروايات التي انبنت عليها قضايا مذهبية، فإنه في نفس المقام اعتمدت روايات في مدارس أخرى وأنشأت قضايا لم تكن معتبرة في إطارها المذهبي، وكل هذا بسبب الانفتاح المذهبي بين المدارس الإسلامية الذي حدث في طور الانبعاث.

٤. مرحلة التحليل:

مع الانفتاح على النصوص في المدارس الإسلامية؛ القديمة والحديثة، ودخول آليات نقد جديدة إلى المسلمين، دخلت العلوم الإسلامية مرحلة المقابلة والمقارنة، مما استلزم تحليل النصوص، وذلك بالوقوف على أصولها، وتأثير البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها، ومدى تأثير السلطة في إنشائها سلباً وإيجاباً، وانعكاس معتقد المؤلف على آرائه ونتائجه، واعتبار عامل الزمن في البحوث العلمية، وذلك بناءً على أن أي مصطلح أو مقولة لابد أن يتراكم عليها تأريخ من التطور المعرفي، بما يجعلها تأخذ طابعها المحدد في كل حقبة زمنية، أو مجتمع إنساني.

وظهرت كثير من الدراسات اهتمت بالعلوم الشرعية نحت هذا المنحى، ومن هذه الدراسات التي تجسد هذا الاتجاه: الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم لتوشيهيكو إيزوتسو[2]، والنبوة من علم العقائد إلى فلسفة التأريخ لعلي مبروك[3]، وعن الإمامة والسياسة والخطاب التأريخي في علم العقائد لعلي مبروك أيضاً[4]، والفكر

(١) - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٦١٧.
(٢)- نشرته المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
(٣)- نشرته دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٧م.
(٤)- نشره مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام[1]، وقد نشطت هذه المرحلة بدخولنا العصر الرقمي، فقد كثر نشر الدراسات التحليلية في العقدين الآخرين وأخذت تصل إلى القارئ المسلم وهو جالس في مقره عبر الإنترنت.

هذه المراحل الأربع التي مر بها التفكير الإسلامي ولا يزال، تلقي بظلالها الكثيفة على العلوم الشرعية في إعادة قراءتها، ثم الكتابة فيها، وربما سيؤدي إلى صناعتها من جديد، هذا مع قابلية وجود مراحل لاحقة سيكون لها أثرها، وربما ستكون المرحلة القادمة هي مرحلة بناء، لكن كيف سيكون هذا البناء، هذا ما ينبغي أن نلتفت إليه ونهتم به؛ لأنه يعني كياننا المستقبلي، و به ستتحدد شخصية الأمة، وأدوات تفكير أفرادها، ومدى فاعليتهم في الحياة.

المدارس الغربية وأثرها على العلوم الشرعية:

الأفكار ليست جلمود صخر، بل هي كائن حي[2]، يؤثر ويتأثر في حلقة لولبية متصاعدة، وأهم ما يذكيها الانفتاح المعرفي، وكما رأينا لم تكن هذه العلوم في منأى عن تأثرها بالحضارة الغربية، بل هذا هو العامل الأول، وإن كنت قد تحدثت سلفاً عن الصدمة التي أحدثها الاستعمار في نفوس المسلمين، مما دعاهم إلى مراجعة تراثهم، فأدى إلى إعادة قراءة العلوم الشرعية من جديد، ثم الكتابة حولها، بداية دفاعاً، ثم إحياءً، ثم نقداً، ثم تحليلاً، وكذلك الكتابة فيها بروح المناهج المستحدَثة في الغرب، فإنه هنا من الضروري أن ألمح إلى أهم المدارس الغربية التي عُنيت بدراسة هذه العلوم مباشرة، وفتحت جامعاتها لدراستها، واستقبلت أبناء المسلمين لتدّرسها لهم وفق مناهجها المبتكرة، وهذا - حتماً - يستتبعه صياغة جديدة للعلوم، بيد أن الخطورة تكمن في أن هذه الصياغة مرتكزة على عوامل خارجية فرضها الضعف لدى المسلمين من جهة، وبإملاء من القوي من جهة أخرى، في حين أن تدوينها الأول ارتكز على عوامل داخلية ومن منطلق قوة الذات التي تريد أن تفعّل ثقافتها لتصل إلى الآخر.

---

(١)- نشرته دار المنتخب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

(٢)- انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، فقد درس مقدار حيوية الأفكار في عالمنا الإسلامي بصورة جيدة.

ففي نظري؛ أن هناك انقلاباً في طرفي المعادلة بين الصناعة الأولى، والصياغة الثانية، والأخطر هو غياب الفقيه من طرف المعادلة الأخيرة، مع محوريته في الطرف الأول.

توجد ثلاثة اتجاهات تحليلية اهتمت بالعلوم الشرعية مباشرة، وأثرت عليها[1]، وهذه الاتجاهات متداخلة، أخذت بها معظم المدارس الغربية، وإن برزت إحداها على الأخرى في اتجاه من الاتجاهات الثلاثة[2] وهي كالآتي:

أ. اتجاه التحقيق:

كان اهتمام هذا الاتجاه هو إحياء النصوص القديمة بغية تحليلها، بتحقيقها تحقيقاً علمياً، وذلك بالبحث عن المخطوطات، وإثبات نسبتها إلى مؤلفها، والقيمة العلمية لكل مخطوطة، ومدى سلامتها من العيوب والخرم والتصحيف والتحريف، ثم المقارنة أولاً بين المخطوطات، وإثبات الاختلافات بدقة متناهية، ثم التحليل ثانية، وذلك بدراسة ما تحمل هذه المخطوطات من آراء المؤلف، والمقارنة بينها وبين آرائه في كتبه الأخرى، وكذلك مدى صدور آرائه وفق عقيدة المؤلف وفقهه، ووفق البيئة المعرفية التي عاش فيها.

جعلت عملية التحقيق هذه من الدراسات الأكاديمية العليا التي ينال بها الطالب الدرجة العلمية التي تؤهله للتدريس في الجامعات والمعاهد العلمية، وبالتالي دخل هذا النظام من التحقيق تقليداً مهماً في العلوم الشرعية، ولاسيما في مجال إحياء التراث، وبات عرفاً لابد أن يسلكه كل من يقوم بإخراج مخطوط، سواء في الحقل الأكاديمي، أو البحث الحر، الذي أصبح هو الآخر مجبراً على الأخذ بما أنتجته مدرسة التحقيق التحليلية.

لا يهتم هذا الاتجاه بعقيدة المؤلف والمحقق، بل يسعى إلى إخراج المخطوطة وحسب، ثم تحليل نصوصها على ضوء ما توصلت إليه المناهج الغربية، وبعض هذه التحقيقات أغرمت بإخراج الغريب والمنسي والأكثر جدلاً من المعارف والعلوم.

وهذا جعل العلوم الشرعية أمام عدّة محددات في الانفتاح المعرفي منها:

- الاطلاع على المناهج الحديثة في تحقيق التراث، والتي أنتجتها الحقول المعرفية الغربية، والتقيد الصارم بها.

(١)- انظر: رضوان السيد، تأثيرات المستشرقين الألمان في البحوث الأكاديمية العربية، مجلة التسامح، ص٢٤٥-٢٥٢.

(٢)- انظر: حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، ص٣٩٤-٤٣٤.

- البحث عن كل ما هو فريد ومغيّب في التراث المعرفي الإسلامي.
- ألغى الفوارق المذهبية والدينية من اهتمامات طالب العلم، وأجبره على الاطلاع على الحقول المعرفية لمن يخالفه في الرأي والمعتقد.
- أجبر طالب العلوم الشرعية على الاطلاع على بيئة المؤلف ومعتقد طائفته، ودوافعه النفسية والاجتماعية.
- ألزمته على السفر والخلطة بطوائف المؤلفين، والاطلاع على تراثهم العلمي، وحركتهم الاجتماعية.
- إتاحة هذه العلوم بيد جميع القراء عن طريق النشر، وتبني المكتبات توزيعها في مشارق الأرض ومغاربها.

وتبرز المدرسة الإنجليزية في هذا الاتجاه، ومن المستشرقين البريطانيين الذين عنوا بنشر المؤلفات الإسلامية آربري (١٩٠٥-١٩٦٩)، فقد (فهرس كثيراً من الكتب العربية والفارسية، وترجم وحقق كثيراً من الكتب العربية والفارسية)[١]، ومنهم بالمر (١٨٤٠-١٨٨٢) الذي أصدر (فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية)[٢].

ب. اتجاه الشك:

وجد اتجاه في عالم الأفكار والمعارف أطّر له فلسفياً الفيلسوف ديكارت، وهو الشك[٣]، الشك في كل المسلّمات بدون استثناء، ومع أن العلوم من قبل كانت تمارس درجة من الشك، ومنها العلوم الشرعية، لكن ذلك لم يكن الإطار المرجعي، وإنما اكتُفِي به في مجال إقامة الحجج على المخالف.

والعلماء المسلمون كانوا سبّاقين إلى هذه الخطوة، وقد مارسوها في مناهجهم لاسيما علمَي الكلام والفقه، وفي نظري أن هذا المنهج أخذوه من القرآن الكريم عندما قصّ عليهم حجج نبي الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام في إشادة معالم الإيمان بالله تعالى وتوحيده في قلوب الناس، ومن ذلك عندما عرض على المشركين وحدانية الله من خلال دحر مفهوم الألوهية عن الكواكب النيرات، قال جلَّ شأنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ

(١) - عبدالقهار داود العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية، ص٩٦.
(٢) - المرجع نفسه، ص٩٩.
(٣) - علي بن العجمي العشي، إمكانية المعرفة وموقف الفكر الإسلامي من مذاهب الشك، نسخة إلكترونية.

رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1]، وكذلك في إقامته الحجة على الذي حاجه في الله وقدرته، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[2]، بل إنه سلك ذلك في مجال الاطمئنان النفسي، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾[3].

بيد أن بعض المدارس الغربية أخذت من الشك منهجاً في كل شيء، فلما دخل حديثاً إلى العلوم الشرعية، أخذ يعصف بكثير مما كان يعدّ من المسلمات، سواء في المعتقدات، أو الاجتهادات الفقهية، بل سرى ذلك إلى المناهج، فأصبحت أصول الدين وأصول الفقه، ومناهج العلوم العربية، بما فيها النحو؛ عرضة للشك العلمي.

والخطورة تكمن عندما تعرّض القرآن الكريم ـ الذي هو أصل الدين والنص المؤسّس للعلوم الشرعية ـ إلى الشك؛ الشك في أصله، هل هو إلهي؟، والشك في نقله، هل وصل إلينا سليماً دون تحريف؟، ومع أن هذه القضايا ليست جديدة في الحقل المعرفي الإسلامي، بل واجه القرآن الكريم قضية الشك في مصدريته من أول نزوله، وواجه المسلمون بعد ذلك مسألة تحريف القرآن الكريم[4]، إلا أن اتجاه الشك أصبح له منهجه الأكاديمي الذي يدّرس في الجامعات، وأصبح هو الأصل الذي يراد للعلم أن يقوم عليه.

(١) - سورة الأنعام الآية: ٧٥ – ٧٩.

(٢) - سورة البقـرة الآية: ٢٥٨.

(٣) - سورة البقرة الآية٢٦٠.

(٤) - زكريا بن خليفة المحرمي، إذا الصحف أحرقت، مقال، تطرق إلى جمع القرآن الكريم، وفند مقالة المشككين في عملية جمعه.

والآن البحث في العلوم الشرعية اتخذ سبيلين حيال ذلك:

الأول: التأثر بما تمليه أصول هذا الاتجاه، فظهرت بحوث تركز على التشكيك في علمية ما دونته العلوم الشرعية القائمة، وفي نظري أخطرها الدراسة التي قام بها عن القرآن الكريم تيودور نولدكه بعنوان « تأريخ القرآن »[١]، وسار على هذا على الاتجاه في بعض كتاباته محمد أركون[٢].

الثاني: المواجهة؛ بداية هي لا تعني هنا عدم التأثر باتجاه الشك والرفض التام لمعطياته، بل تعني مواجهة هذا التيار بأداته، والمواجهة دائماً تترك آثارها على الجانبين.

فقد لاذ بعض المهتمين بالعلوم الشرعية في مواجهة الشك المنهج بالقطع؛ لأن العلم قائم على الأدلة القطعية، والعلم بذلك يقوم على القرآن الكريم بكونه منزلاً من عند الله تعالى، وعلى سنن الكون ونواميسه التي لا تتبدل، وعلى مسلّمات العقل، فهذه وحدها هي مرتكزات العلم، والتي يفئ إليها الباحث لتقرير معارفه في العلوم الشرعية[٣].

هذا؛ وإن كانت السنن الكونية ومسلّمات العقل مما لا يفترض الخلاف حولها في الحقول العلمية الأكاديمية، ولذلك لم يصعب على المهتمين بالرد على اتجاه الشك أن يقرروا رؤيتهم، فإن المواجهة الفعلية كانت فيما يتعلق بالقرآن الكريم، إذ المسألة برمتها تبدو إيمانية تسليمية، والإيمانيات ليست مما يمكن قياسه علمياً، فضلاً عن إمكان برهنته، فكيف بعد ذلك يبنى عليه حقائق علمية وآراء معرفية، إلا أنه رُدَ على هذا بأنه إن كان - حسب نظرية الشك - لا يمكن إثبات مصدريته الإلهية فإنه كذلك لا يمكن نفي ذلك، ولذلك منهجياً لابد من التحول من هذه النقطة إلى نقطة منهجية أخرى أكثر حسماً مما طرحه المتشككون؛ وهي عدم إمكان أن يكون هذا القرآن صادراً من البشر، بل ومن أي مخلوق آخر، وذلك لما يحويه من دلائل الإحكام الكوني والنفسي والاجتماعي والتشريعي واللغوي والبياني والحضاري، وعدم وجود التناقض فيه، وعدم قدرة البشر على الإتيان بمثله، وهذا المنهج هو الذي طرحه القــرآن الكريــم ذاته منذ أول نزوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا

(١) - نشرته منشورات الجمل، كولونيا — ألمانيا، ٢٠٠٨م.

(٢) - انظر: محمد أركون، الفكر الإسلامي: قراءة علمية. وزكريا بن خليفة المحرمي، قراءة في فكر محمد أركون، مقال.

(٣) -زكريا بن خليفة المحرمي، قراءة في فكر محمد أركون، مقال.

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[٥].

وهذا المنهج الذي طرحه القرآن الكريم واعتمد عليه من واجه مدارس الشك؛ فلسفياً هو أقوى من إثبات المصدرية بالطريقة التي ينادي بها المتشككون؛ لأن ـ منطقياً ـ نفي إمكان الضد أقطع حجة من إثبات الإمكان، وبمثال تقريبي، قولنا: لا غراب إلا أسود. أقوى دلالة وأقطع في الحجة من قولنا: الغربان سود.

فقولنا: «إن القرآن الكريم مصدره الله تعالى» حق ويقين، بينما لا ينفي أن يأتي غير الله بمثله، ولكن عندما نقول: إن هذا القرآن لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثله. فهو إثبات لحقيقة مصدرية ألوهيته من جهة، والقطع بالنفي أن يقدر أحد على الإتيان بمثله من جهة ثانية.

وعلى كل حال، السبيلان؛ التأثر والمواجهة تركا أثرهما على العلوم الشرعية، ولا يزالان، وخاصة مع ابتعاث الطلاب المسلمين للدراسة في معقل هذا الاتجاه؛ وهي ألمانيا رائدة مدرسة الشك التحليلية[٦]، والذي كان منها تيودور نولدكه (١٨٣٦–١٩٣٠) شيخ الاستشراق الألماني، وفويلز (١٨٠٨–١٨٨٩) الذي أصدر (مقدمة نقدية للقرآن)[٧].

(١) – سورة النساء الآية: ٨٢.
(٢) – سورة البقرة الآية: ٢٣.
(٣) – سورة يونس الآية: ٣٨.
(٤) – سورة القصص الآية: ٤٩–٥٠.
(٥) – سورة الإسراء الآية: ٨٨.
(٦) – عبدالقهار داود العاني، الاستشراق، ص٨٥.
(٧) – المرجع نفسه، ص ٩٠.

ج. اتجاه التفكيك:

وهو اتجاه قائم على تحليل النص بتفكيكه وفق المقارنة النصوصية، ووفق ديالكتيك البنى الاجتماعية، ودلالات اللغة وإيحاءاتها، والمضامين التي حملتها عبر الزمن، وهذا الاتجاه لا يهتم كثيراً بالتوافق مع المسلمات الدينية، أو الرؤية المذهبية، بمقدار ما يفكك الموقف والحدث والنص، ويتتبع الموضوع من خلال بنيته اللغوية بما يسمى « علم اللسانيات»، أو تطوره التأريخي بما يمكن أن يسمى « علم تطور المصطلح والمفهوم ».

وفي هذا الاتجاه تأتي المدرسة الفرنسية، ومنها المستشرق مكسيم ردنسون[١].

وكان لهذه المدرسة على العلوم الشرعية صدى في جهتين:

الأولى: انطلقت من المناهج الغربية؛ اللسانية والتأريخية، وخاصة تلك التي درست نصوص التوراة والإنجيل والظاهرة الدينية في المجتمع الغربي، ثم أسقطت ملاحظاتها على العلوم الشرعية، دون أن تختبر مدى صدق هذه الملاحظات أولاً، ثم مدى انطباقها فعلاً على هذه العلوم ثانياً، ويبرز في هذه الجهة نصر حامد أبو زيد[٢]، وحسن حنفي[٣].

الثاني: وهو اتجاه محسّن من الاتجاه الأول، انطلق من دراسة العلوم الشرعية ذاتها، ولم يحاول أن يفرض انطباعاته وملاحظاته التي اقتبسها من مدرسة التحليل قسراً على العلوم الشرعية، وإنما جعل النصوص المدروسة ذاتها تنطق بما يتوافق مع ملاحظات هذه المدرسة، ويبرز في هذا الاتجاه عبدالمجيد الشرفي وتلاميذه الذين أشرف على دراساتهم العليا[٤].

تفكير جديد يمارسه عقل المسلمين:

كان العقل الإسلامي ينطلق في تفكيره من النص الشرعي وفق رؤية مذهبه الفقهعقدي، وعلى ذلك نشأت العلوم الشرعية ودونت، أما في هذا الطور فتوجد عناصر أخرى كثيرة أثرت على العقل المسلم، جعلته يختلف عن سلفه بدرجة أو بأخرى، لم يعد عنصر المذهبية هو المحدد الأول، بل قد يكون الأخير، أو ربما أنه يخفت جداً في بعض الأحايين حتى لا

---

(١) - عبدالقهار داود العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية، ص١٠٩.

(٢) - انظر: نصر حامد أبو زيد؛ مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، والنص والسلطة والحقيقة.

(٣) - انظر: حسن حنفي، تأويل الظاهريات، وظاهريات التأويل.

(٤) - انظر على سبيل المثال: حمادي ذويب؛ السنة بين الأصول والتأريخ، ومنصف الجرار؛ المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، والحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث؛ محمد حمزة، وناجية بوعجيلة الوريمي؛ في الإيلاف والاختلاف: ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم.

يكاد يبين، ولكن لا أستطيع أن أقول بانعدامه مطلقاً، وذلك أن المقولات الإسلامية؛ سواء على مستوى الفكرة أو المصطلح محملة بالمذهبية، وتحتاج إلى تكفيك مضنٍ لتجاوز أثر المذهبية.

ثم ما نلاحظه على العقل المسلم الراهن؛ بغض النظر عن سلفيته وحداثته، هو اختلاط الحقول المذهبية لديه، وحتى الدينية، بل والمناهج المعرفية في أحايين ليست بالقليلة، ولذلك فنعت التفكير لدى المسلمين هنا بالعقل الإسلامي هو من قبيل التقسيم الوصفي الذي لا يعطي قيمة بالصواب أو الخطأ للأفكار، وإنما نسبة إلى تأثره بالظاهرة الإسلامية، أو دراسته إياها أو مواجهته لها، وخصوصاً في مجال قراءة العلوم الشرعية.

ويحسن هنا أن أذكر بعض ملامح هذا التفكير[1] الذي ترك عليه الانفتاح المعرفي أثره الكبير، خصوصاً بعد دخول العصر الرقمي؛ عصر الفضائيات والإنترنت.

وبداية أقول: إنني أطلق على هذه الملامح المذهب، ولكن لا يعني ذلك ما رسمه الخيال الاجتماعي الإسلامي لصورة معينة من الافتراق والتخاصم أو الالتقاء والتواد، فالمذهب هنا لفظة اعتبارية مدرسية تقوم مقام الاتجاه أو التيار، وهي أقرب إلى الدلالة اللغوية، كما أن هذا التوصيف لا يقصد فئة محددة من الناس، وإنما يقصد الأفكار المطروحة في الساحة خلال هذه الحقبة من طور الانبعاث.

وأيضاً هذا التوصيف متداخل، فهو وإن بدا بعضه يتعلق بالتفسير والآخر بالرواية والثالث بالعقيدة والرابع بالفقه والخامس بالتفكير، إلا أننا هنا غير معنيين بهذا التوزيع، بل ما يعنينا هو الكشف عن آلية التفكير عند المسلمين والمطروحة في سوق معارفهم وثقافتهم.

١. مذهب الطاعنة:

تيار هذا المذهب يقوم على الطعن في الظاهرة الإسلامية بأنها غير إلهية المصدر، وإنما هي إفراز اجتماعي أفرزته البيئة العربية في ذلك الوقت، وهذا المذهب الأجدر أن يقال عنه بأنه «لا إسلامي»، ولكن أدرجته هنا لأنه يدرس هذه الظاهرة، والقائلون به هم من أصل إسلامي.

(١) - خميس بن راشد العدوي، مذاهب الإسلاميين الأخيرة، مقال.

وهؤلاء اختلفوا على آراء بينهم، فمنهم من يذهب إلى أن النبي محمد ﷺ كان رجلاً عبقرياً فذاً استطاع أن يأتي بتشريعات راقية، بعد أن درس بحذق مجتمعه والمتغيرات من حوله.

ومنهم من يهوّن من ذلك فيذهب إلى أنه ﷺ ليس أكثر من ناسخ للتشريعات السابقة كاليهودية والنصرانية، وللقوانين الرومانية ونحوها، ومبرمج للأوضاع العربية.

ومنهم من يحقر التشريعات الإسلامية ولا يرى فيها أي عبقرية أو طرافة، بل هي أقرب إلى أحاديث النفس[١].

٢. مذهب الشكاك:

وهذا المذهب وإن كان يلتقي في « عدم إسلاميته » مع مذهب الطاعنة إلا أنه لا يملك جرأته في طريقة الطرح، فهو يسلك مسلك إلقاء الشك في مصادر التشريع بشكل كلي أو جزئي كالتشكيك في قضية جمع القرآن وتواتره، أو البنية الاجتماعية لعصر النبوة والصحابة[٢].

٣. مذهب النقد:

هو مذهب يقوم على نقد القضايا المطروحة في التراث الإسلامي؛ إما على ضوء العقل، أو على ضوء القرآن، أو على ضوئيهما معاً، آخذاً بما توصلت إليه المناهج الإنسانية المعاصرة، عاملاً في العلوم الشرعية مبضع التشريح النقدي، سالكاً في كل ذلك مسلك التفكيك[٣].

وقد يختلط هذا المذهب بمذهب الشكاك عند غير المتمعن، إلا أن هناك فارقاً بينهما؛ فمذهب الشكاك يروم تقويض الظاهرة الإسلامية، بينما يروم مذهب النقد ـ حسب رؤيته ـ فحصها ووزنها وتقيمها، أو تثبيتها وتنقيتها وإزالة الشوائب عنها، بغض النظر عن صوابه أو خطئه، وعن نجاحه أو إخفاقه.

(١) – انظر: عباس عبدالنور، محنتي مع القرآن ومع الله في القرآن، ٢٠٠٤، دمنهور، مصر.
(٢) – انظر: خليل عبدالكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة.
(٣) – انظر: محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، وجورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي.

٤. مذهب القرآنيين:

وهو مذهب يرى أن منهج أهل الرواية قد جنى على الإسلام، حيث استخدم الرواية معبراً لهجران القرآن وتعطيل أحكامه، ولذلك يدعو هذا المذهب إلى الرجوع إلى القرآن بإزاحة ما علق في أذهان المسلمين من تفسير وتأويل مقحم على طراوته، ومن هؤلاء ابن قرناس في مشروعه الذي ابتدأه بكتابه « سنة الأولين» ثم أردفه بكتابيه «الحديث والقرآن» و «رسالة حول الخلافة وحكم الله»، وصبحي أحمد منصور الذي أسس موقعاً في الإنترنت باسم « أهل القرآن » وقد جذب إليه أتباعاً كثيرين.

والقرآنيون مذهبان: سني، وغير سني (والسنة هنا عند هذين المذهبين تعني سنة الرسول ﷺ وليس مذهب « أهل السنة » المعروف).

أما القرآنيون السنة فيرون الأخذ بالثابت من السنة عن طريق التواتر العملي، وبما هو متفق مع القرآن من الروايات.

وأما القرآنيون غير السنة فهؤلاء لا يعتبرون ما صدر عن الرسول عليه السلام من غير القرآن مصدراً للتشريع عند المسلمين[١].

٥. مذهب الروائيين:

وهو مذهب يقوم على الرواية عن النبي ﷺ، وأن السنة ـ وهي عندهم ما صح من الرواية ـ مصدر ثان للتشريع والفكر الإسلامي، وينافح الروائيون بشدة منقطعة النظير عن ذلك الكم الروائي الهائل الموجود في الصحاح والسنن والمسانيد، ويرون أن تركه نقضاً لعرى الإسلام، وأن نقد الرواية يجب أن يكون بتفعيل علم الحديث الذي أنتجه المحدثون في طور تدوين العلوم، وأن ممارسة النقد محصورة فيمن تمرس هذا العلم، دون اعترافهم بآليات نقد أخرى، وعلى هذا معظم أقسام الحديث بالجامعات والكليات في البلدان الإسلامية.

والروائيون مذهبان: مذهب يقدم القرآن على الرواية، وهو ينادي بقراءة متن الحديث في ضوء القرآن، ومذهب يقدم الرواية على القرآن؛ ويرى أن فهم القرآن يجب أن يكون على ضوء الرواية[٢].

(١) - انظر: سامر إسلامبولي، القرآن من الهجر إلى التفعيل.

(٢) - انظر: صلاح الدين بن أحمد الأدلبي؛ منهج نقد المتن، وعداب محمود الحمش؛ علم تخريج الحديث ونقده.

والملفت للنظر أن الروائيين بفرعيهما يلجأون إلى ضروب من التوفيق بين القرآن والرواية، ولو كانت في بعض الأحايين غير منهجية، ويرون أن ذلك إخلاص للدين وتقرب إلى الله تعالى، والسند عندهم مرتكَز لا يمكن تجاوزه، وقد يخلط الروائيون بين الرواية والسنة، فيعدّون أي رواية إن ثبتت بمقاييسهم سنة، وهناك من يفرق بينهما.

٦. مذهب السلف:

وهو يختلف نوعاً ما عن السلفية المعهودة في الحقل المذهبي التقليدي، حيث تحصر هذه الأخيرة نفسها في منطلقات التفكير عند أهل الحديث، بينما « مذهب السلف » هذا يستخدم نفس المنهج لكن بتوسيع الدائرة إلى المذاهب التقليدية الأخرى، وأصحاب هذا المذهب يرون فيمن تقدمهم بعداً آسراً لا يمكن تجاوزه.

٧. مذهب الخوارق:

وهو مذهب يركِّب تفكيره على حدوث الخوارق في الكون منافية الواقع والعقل، وأساس هذا المذهب تقديس الأشخاص، حيث يتم رفع « الولي » إلى درجة يعجز عنها عامة الناس.

وهذا مذهب قديم يتجدد بحسب الحالة التي تعيشها الأمة، فكلما سكمت في وهدة الإخفاق نشط هذا التوجه، وكلما أحرزت تقدماً في مجالات الحياة والمعرفة خفت وضعف، وعلى هذا المذهب المتصوفة من كافة فرق المسلمين.

٨. مذهب الظاهر:

وهو مذهب يركن إلى النظرة الظاهرية في فهم النص، ويعتبر الخروج عنها إلى المقصد أو العلة خروجاً عن مقصود الدين، وفي أحيان يعتبره خروجاً عن الدين ذاته.

ولا يزال هذا المذهب مهيمناً على قطاعات عريضة من الدراسات الشرعية في المدارس والجامعات والمعاهد الإسلامية، وله دعاته ورموزه المعاصرون.

٩. مذهب التعليل:

هذا المذهب يبني استخراجه الأحكامَ على مبدأ وجود العلة في التشريع، فهو يرى أن الله تعالى لم ينزل أحكامه إلا لعلل تحقق حِكَماً دينية ودنيوية، فمتى ما وجدت العلة وجد الحكم، وإذا ارتفعت ارتفع، وبين أصحاب هذا المذهب أخذ ورد، كما أن بينهم وبين أهل الظاهر أخذاً ورداً أكبر، وهذا المذهب وإن كان قديماً إلا أنه كان مطموراً بالتفسير

الظاهري للنصوص، وفي القرن العشرين الميلادي أخذ ينشط ويتفاعل مع الانفتاح المعرفي والواقع المتغيّر سريعاً[١].

وهذا المذهب هو الأكثر قبولاً لدى علماء المجامع الفقهية والمستنبطين المعاصرين، وخاصة في الدول غير الإسلامية لملاحقة ظروفهم المتسارعة في التغيّر.

١٠. مذهب المقاصد:

إن كان مذهب الظاهر يجمد عند حدود المدلول الظاهري للغة، ومذهب التعليل إن تجاوز ذلك فهو لا يتجاوز البنية البيانية اللغوية التي أصّلها الأصوليون القدماء، فإن مذهب أصحاب المقاصد يتجاوز الإشكال اللغوي إلى الحركة الاجتماعية الفاعلة، ويرى أصحاب هذا المذهب أن نصوص الشريعة تنزلت في بيئة اجتماعية متحركة روعي فيها مصالحها المتغيّرة، وهذه الحركة الاجتماعية موجودة بمدّة طويلة قبل التأصيل البياني للبنية اللغوية، ويرى المقصديون أن من الجناية على الشريعة أن تحد بإلزامات الأصوليين التقليدية، ويرون كذلك أن الشريعة غرضها الأول تحقيق المصلحة الدنيوية والأخروية[٢]، وإذا زالت المصلحة من حكم ارتفع، فلا يجوز إنزاله على الواقع.

١١. مذهب التقعيد:

ينبني هذا المذهب على أن للشريعة قواعد كلية تمثل الثابت من الحياة، حيث ركب الله تعالى الكون وما فيه على سنن ونواميس محددة تحكمها قواعد كلية، وفي الحياة أيضاً متغيّرات جاء الإسلام ليعالجها في آنها، فلا يمكن أن تتحول الأحكام الجزئية التي جاءت لتعالج المتغيّر إلى أحكام مطلقة لمدى الحياة وفي نفس الوقت يتم تغييب القواعد الكلية الحاكمة للحياة.

فأصحاب التقعيد يرون عدم تجاوز القواعد الكلية للشريعة بما فيها بنيتها اللغوية، ولكن لا يمكن في نفس الوقت أن تتحكم الأحكام الجزئية على حركة الحياة، ويرون غياب

(١) - انظر: محمد مصطفى شلبي، تعليل الأحكام، فهو من أول من درس مباحث العلة ونظّر لها في الحقل الأكاديمي.

(٢) - محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص٩٧-٩٨، وقد وضع ابن عاشور في كتابه هذا أصولاً عامة ينبغي -حسب رأيه- أن يتحرك تحت سقفها الفرد والمجتمع.

القواعد الكلية تمييعاً للدين، وهيمنة الأحكام الجزئية تجميداً للحياة، أو بالأحرى لأحكام الشرع التي ستتجاوزها الحياة لا محالة[1].

١٢. مذهب الدلالة الجزئية:

إذا كان مذهب التقعيد قائماً على صنع قواعد كلية من الأدلة لأجل استنباط الأحكام، أي على الدلالة الكلية الثاوية في نصوص الشريعة، فإن مذهب الدلالة الجزئية على العكس من ذلك، فهو ينظر إلى الدليل الوارد بذاته، فيستخرج منه الحكم؛ دون الالتفات كثيراً إلى بقية النصوص التي قد تكوّن قاعدة كلية تختلف الأحكام المستنبطة منـهـا عن ذلك الحكم الجزئي المستخـرج من الدليل المفرد.

فالنص المفرد أو الجزئي؛ أو حتى المجتزأ أو المنبتر هو دليل قائم بذاته صالح عند أصحاب هذا المذهب أن يستخرج منه أحكاماً، ويعتمد هؤلاء كثيراً على قواعد تؤصل لرؤيتهم من قبيل أنه «لا حظ للنظر مع وجود الأثر و « لا اجتهاد مع النص » و « إذا ثبت الحديث فهو مذهبي »[2].

وعلى هذا المذهب التأليف الفقهي التقليدي الذي لا يزال نشطاً في مجاله.

١٣. مذهب زمانية النص:

وهؤلاء يرون أن الشريعة جاءت بكليات عامة نافذة على مر العصور، وأخرى مراعية الزمن الذي نزلت فيه، فأما الكليات فهي قائمة لا يمكن أن يتجاوزها الزمن كالتوحيد والبعث والعدل والمساواة وأمهات العبادة (الصلاة والصوم والزكاة والحج) ونحوها، وأما الأحكام الأخرى كحجاب المرأة وتحريم الربا والحدود ونحوها فقد جاءت مراعية لواقعها، ولا تلزم المسلمين مع تغيّر طبيعة الأحوال[3].

وزمانية النص لها جذور عند الفقهاء منذ القديم، لكن الآن يتبناها بشدة فريق ممن يصفون أنفسهم بالعلمانيين المسلمين.

(١) - انظر: زكريا بن خليفة المحرمي، الإباضية تأريخ ومنهج ومبادئ، حيث وضع –حسب رؤيته– قواعد للتفكير العلمي عند الإباضية.

(٢) - محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص٧٤–٧٧، وانظر: خالد بن مبارك الوهيبي، أشراط الساعة: النص والتأريخ، القسم الأول.

(٣) - انظر: سعيد العشماوي، أصول الشريعة.

١٤. مذهب المرجئة الجدد:

وهو يختلف عن مذهب الإرجاء القديم في الشكل والطرح والتسمية فقط، بينما مؤداه واحد، وأصحاب هذا المذهب يقولون إن الإسلام عقيدة فقط، وليس بشريعة، فأحكام الشريعة العملية قد انقضت بموت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن على المسلمين بعده أن يتخذوا ما يناسب زمانهم من الأحكام، فهم يفصلون الدين عن الحياة، وهؤلاء أيضا ينتسبون إلى العلمانيين المسلمين.

١٥. مذهب الباطنية الجدد:

من المعروف أن الباطنيين القدماء كانوا يقولون إن للشريعة ظاهراً وباطناً، وأن الظاهر ليس هو مقصودها، بل المقصود الباطن الذي يرمز إليه الظاهر، وأخذوا يفسرون الشريعة ويأولون أحكامها حسب مقتضى فلسفتهم في الحياة، بعيدين كل البعد عن تقعيدات الفقه والبنية اللغوية القريبة التي يعرفها عامة الناس الذين تنزل القرآن بلغتهم.

والباطنية الجدد دبّوا نفس الدُّبّة[1] فأخذوا يأولون ألفاظ النصوص بعيداً عما هو مألوف اللغة، وعمدوا إلى تحميل مصطلحات الشريعة مفاهيم جديدة اقتضتها مناهجهم ومقاصدهم، مثلاً: كالتفريق بين القرآن والكتاب، وبين النبي والرسول تفريقاً يحمل مضامين المايزة بين أحكام الشريعة المعروفة من حيث درجة العمل والالتزام بها[2].

وهؤلاء يقدمون أنفسهم على أنهم مجددون في التفكير الإسلامي، في حين يدرجهم بعض المسلمين في خانة العلمانيين.

١٦. مذهب الإقصاء:

وهذا مذهب يقوم على مصادرة رأي الآخرين في تفسير النص الشرعي، ولا يقبل إلا بمنظومته الفكرية فحسب، ويرى مخالفه مشركاً أو كافراً أو ضالاً يجب البراءة منه.

والتضليل عند أصحاب هذا المذهب يتعدى مخالفة قطعيات الدين المتفق عليها بين المسلمين قاطبة إلى مخالفة مسلمات المذهب القديم، أو حتى الآراء الفردية التي يتصورها صاحبها أنها هي التي تمثل الدين.

---

(١) - الدُّبة: المنهج والطريق.

(٢) - انظر: محمد شحرور، الكتاب والقرآن.

١٧. مذهب الإعذار:

وهو مذهب يقف على النقيض من مذهب الإقصاء السابق، فهو يرى بأنه يجب أن يعذر كل طرف صاحبه الآخر، وأن من سنة الله تعالى في خلقه الاختلاف، وأصحاب هذا المذهب يقولون: إن الأمة اتفقت على الكثير واختلفت في القليل، فيجب أن يستغل الكثير ويغلب على القليل المختلف فيه، وحتى هذا المختلف فيه يجب أن يحمل على التكامل بين الأمة.

ويرون أن الالتقاء بين المسلمين والتعارف بينهم كفيل بأن يرجع الناس إلى الدليل الصحيح الذي تؤيده القرائن الشرعية؛ دون اللجوء إلى القطيعة مع الآخرين، وعلى هذا قامت فلسفة مجامع التقريب بين المذاهب الإسلامية وأطروحاتها وبحوثها.

١٨. مذهب التصويب:

وهذا المذهب يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه مذهب الإعذار، فهو يرى أن كل الآراء التي قالها المسلمون صحيحة مقبولة؛ لأن الحق في نظره يمكن أن يتعدد، وبما أن الإنسان مهما أوتي من علم فإنه لا يقطع بأنه على الحق؛ لأنه لا يملك الدليل القطعي من الله تعالى على صواب رأيه دون سواه، فإن رأيه يكون محتملاً للصواب، وبالمقابل أيضاً رأي غيره يكون محتملاً للصواب.

وهؤلاء يرون أن الأمة لم تصب بما أصيبت به إلا من جراء احتكار بعض فئاتها الحق لها دون سواها.

١٩. مذهب التسامح:

يرى أصحاب هذا المذهب أن النص الشرعي في فهمه وتأويله وتفسيره ليس حكراً على المسلمين وحدهم دون سواهم، بل ينبغي أن تفتح أبواب النص الشرعي لجميع الناس مسلمين وغيرهم، ولذلك ترى أصحابَ هذا المذهب يقبلون تفسير غير المسلمين للنصوص، كتفسير اليهود والنصارى والوثنيين والدهريين وغيرهم، ويرون في ذلك إغناءاً لفهم النصوص الشرعية، وتجديداً في فكر الأمة، ويرون كل ذلك تسامحاً جاءت به الشريعة وأمرت به.

٢٠. مذهب القدرة:

يرى أصحاب هذا المذهب أن الإنسان خالق فعله ـ كقول المعتزلة الأول ـ ولذلك فهو محاسب عليه، ويرفضون فكرة التسليم بخلق الله تعالى لكل شيء، ويرون ذلك عين الجبر، الذي جاء الإسلام ليرفعه عن كاهل الناس.

ويرتفع بعضهم في رأيه إلى أن علم الله تعالى غير سابق لفعل العبد، فهو سبحانه وتعالى لا يعلم إلا ما يقع من العبد لا قبل وقوعه، ويتأولون لاستدلالهم على ذلك آيات من الكتاب المجيد(١).

٢١. مذهب سد الذرائع:

باب سدّ الذرائع من أبواب الفقه القديمة، ولكنه كان يمارس غالباً بشكل منهجي وعابر في مناقشة قضايا الفقه، أما في الآونة الأخيرة فقد أصبح يشكّل بنية أساسية لمواجهة التغيّرات المتسارعة في الحياة، ويرى هؤلاء أن في إصدار الأحكام المانعة أو المحرِّمة حداً للناس من الوقوع في المحرمات القطعية.

فمثلاً إصدار حكم بمنع التحاور بين الرجل والمرأة عبر شبكة الإنترنت في أي قضية ولو كانت علمية هو سد مانع من التذرع بالإنترنت إلى المعاكسة بين المراهقين والمراهقات، وإصدار حكم بتحريم الهندسة الوراثية هو مانع من الوصول إلى الاستنساخ البشري.

ويتبنى هذا المذهب كثير من المفتيين في العالم الإسلامي.

٢٢. مذهب الاحتياط:

وهو مذهب قريب من مذهب سدّ الذرائع، لكنه أقرب إلى اعتماد ظاهر النص، ويرى في لزوم ظاهره احتياطاً يعصم من مخالفة الشريعة، وهو كثيراً ما يعتمد على نظرية الخروج من عهدة الخلاف.

وهذا المذهب باسم الاحتياط يتميّز بمخزون كبير من الفقه الملزِم، وغالبه من قبيل الفقه المانع، وهو يتوجس حذراً من تبني آراء جديدة قد تدخله في عهدة الاختلاف بين الفقهاء. وهذا قريب من سابقه، ولذلك يفعّل كثيراً في الفتوى.

(١) - انظر: سامر إسلامبولي، علم الله وحرية الإنسان.

٢٣. مذهب الإجماع:

لا يعترف هذا المذهب بإلزام الأحكام إلا إن كانت مجمعاً عليها، أي داخلة في حيّز القطع في الدلالة والسند، ويعتبر الأحكام الظنية داخلة في دائرة الاختيار؛ يسوغ تركها كما يسوغ العمل بها حسب مقتضى الأحوال.

وهذا المذهب يدور في مدار تقليص هيمنة المنطوق به لصالح المسكوت عنه، وهو يعتبر دائرة الإباحة الدائرة الأوسع في الحياة، ومنهم من يراها أنها الدائرة التي جاء الشرع لصيانتها من تعدي الإلزام عليها، فهي عندهم دائرة مصونة بحكم الشرع وبدلالة المسكوت عنه الذي هو في حكم المنطوق به، بل هو أقوى منه عندهم.

٢٤. مذهب المقلِّدة:

وهؤلاء يضعون عقولهم بأكف مَن يقلدونهم، وقد عفوا عن العقل مناقشة مقالات الرجال، وتبيّن أصيل معدنها من زائفها، وربما نافح المقلِّد عمن يقلِّد وانتصر لآرائه أكثر من المقلَّد نفسه.

وهؤلاء يطلبون لجلِّ حركاتهم وسكناتهم في الحياة فتوى من الفقيه المقلَّد، ويرون في ذلك سلامة في الدين وزلفى إلى رب العالمين، وهؤلاء يقرأون المسطور بعقل مَن يقلدونه، ولا يقدرون على الاستفادة من المطروح في عالم الفكر إلا تحت خرير فكره وصلصلة آرائه، وعلى هذا العامة من الناس.

هل يمكن تجنب استحقاقات الانفتاح؟

هل تستطيع العلوم الشرعية أن تكون بمنأى عن التغيير، وإن شئتم عن التطوير، في هذا الزمن الذي يشهد انفتاحاً غير محدود، أصبح العالم فيه رقعة صغيرة، تتداول فيه الأفكار لحظة ميلادها، وربما قبل أن ترسخ في عقل صاحبها، فضلاً عن أن يختبر صحتها وسقمها؟.

يبدو السؤال من حيث سلامته منطقياً، لكنه أيضاً لا يوقفنا على إجابة حرة يمكن أن يلتزم بها، فالتغيير حتماً حاصل، وقد بدأت المراجعة في العلوم الشرعية تأخذ طريقها، بغض النظر عمن يقوم بها، ومدى قوة طرحه، وصواب عمله، وما نيته وقصده، فليس لهذا السؤال من جواب إلا بأنه لا يمكن تجنب آثار الانفتاح المعرفي القائم.

وإنما يجب أن يكون الجواب على أسئلة أخرى أكثر صميمية، وأدعى إلى اعتبارها والنظر فيها، من مثل:

١- كيف نقوم بإعادة صياغة العلوم الشرعية؟.

٢- ما هي المناهج التي ينبغي أن نسلكها في قراءة تراثنا المعرفي؟.

٣ -من يصمم هذه المناهج؟ ثم كيف لنا أن نقيس موضوعيتها وعلميتها؟ وكيف لنا أن نختبر صدقها وفاعليتها؟ وهل سيسمح لنا الزمن بذلك، أم أننا تأخرنا؟.

٤ -ما حدود الاستفادة من مناهج الآخرين؛ لاسيما مدارس المناهج الغربية السائدة في عالم اليوم؟.

٥- هل التغيير يطال الفروع دون الأصول، والجزئيات دون الكليات، أم سيشمل الأصول والكليات؟ وكيف يكون ذلك؟.

٦- هل يمكن أن نرى علوماً شرعية جديدة في: علم الكلام، وعلم أصول الفقه، وعلم النحو، وسائر العلوم التقليدية التي لا زالت قائمة، أو مجرد تطوير في هذه العلوم، وهي لا زالت تملك رسوخها العلمي وجاذبيتها المعرفية؟.

٧- هل ستنشأ علوم أخرى؛ كعلم القرآن الكريم والألسنية وعلم تحليل النصوص؟.

والكثير جداً من الأسئلة التي يجب أن تكون أجوبتها حاضرة، وإلا فإن عجلة الزمن لا تقف، ولا ترحم الجامدين كذلك.

أين موقع الفقيه؟

الأمة الإسلامية هي أمة فقه[1]، هذه مقولة صحيحة في نظري، وبما أنها هي كذلك فإن الفقيه يتربع على عرش معارفها وعلومها، والضمير الإسلامي في عمومه رسخت فيه هذه النظرة إلى الفقيه، ولكن السؤال أين موقعه الآن من العلوم الشرعية التي يقوم الانفتاح بتفكيكها وتحليلها، ثم إعادة بنائها؟.

قبل الإجابة على هذا السؤال فلنرجع قليلاً بنظرنا إلى طور تدوين العلوم، لقد كانت رؤية الفقيه هي المحور الذي نشأت حوله العلوم الشرعية بدون استثناء، بل هو من أنشأها أصلاً ودوّنها ورسّخ أصولها، وابتدع مناهجها، وحتى عندما استفاد من علوم الآخرين؛ من فلسفة اليونان، وأدب فارس وسياستها وعرفان الهند، إنما فعل ذلك من موطن

(١) - محمد الفاسي، الفكر السامي، ج١ ص١١.

القوة، وبما يجعل الآخرين؛ بما فيهم أرباب الفلسفة والأدب والعرفان خاضعين للرؤية الإسلامية الكلية، نقول هذا مع اعترافنا بما تركته علوم الأقوام الثلاثة من أثر عميق على نقاء الرؤية الإسلامية كما هي في صدورها الأول، ولكن ما يهمنا أن هنا مركز المعرفة كان بيد المسلمين، ومن حولهم تتمحور الثقافات الأخرى.

أما في هذا الانفتاح الأخير فقد حدث العكس، حيث أصبح المسلمون في الطرف الأضعف، وأن قطب رحى المعرفة والمنتِج لها هم الفلاسفة الغربيون، والمسلمون طلاباً بين أيديهم، هذه حقيقة قائمة لا يمكن نكرانها، ولكن السؤال أين الآن هو الفقيه؟.

أقول هذا وأنا فعلاً أتمنى أن يكون الفقيه هو المحور الأساس في صياغة العلوم الشرعية، وفي صلب بنائها الجديد، وأرجو أن لا يقضى الأمر والفقيه بعيد عن الساحة؛ لأنه ستكون لدينا علوم شرعية ـ إن صح هذا اللفظ في حقها ـ في أمة الفقه والفقيه غائب عنها، قد أتصور وقوع ذلك مع حركة الانفتاح الضخمة التي نشهدها، لكن ما لا أستطيع أن أتصوره، ولا أرجو قيامه، تلك الصورة غير المحمودة التي ستؤول إليها هذه العلوم، وتلك النواتج التي ستخرجها، والتي ستدفع الأمة ثمنها من التبعية العلمية والثقافية للآخرين؛ ربما لزمن طويل.

اليوم في موضوع العلوم الشرعية والانفتاح المعرفي عندنا فقيهان:

الأول: مقلِّد؛ معارِض كل ما تنتجه دور المعرفة أو أغلبه، وهمه ينصّب على التحذير من المناهج المستجَدة، ورفض نواتجها، ويعتمد في ذلك على أمرين هما: الشحن العاطفي ضد الانفتاح ومنتجاته فيما يتعلق بالعلوم الشرعية، وتربية مجاميع من الطلاب على هذا الرفض، وعلى العلوم التقليدية، ثم ما أن يشب هؤلاء الطلاب ويقرؤون في المعارف المتجددة كل يوم، فهم أيضاً أبناء زمانهم، حتى يتجه كثير منهم إلى نبذ هذا التقليد لصالح رؤى أخرى، ليس الفقيه هو الفاعل فيها، وهذا ما تفعله المدارس الفقهية التقليدية التي تتمحور حول الشيخ الفقيه.

الثاني: مؤصِّل؛ حيث يقوم بتبني ما تنتجه الفلسفة الغربية في مختلف نواحيها، ثم يذهب لينظر في معارفه القديمة ما يبرر الأخذ بالمنتَج الجديد، أو بتهذيبه وتشذيبه، وحتى عندما يوجد رفض لموضوع ما بدايةً، لا يلبث أن تعصف به رياح الحياة فيأتي من يجيز دخوله إلى حقلنا المعرفي، ثم بتبنيه بعد ذلك، فالفقيه هنا يعطف علومه الشرعية على آليات من خارج حقله المعرفي، والمجامع الفقهية إلى الآن تمارس في بعض طرحها هذا النوع من دور الفقيه.

هذا هو الفقيه إلى حدٍّ الآن، وهذا هو دوره وموقعه في العلوم الشرعية وهي تتشكّل من جديد.

إن ما نريده من الفقيه أن لا يكون مقلِّداً، ولا مؤصِّلاً من هذا النوع، وإنما نريده منتجاً كسلفه الأول الذي صنع العلوم الشرعية بعقله وكتبها بأنامله، وسهر عليها ليله، وأمضى فيها نهاره، حتى خرجت علوماً سار العالم ردحاً من الزمن على رؤيتها، نريد فقيهاً منتجاً للعلوم الشرعية، منطلقاً من النص القرآني والهدي النبوي، واعياً حركةَ التأريخ، ومشاركاً في دفع عجلة الحياة إلى الأمام، نريد فقيهاً فيلسوفاً؛ فلسفته نابعة من دينه، بها يقرأ ويكتب، وبها يعلّم ويفتي، وبها يؤصّل ويفرّع، إن هذا الفقيه وحده من يمكن أن يواجه عصر الانفتاح المعرفي باقتدار، ووحده من يمكن أن يجمع شتات العلوم ليسخرها في خدمة الدين والدنيا، ووحده من يمكن أن يكون داخل دائرة صناعة القرار الإنساني، لا مجرد مقتات على مائدة الآخرين، أو متهيب من الحياة ومفرزاتها.



المراجـــع:

١. ابن قرناس، سنة الأولين: تحليل مواقف الناس من الدين وتحليلها، ٢٠٠٦، ط١، منشورات الجمل، العراق وألمانيا.

٢. ابن قرناس، الحديث والقرآن، ٢٠٠٨، ط١، منشورات الجمل، كولونيا وبغداد.

٣. ابن قرناس، رسالة حول الخلافة وحكم الله، ٢٠٠٨، ط١، منشورات الجمل، كولونيا وبغداد.

٤. أحمد أمين، فجر الإسلام، المكتبة العصرية، بيروت.

٥. أحمد بن حمد الخليلي، جواهر التفسير: أنوار من بيان التنزيل، ١٤٠٤–١٩٨٤، مكتبة الاستقامة، روي.

٦. أحمد بن حمد الخليلي، إعادة صياغة الأمة، إعداد خالد بن مبارك الوهيبي، ٢٠٠٣، ط١، الجيل الواعد، مسقط.

٧. أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، تاج العروس، قرص إلكتروني، شركة العريس للكمبيوتر وقناة المجد الفضائية.

٨. أحمد الريسوني، علم المقاصد عند الإمام الشاطبي، ١٤١٦–١٩٩٥، ط٤، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

٩. إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة؛ السلطة؛ الإنشاء، ٢٠٠٣، ط٦، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

١٠. أدونيس وخالدة سعيد، الإمام محمد عبده، ١٩٨٣، ط١، دار العلم للملايين، بيروت.

١١. أدونيس وخالدة سعيد، محمد رشيد رضا، ١٩٨٣، ط١، دار العلم للملايين، بيروت.

١٢. الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، قرص إلكتروني، شركة العريس للكمبيوتر وقناة المجد الفضائية.

١٣. الربيع بن حبيب الفراهيدي، الجامع الصحيح: مسند الإمام الربيع بن حبيب، مكتبة الاستقامة، روي.

١٤. توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ٢٠٠٧، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

١٥. تيودور هونكه، تأريخ القرآن، ٢٠٠٨، ط١، منشورات الجمل، كولونيا وبغداد.

١٦. جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي، ٢٠٠٢، ط٢، دار الساقي، بيروت.

١٧. حسن حنفي، تأويل الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في الظاهرة الدينية، ٢٠٠٦، ط١، مكتبة النافذة.

١٨. حسن حنفي، ظاهريات التأويل: محاولة في تفسير وجودي للعهد الجديد، ٢٠٠٦، ط١، مكتبة النافذة.

١٩. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، ١٤٢٦-٢٠٠٧، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

٢٠. حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ، ٢٠٠٥، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت.

٢١. خالد بن مبارك الوهيبي، معالم للزمن القادم، مكتبة مشارق أنوار العقول، ١٤٢١-٢٠٠٠، ط١.

٢٢. خالد بن مبارك الوهيبي، أشراط الساعة: النص والتأريخ، ١٤٢٥-٢٠٠٤، ط١، مكتبة الغبيراء، بهلا.

٢٣. خميس بن راشد العدوي، صمود النص، مقال، ١٤٢١-٢٠٠٠، نسخة إلكترونية، مكتبة المؤلف وارجع أيضاً إلى موقع كوكب المعرفة: الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م٢٤.

http://www.ibadhiyah.net/maktabah/showthread.php?threadid

٢٤. خميس بن راشد العدوي، رسالة المسلم في عصر العولمة، ١٤٢٤-٢٠٠٣. نسخة إلكترونية، مكتبة المؤلف، وارجع أيضاً إلى موقع كوكب المعرفة: الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م.

http://www.ibadhiyah.net/maktabah/showthread.php?s=&threadid=94&perpage=1&pagenumber=5.0

٢٥. خميس بن راشد العدوي، مذاهب الإسلاميين الأخيرة، مقال، ٢٠٠٦، نسخة إلكترونية، مكتبة المؤلف، وارجع أيضاً إلى موقع المجرة الإسلامية: الزيارة في: ٣٠/ ١: ٢٠٠٩م.

http://www.almajara.com/forums/archive/index.php/t-20777.html

٢٦. خميس بن راشد العدوي، قراءة في فقه مؤسسي المدرسة الإباضية، مقال، نسخة إلكترونية، مكتبة المؤلف، وارجع أيضاً إلى موقع: منديات نالوت لالوت:، الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م.

http://naluty.forumchti.com/montada-f6/topic-t319.htm

٢٧. خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، ١٩٩٨، ط٢، دار سينا؛ القاهرة، الانتشار العربي؛ بيروت.
٢٨. رضوان السيد، تأثيرات المستشرقين الألمان في البحوث الأكاديمية العربية، مجلة التسامح، ع٨، خريف ١٤٢٥-٢٠٠٤، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط.
٢٩. زكريا بن خليفة المحرمي، قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث، ١٤٢٥-٢٠٠٤، ط١، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب.
٣٠. زكريا بن خليفة المحرمي، الإباضية تأريخ ومنهج مبادئ، ١٤٢٦-٢٠٠٥، ط١، مكتبة الغبيراء، بهلا.
٣١. زكريا بن خليفة المحرمي، إذا الصحف أحرقت، مقال، مدونة د. زكريا المحرمي: الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م. http://drzak.net
٣٢. زكريا بن خليفة المحرمي، قراءة في فكر محمد أركون، مقال، مدونة د. زكريا المحرمي: الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م. http://drzak.net
٣٣. سالم بن محمد الرواحي، الدعوة الإسلامية في عمان في عصر اليعاربة، ١٤٢٣.
٣٤. سامر إسلامبولي، علم الله وحرية الإنسان، ١٩٩٤، ط١، دار الأهالي.
٣٥. سامر إسلامبولي، القرآن من الهجر إلى التفعيل، ٢٠٠٨، ط١، دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق.
٣٦. صلاح الدين بن أحمد الأدلبي، منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي، ١٤٠٣-١٩٨٣، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٣٧. عباس عبد النور، محنتي مع القرآن ومع الله في القرآن، ٢٠٠٤، طبعة تجريبية، دمنهور، مصر.
٣٨. عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، ٢٠٠٠، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء.
٣٩. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ١٤١٣-١٩٩٣، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠. عبد القهار داود عبد الله العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية، ١٤٢١-٢٠٠١، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان.
٤١. عبد المجيد الصغير، الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، ١٩٩٤، ط١، دار المنتخب العربي، بيروت.

٤٢. عبد المنعم حسنين، حقيقة جمال الدين الأفغاني، ١٤١٠-١٩٩٠، ط٢، دار الوفاء للطبعة والنشر والتوزيع، المنصورة.

٤٣. عداب محمود الحمش؛ علم تخريج الحديث ونقده، ١٤٢٠-٢٠٠٠، ط١، دار الفرقان، عمّان.

٤٤. علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ١٩٩٣، ط٥، دار الغرب الإسلامي.

٤٥. علي بن العجمي العشي، إمكانية المعرفة وموقف الفكر الإسلامي من مذاهب الشك، نسخة إلكترونية: الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م.
www.ahlalhdeeth.com/vb/attachment.php?attachmentid=51344&d=1193681360

٤٦. علي مبروك، النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التأريخ، ٢٠٠٧م، ط١، بيروت، دار التنوير.

٤٧. علي مبروك، عن الإمامة والسياسة والخطاب التأريخي في علم العقائد، ٢٠٠٤، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب.

٤٨. عوض محمد خليفات، نشأة الحركة الإباضية، ١٩٧٨، مطابع دار الشعب، عمّان.

٤٩. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ١٤٢٣-٢٠٠٢، ط١، دار الفكر، دمشق.

٥٠. محمد أركون، الفكر الإسلامي: قراءة علمية، ١٩٩٦، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت.

٥١. محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ١٤٢١-٢٠٠١، دار النفائس، عمّان.

٥٢. محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، قرص إلكتروني، شركة العريس للكمبيوتر وقناة المجد الفضائية.

٥٣. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ١٣٩٦، ط١، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٥٤. محمد بن سالم الرقيشي، النور الوقاد على علم الرشاد في أحكام الجهاد، ١٤٠٤-١٩٨٤، وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان.

٥٥. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، قرص إلكتروني، شركة العريس للكمبيوتر وقناة المجد الفضائية.

٥٦. محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، قاموس المحيط، قرص إلكتروني، شركة العريس للكمبيوتر وقناة المجد الفضائية.

٥٧. محمد حمزة، الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، ٢٠٠٦، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت.

٥٨. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٥٩. محمد سعيد العشماوي، أصول الشريعة، ١٤١٦-١٩٩٦، ط٤، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة.

٦٠. محمد شحرور، الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

٦١. محمد مصطفى شلبي، تعليل الأحكام، ١٤٠١-١٩٨١، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت.

٦٢. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ١٩٨٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٦٣. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ١٩٨٦، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٦٤. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ١٩٩٠، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٦٥. محمد عابد الجابري، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ٢٠٠٦، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٦٦. محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٧. محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ٢٠٠٠م، ط٢، نهضة مصر، القاهرة.

٦٨. منصف الجزار، المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، ٢٠٠٧، ط١، الانتشار العربي، بيروت.

٦٩. ناجية بوعجيلة الوريمي؛ في الإئيلاف والاختلاف: ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم، ٢٠٠٤، المؤسسة العربية للتحديث الفكري؛ دار المدى، دمشق وبيروت وبغداد.

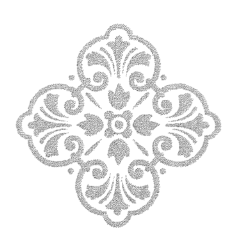
٧٠. ناصر الدين الألباني، لقاء مسجل حول موقفه من ماسونية رجال المدرسة الإصلاحية تعليقاً على رأي مقبل الوادعي، منشور عبر اليوتيوب: الزيارة في: ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م.
http://www.youtube.com/watch?v=Kztksjs٢QbE&feature=related

٧١. نصر حامد أبوزيد، النص والسلطة والحقيقة: إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، ٢٠٠٠، ط٤، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.

٧٢. نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ٢٠٠٠، ط٥، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء.

٧٣. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، الحملة الفرنسية على مصر، موقع على الإنترنت: الزيارة في: ١/ ٢/٢٠٠٩م.
http://ar.wikipedia.org

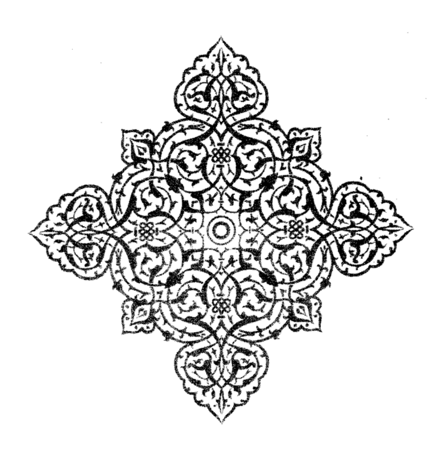
٧٤. يحيى بن أبي الخير الجناوني، كتاب الوضع، ط٦، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان.



التجديد وآفاق مجتمع المعرفة

د. حمد بن هلال اليحمدي (*)

(*) مدير مكتب المناهج بمركز السلطان قابوس بسلطنة عمان (سابقا)، وقد ترأس وشارك في عدد من اللجان المتخصصة والمؤتمرات والندوات المحلية والدولية المتعلقة بتطوير التعليم الأساسي والثانوي، وبتطوير استراتيجية التعليم في السلطنة (٢٠٠٦-٢٠٢٠م)، وهو عضو فريق التعليم وتنمية الموارد البشرية في مشروع إعداد استراتيجية السلطنة للبحث العلمي.





عرف مجتمع المعرفة بتعريفات عدة، تختلف باختلاف مجال الطرح ومناسبته والخلفية التخصصية والثقافية لصاحبه. ولن نطيل هنا بذكر تلك التعريفات والمقارنة بينها، وإنما سنقتصر على الأقرب معنى لموضوع هذه الورقة. فقد عُرِف مجتمع المعرفة بأنه: مواكبة التقدم العلمي، ومواجهة التحدي الحضاري، من غير إهمال للتراث، ولا رفض للماضي بل - في مناخ التجديد - نبعث ما اندرس، ونقدم ما يحتاجه الواقع المعاصر، والمستقبل القادم. والتعريف الذي نراه أنسب هنا هو الذي يصف مجتمع المعرفة بأنه المجتمع الذي يسهم في إنتاج المعرفة ويحسن استعمال وتوظيف ما يصل إليه من المعرفة في تسيير أموره وتطوير، وتنمية جميع مكوّناته من خلال اتخاذ الخطوات والقرارات، والإجراءات السليمة.

ومنشأ مجتمع المعرفة يعود إلى الثورة المعرفية، والطفرة المعلوماتية التي شهدها العالم خلال القرن العشرين على وجه الخصوص. حيث أصبحت المعلومة وما يرتبط بها من معارف وعناصر تشكّل من جانب الأساس الذي تُبنى عليه، عملية التكوين لأهم قطاعات ومجالات الحياة المعاصرة، سواءً الاقتصادية منها أم العلمية أم السياسية أم العسكرية أم الأمنية أم غيرها، ومن جانب آخر أصبحت المعلومة في كثير من الأحيان هي المحرك والموجه الذي يقود نحو نمو وتطوّر، أي من تلك المجالات.

وإذاً لم تعد المعرفة ترفاً أو حكراً تستأثر به نخبة من أبناء المجتمع المعاصر، بما في ذلك تلك الفئة التي يُطلق عليها نخبة المثقفين، أو حتى لو قصدنا بالمعرفة هنا التقانة، أو علوم التقنية الحديثة، فهذه أيضاً لم تعد حكراً على فئة بعينها بما فيهم المتخصصين فيها والمعنيين مباشرة بأمرها. وفي الوقت ذاته لم تعد المعرفة - بأي مفهوم يتم تناوله - متطلباً اختيارياً يتبنّاه مجتمع في وقت، ويتركه أو يستغني عنه في أوقات أخرى، وإنما أصبح متطلباً حتميا لا مناص عنه؛ لبقاء أي مجتمع واستمرارية نموه ورقيّه. أي أن المعرفة بالنسبة لمجتمع اليوم أصبحت مسألة بقاء ووجود من عدمه.

بالنسبة لعدد من شرائح مجتمعاتنا العربية، قد تكون هناك حاجة إلى مزيد من التوضيح لأبعاد هذه المحورية للمعرفة، ودورها في مجتمع اليوم، لكن وبكل تأكيد لا يحتاج

المتخصصون والمعنيون بقطاعات، مثل قطاع الاتصالات، وعلوم التكنولوجيا، والقطاع الاقتصادي، والقطاع الأكاديمي، والفني، وقطاع الصناعات وغيرها إلى زيادة توضيح وتأكيد للدور المحوري للمعلومة في حياة مجتمع اليوم واستمراريتها وتطوّرها. إن هؤلاء وغيرهم يتعاملون مع المعلومة وآثارها بشكل دائم ومتواصل لا يعرف الانقطاع، وأصبحت لديهم معايشة أدركوا من خلالها بأن أي توقف لتدفق المعلومات ولو في أيسر جزء من الساعة؛ يعني توقف العمل في ذلك المجال، وفيما يرتبط به من مجالات وقطاعات، ومن ثم توقف أنشطة الحياة وتراجعها في معظم مكوّنات المجتمع المعاصر.

ولنا أن نتخيل هنا على سبيل المثال لو توقفت المعلومات والبيانات المتدفقة عبر الأقمار الصناعية في قطاع الاتصالات مثلاً، كيف سيكون حال الاتصالات حول العالم، وكيف ستكون حركة الطيران بين مختلف المطارات الداخلية والخارجية، وحركة القطارات والسفن، بل وحتى السيارات في كثير من الدول، كيف ستتأثر علوم الفضاء والمعلومات المتعلقة بأحوال الطقس وتقلبات الجو، وكيف ستتم حركة الاقتصاد وأسعار الأسواق؛ وتحويل العملات والبضائع وغيرها من القطاعات المرتبطة ببعضها ارتباطاً عضوياً معقّداً لا يمكن تخيله. بل كم سينتج عن ذلك من الكوارث والمشكلات التي لا يقف أثرها على مستوى الدول، بل حتى على مستوى الأفراد؟! سوف يؤدي مثل ذلك الواقع إلى اضطراب اتصالات الأفراد، وتعقّد مشاكلهم، وتأثّر علاقاتهم بذويهم وبمن تربطهم بهم علاقات مشتركة في أي جزء من العالم.

خلال شهر ديسمبر الماضي (٢٠٠٨م) تعرضت كابلات الألياف البصرية في البحر المتوسط القريبة من إيطاليا وقبرص لبعض التلف، الذي أدى إلى بطء شديد في سرعة عمل شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) في دول الشرق الأوسط وآسيا وغيرها، وفي بعض الأحيان أدى إلى توقفها. يعرف المختصون والمعنيون كم كانت معاناة المؤسسات و الأفراد من ذلكم الخلل، وكم هو حجم المعاملات والاتصالات المهمة والتي كانت تتم في لحظات أصبحت تنتظر الساعات الطويلة لإنجازها، وبعضها أحدث إرباكاً في مؤتمرات و إجراءات كانت مقررة سلفاً، وأدى إلى تأخر في إنجاز كثير من المشاريع. كل هذا كان بسبب تلف محدود، وعطل مؤقت، فكيف لو كان التلف كبيراً والتوقف كاملاً، كم سيكون حجم الأضرار والخسائر، لا شك أنها ستكون كبيرة وعميقة.

المعرفة والعنصر البشري:

كل أصناف البيانات وأنواع المعلومات والمعارف مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالعنصر البشري وبمقدراته وإنجازاته. فالعقل البشري هو في ذاته مصدر لأنواع عدة من المعرفة والعلوم، وهو في الوقت نفسه مكتشف لأنواع أخرى منها ومطوِّر لمصادرها. إن العقل البشري هو الذي يتعامل مع تلك المعلومات ويوجه استخدامها، كما أنه هو الذي يخطط؛ لتطوير مصادرها وتوظيف نواتجها.

إن الارتباط الوثيق بين ظهور أجيال المعلومات والمعارف المعاصرة من جانب، وبين دور العقل البشري من جانب آخر أمر واضح وجلي، يشي به واقع العلاقة العضوية بين نوعية وحجم المعلومات والبيانات المتوفرة من جهة، وبين مستوى ونوعية الإنتاج والنماء لأي منتج وفي أي قطاع من جهة أخرى.

وعليه فظهور تلك المعارف والعلوم لم يكن ليحصل من تلقاء نفسه، وإنما كان نتاج عصارة أدمغة بشرية نادرة، وجهود عقول بشرية تضافرت وتكاملت على مر عقود من الزمن، كما أن نواتج تلك المعارف والعلوم وآثارها اللامحدودة لم يكن في كثير من الأحيان قدراً عفوياً، وإنما كانت بأسباب جعلها الخالق سبحانه مرتبطة بسعي الإنسان ومهاراته وكسبه. ولذلك لا تكاد تخلو حقبة من حقب التاريخ، ولا حضارة من الحضارات إلاّ ويُوجد بها جيل من العلماء والمبدعين والمكتشفين والقادة وصناع التاريخ في مختلف المجالات والاتجاهات، وهؤلاء هم الذين يتولون زمام المبادرة نحو التجديد والتغيير في مجتمعاتهم، كل في مجال تخصصه وقدراته، وبحسب ظروف المكان والزمان التي تحيط به. ومن هنا ندرك أن عملية التغيير والتجديد في أي مجال وفي أي مجتمع مرتبطة بنوعية ومستوى الدور الذي يقوم به هؤلاء المبدعون والروّاد، جاء في الأثر «فئتان من الناس إن صلحتا صلح المجتمع، وإن فسدتا فسد المجتمع: الأمراء، والعلماء». فمتى قام هؤلاء ومَن لهم أثر مماثل ريادةً وعلماً وإصلاحاً بدورهم الفاعل في نشر المعرفة وتنوير العقول وتنمية المجتمع ثقافياً واقتصادياً، أفراداً ومؤسسات؛ كان ذلك بمثابة بوابة العبور إلى مجتمع المعرفة المعاصر، ودعامات الجسر الموصل إلى الإسهام في الحضارة الإنسانية المعاصرة، ومتى ما خلا المجتمع من الدور الفاعل والمؤثر لهؤلاء كان ذلك أدعى لتراجع المجتمع وتخلفه وانحداره.

لا يصلح الناس فوضى لا سَراة لهم
ولا سَراة إذا جهّالهم سادوا

التجديد الفكري والثقافي

ربما لم يعد خافياً على أحد عمليات التجديد والتطوير التي تشهدها المجالات العلمية والفكرية والثقافية، شأنها شأن بقية ميادين الحياة، والتي اصطبغت بتحوّلات اجتماعية واقتصادية وتقنية كبيرة، أثّرت على كل مكوّنات وعناصر هذه المجالات. وأصبح واضحاً أثر التقدم التكنولوجي القائم على المعرفة والمعلومات في عمليات التجديد والتطوير، الذي تشهده تلك المجالات وفي التحوّلات التي تمرّ بها. كما توضح ذلك الأوراق الأخرى التي يتم عرضها في هذا المؤتمر. هذا وسوف تطرح هذه الورقة نبذة مختصرة عن مسيرة التغيير والتجديد في المجال الفكري والثقافي، والتي مرّت هي الأخرى بتحوّلات عميقة على مر التاريخ الإنساني، وصولاً إلى واقع مجتمع المعرفة في عالم اليوم.

وبداية من المهم ـ ونحن نتناول هذا الموضوع ـ التأسيس على قاعدة: أن التحوّلات الجذرية التي تشهدها المجتمعات في معظم المجالات بما فيها الاقتصادية والتقنية والسياسية، عادةً ما تكون مبنيّة على جهود الإصلاح الفكري والثقافي في ذلك المجتمع، وثمرة من ثمارها. فالتجديد في الفكر والعلوم والثقافة هو السبيل للتجديد والتنمية في القطاعات الأخرى؛ لأن الفكر والعلم والمهارة هي مضامين التربية لأجيال المجتمع، وهي وسائل التنمية البشرية التي ستؤدي إلى إنتاج معارف وعلوم جديدة لبقية المجالات، وفي الوقت نفسه هي المولّد لفكر متنوّر وثقافة راشدة تؤدي إلى استخدام رشيد للعلوم والمعرفة.

وقد مرّ التاريخ الإنساني والإسلامي بمراحل عديدة من التجديد الفكري والثقافي، الذي قاده بداية الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ ثم صحابتهم وتابعيهم، ثم المصلحون والفلاسفة والعلماء والمفكرون والمبدعون وغيرهم، ممن أخذوا بزمام الريادة في مختلف الميادين وعلى اختلاف حضاراتهم وثقافاتهم وبيئاتهم. على رأس هؤلاء جميعاً الرحمة المهداة والنعمة المسداة، خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخوته الأنبياء والمرسلين وصحابتهم. و على وجه الخصوص كان لأصحاب نبيّنا ﷺ الكرام وآل بيته الأطهار وتابعيهم دور رائد في الإصلاح ونشر العلم والفضائل. وعلى رأسهم أبو بكر و عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز (خامس الخلفاء الراشدين) ومصعب بن عمير وجابر بن عبدالله وعبدالله بن العباس وعائشة أم المؤمنين وأبو ذر، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم.

ولو أردنا أن نستعرض جهود الإصلاح الفكري والثقافي قديماً وحديثاً فسيحتاج الأمر إلى موسوعات ضخمة، خاصة إذا ما علمنا أن عملية التجديد والتغيير في المجتمعات ليست جديدة ولا تعود إلى عقود أو قرون قريبة، وإنما هي قديمة قدم التاريخ الإنساني، وماثلة في مسيرة البشرية ومجالات الحياة المختلفة منذ شرع الإنسان في إعمار هذه الأرض. إن الصراع بين القديم والجديد، وبين الواقع والتغيير، وبين الجمود والتجديد واضح في كل الحضارات والثقافات، وكان أكثر ما يكون ماثلاً في فترات مبعث الرسل ـ عليهم السلام ـ ودعوتهم لأقوامهم، والتي في حقيقتها دعوة إلى التجديد وتغيير الواقع. وللوقوف على طبيعة الصراع تلك؛ سنعرض هنا إلى ومضات سريعة من سيرة بعض الرسل ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم ودعوتهم لهم لترك ما كانوا يعبدون من دون الله وليعبدوا إلهاً واحدا لا شريك له. كذلك سنقف وبشكل مختصر على نماذج معدودة لجهود عدد من المصلحين والمفكرين والفلاسفة والأدباء، وغيرهم من روّاد التجديد والإصلاح الفكري والعلمي والاجتماعي من مختلف الحضارات على مرّ التاريخ الإنساني، والذين أحدثوا أثراً في مسيرة الحياة البشرية.

دعوة الأنبياء والرسل دعوة للتغيير والتجديد:

لم تكن تمر فترة طويلة من التاريخ الإنساني على أمة من الأمم إلاّ ويكرم الله البشرية بمبعث أحد أنبيائه ورسله، يدعو مَن أرسِل إليهم إلى تغيير ما ران على قلوبهم من فساد العقيدة والأخلاق، حتى تهيأت البشرية لمبعث خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ فأرسله الله تعالى ليكون رحمة للعالمين، به اكتملت النبوات وختمت الرسالات، وجمعت دعوته محاسن الرسالات السابقة، من نقاء العقيدة، وسلامة العبادة، ومحاسن الأخلاق، فاشتملت بذلك على ما تصلح به البشرية في كل مكان وزمان.

إن الأنبياء والمرسلين ومنذ نوح ـ عليه وعليهم السلام ـ بعثهم الله تعالى ليصلحوا أحوال أقوامهم الذين تلوثت فطرهم بأدران الشرك، وألفوا واقعاً من فساد العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، يقول الله تبارك وتعالى عن دعوة نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۝٥٩﴾[1]، وعن دعوة أبي

(١) - سورة الأعراف الآية ٥٩.

الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع قومه يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴿١٦﴾ ﴾[1]، ودعوة هود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[2]، وكذلك دعوة بقية الأنبياء والمرسلين لأقوامهم كانت لتوحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة وحده وترك ما هم عليه من المعتقدات الباطلة والأفكار المنحرفة قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾[4].

فكانت دعوة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ لأقوامهم دعوة لتغيير واقع موروث، تراكم عليه غبار التقليد الأعمى، والتقديس لموروثات لا تستحق البقاء، فضلاً عن التقدير والتقديس. كانت دعوتهم ـ عليهم السلام ـ دعوة للتغيير في العقيدة، من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده، ومن تقديس ما ورثوه من آبائهم من معتقدات منحرفة وأفكار متخلفة إلى الإيمان بآيات الله وسننه في الخلق والكون والحياة، وكانت دعوتهم كذلك لتصحيح طقوس العبادة التي شوّهت وحرفت حتى توجهت لغير المستحق للعبادة، فدعوهم إلى عبادة الله وفق ما شرع سبحانه من صنوف وسبل العبادة الصحيحة. وكانت دعوتهم أيضاً دعوة لتغيير واقع الحياة البهيمية التي كانت تعيشها تلك الأقوام، بما شابها من الجور والظلم وسوء الأخلاق والمعاملات إلى حياة تسودها الرحمة والألفة، والأمانة والعدل، واحترام كرامة الإنسان، وغير ذلك من الأخلاق النبيلة، والمبادئ الإنسانية الرشيدة.

لكن، وبرغم الآيات الساطعة التي قدمها المرسلون ـ عليهم السلام ـ للدلالة على وحدانية الله تعالى وأحقيته بالعبادة وحده، و الحجج الدامغة التي أقاموها على صدق

---

(١) - سورة العنكبوت الآية ١٦.
(٢) - سورة هود الآية ٥٠.
(٣) - سورة النساء الآية ١٦٣.
(٤) - سورة الشورى الآية ١٣.

رسالاتهم، وأنهم لا يبتغون من وراء ذلك ملكاً ولا أجراً سوى مرضاة الله وتبليغ رسالته للعالمين، أبت تلك الأقوام إلا مواجهة الرسل ومعاندتهم، والبقاء على ما هم عليه من ضلال العقيدة، وانحراف العبادة، وسوء المعاملة والأخلاق قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1]، والواقع نفسه واجهه كليم الله موسى عليه السلام، فما إن صدع بدعوته أمام فرعون وقومه، مقدماً البراهين والشواهد الدامغة على صدق دعوته، مستخدماً أساليب الحوار المتنوعة؛ حتى واجهوه بالتهم والتكذيب والتحدي بالسحر، وتعذيب أتباعه، وإثارة مختلف التحديات، بما في ذلك تجييش الجيوش لمحاربته هو وأتباعه قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[3].

وتكرر نفس الواقع مع بقية الأنبياء والمرسلين، حتى كان ما واجهه خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام من كفار قريش من أشد ما واجهه نبي من أمته ـ كما قيل ـ فلقد تفنّن كفار قريش في تعذيب النبي ﷺ وصحابته الكرام، مبتكرين صنوفاً أخرى من الاضطهاد والظلم، فلم يقتصر اضطهادهم على إلقاء التهم والتكذيب والسخرية، بل تعداه إلى النفي والحصار والتجويع والمقاطعة، وتحريض القبائل والشعوب الأخرى على النبي ﷺ وأصحابه. لقد كانت حجة كفار قريش وعنوان رفضهم لدعوة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي من نفس طبيعة حجج و عناوين الأقوام السابقين، وهو التبعية العمياء والتكبر، والتقليد لموروثات الأجداد، ورفض التحوّل إلى المعتقد الجديد، يقول عنهم

(١) - سورة الشعراء: الآية ٦٩-٧٤.
(٢) - سورة القصص: الآية ٣٦.
(٣) - سورة غافر: الآية ٢٣-٢٦.

عَلَكَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٠٤﴾[1]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ۝٢٨﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١﴾[4].

وإذاً كان التقليد والتبعية العمياء لموروثات الماضي،والتقديس والتبجيل لمعتقدات الآباء والأجداد، ورفض التغيير والتجديد هو القاسم المشترك الأبرز بين تلك الأقوام وذلك ضمن قواسم مشتركة أخرى جمعتهم لتصدهم عن عبادة الله واتباع رسله. لقد أصبح التعصب والاستعصاء على التغيير والتحوّل جزءاً من طباع أولئك القوم، تعذّرت حتى على رسل الله تغييرها وتصحيحها، مع أنهم مؤيدون بالوحي ولديهم المعجـزات والبراهين الساطعـة، فكيف بغيرهم!؟ يقـول الله ـ تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾[5]. وفي قصة هود يقول سبحانه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾[6].

وهكذا الحال مع جميع الأمم والشعوب التي تُبتلى بهذا الداء العضال، في أي زمان ومكان وجدت، إذ أن العقول إذا تحجرت، و الأفهام إذا تكلّست فإنها تستعصي على التغيير

(١) – سورة المائدة: الآية ١٠٤.
(٢) – سورة البقرة: الآية ١٧٠.
(٣) – سورة الأعراف: الآية ٢٨.
(٤) – سورة الصافات: الآية ٦٩-٧١.
(٥) – سورة التوبة: الآية ٧٠.
(٦) – سورة هود: الآية ٥٣.

والتجديد، ولن تستجيب عند ذلك لبيّنة حكيم، ولا تنتفع بموعظة واعظ. فكيف لها أن تنفض عنها غبار التقليد، والتبعية للأفكار البالية، والمعتقدات المنحرفة، وتقبل الإصلاح والتطوير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[1]، فنوح عليه السلام لبث مع قومه تسعمائة وخمسين عاماً، و مع ما تحمله من صنوف الإيذاء والتعذيب في سبيل تغيير معتقداتهم، وإصلاح أحوالهم إلاّ أنه لم يحقق التغيير الذي سعى إليه، ولم يستطع زحزحتهم عما جُبلوا عليه من المعتقدات المنحرفة، والواقع البهيمي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[2]، بل على العكس من ذلك يتحوّل الموقف ليُتَّهم نوح كما اتهم غيره من المرسلين بالجنون والسحر والسفه ونحو ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[3]، وقالت عاد لهود عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[4]، ومثل هذا الواقع واجهه بقية الأنبياء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾[5].

لكن إيمان الأنبياء برسالتهم ومبادئهم، وثقتهم بنصر الله تعالى لهم جعلهم يصبرون على كل تلك التحديات ويستمرون في دعوتهم لأقوامهم بدون كلل ولا ملل. يقول الله عز وجل عن هود عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[6]، ويقول سبحانه عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ

---

(١) - سورة الشعراء: الآية ١٣٦-١٣٨.
(٢) - سورة العنكبوت: الآية ١٤-١٥.
(٣) - سورة هود: الآية ٥٣.
(٤) - سورة الأعراف: الآية ٦٦.
(٥) - سورة الحج: الآية ٤٢-٤٤.
(٦) - سورة هود: الآية ٥٤-٥٦.

﴿ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[1]، وثبت عن نبينا ﷺ قوله عندما ساومته قريش « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى أهلك دونه ».

هذا، ومما لاشك فيه أنه يصعب استقصاء الدروس والعبر المستفادة من سير الأنبياء، ودعوتهم لأقوامهم، وما واجهوه منهم من الجدال والصدود والتعذيب، فكل موقف من تلك السير، على اختلاف بيئته وزمانه وظروفه يمثّل مدرسة للدعاة و المصلحين وقادة المجتمع، بل ولكل فئات المنظومة البشرية أينما كانت، وفي أي زمان وجدت.

ولعل أهم ما ينبغي الالتفات إليه هنا من تلك الدروس والعبر مما يخدم مسيرة التجديد الفكري والثقافي ما يأتي:

١- إن عملية التغيير والتجديد الفكري والثقافي هي من أهم وأصعب أنواع التغيير والتجديد في أي مجتمع، فهي تختلف عن عملية التجديد في المجال التقني أو الإقتصادي أو الإداري، وذلك لأن عملية التغيير والتجديد الفكري والثقافي قد تمس الموروثات والأعراف التي ألفها المجتمع منذ عقود، وربما منذ قرون، كما قد تطال الأفكار والتوجهات التي نشأ عليها أفراده جيلاً بعد جيل، وقد تمس في بعض الأحيان ما قد يتصوّره بعضهم مساساً بالمعتقدات والمسلمات الغير قابلة للتغيير والتجديد، أو حتى النقاش. علماً بأن عملية التجديد والتطوير في المجالات الأخرى كثيراً ما تتوقف على نجاح مسيرة التجديد الفكري والثقافي في المجتمع.

٢- إن من أهم المعضلات والعوائق التي تواجه وستواجه مسيرة التجديد الفكري والثقافي على وجه التحديد في مجتمع المعرفة هي الترسبات المجتمعية، وتقديس الموروثات القديمة، سواءً كانت ثقافية أم دينية أم فكرية أم سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم غيرها.

٣- إن الاختلاف بين توجهات التغيير والتجديد الفكري والثقافي، وبين الموروثات والأعراف القديمة سيكون طويلاً، وسيشهد مراحل متنوعة؛ لذلك على رواد التجديد الفكري والثقافي التحلي بالصبر، وعدم الانجراف وراء التعصب والتشدد لكل الأفكار، والرؤى التي يطرحون، ولضرورة تبنيها في الزمان والمكان الذي يعتقدون. هذا بالإضافة إلى

(١) – سورة الأنعام: الآية ٨٠.

الاحتراز من هيجان المشاعر والعواطف التي غالباً ما تصحب فترات الخلاف، أو دواعي الاستفزاز التي قد يسلكها بعض من يخالفهم الرأي. في مجتمع المعرفة لابد أن يكون مبدأ حرية التعبير، وقبول الرأي الآخر راسخاً ومتيناً وحاضراً في كل مناسبة، وأن يتحلّى الجميع بالحكمة، وحسن الإدارة لمواضع الاختلاف في الرأي، والذي لا يمكن تجنبه بحال.

٤- إن تتولى المؤسسات الثقافية في المجتمع، أو حتى رواد التجديد كأفراد، مهمة ما اصطلح على تسميته إدارة الخلاف، حتى لا يُستهان بما قد يؤدي إليه الخلاف الفكري والثقافي من تحزبّات فكرية، وصراع ثقافي عقيم، ونتائج أخرى متنوعة نشهدها في كثير من المجتمعات، ولعل أقلها تأخر مسيرة التجديد والتغيير في مجتمع المعرفة.

٥- إن إيمان روّاد التجديد الفكري والثقافي بمبادئهم، وبسلامة ما يدعون إليه، من تجديد رشيد في فكر وثقافة المجتمع، وكذلك ثقتهم بواقعية ونجاح توجههم، سوف يكون من أهم العوامل التي ستؤدي إلى نجاح هذه المسيرة، وإلى تحليهم بالصبر والحكمة.

٦- إن دعاة الإصلاح أياً كان نوعه دينياً أم فكرياً أم ثقافياً لا بد أن يتوقعوا معارضة لأفكارهم وتوجهاتهم، فمن السنن المعروفة أن الناس لا تتقبل تغيير ما هم عليه بسهولة، وأن التجديد أصعب من البقاء على المألوف، كما إن الإنسان عدو ما جهل. لذلك لا بد لدعاة التجديد أن يكونوا على يقين تام برشد توجهاتهم، وصدق مبادئهم، وأن يتحلوا بالصبر والحكمة في معالجة الواقع، بدون كلل ولا ملل. كذلك ينبغي التنبّه لعدم الاستسلام للتحديات، والتراجع للوراء مهما كانت صعوبة المشكلات، وكثرة المحبطات. وهذا ما تدل عليه مواقف الأنبياء مع أقوامهم، ولنا في رد هود ونوح وإبراهيم ومحمد وغيرهم من عباد الله المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ المثل الأعلى.

هذا ولم نقف هنا بشكل مستقل على سير أصحاب رسول الله ﷺ، ولا على سير التابعين وتابعيهم من علماء صدر الإسلام، ليس تقليلاً أو تجاهلاً لدورهم ـ والعياذ بالله ـ والذي حفظه التاريخ لهم بماء الذهب، وإنما لإتاحة الفرصة للوقوف على نماذج أخرى من جهود روّاد التجديد والإصلاح الفكري والاجتماعي في الأمم الأخرى. إن البشرية جمعاء تدين لأولئك الصفوة من صحابة النبي ﷺ وتابعيهم ﷺ جميعاً بما قدموه للعالم من تطبيق لمبادئ الخير والعدل والحق والحرية والسلام، وأوجدوا مجتمعاً مثالياً أكثر عدلاً ورحمة

مما حلم به أفلاطون. وبالإضافة إلى ذلك فقد رأيت أن منطلق سيرة صحابة رسول الله ﷺ ـ ورضي عنهم ـ ومن جاء بعدهم من التابعين والعلماء والدعاة والمصلحين من هذه الأمة تتبع من نفس المعين الذي سار عليه نبينا محمد ﷺ وأخوته الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ ومن ثم أجد ما تعرضّنا له من سير الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ يغني في هذا المقام. ولعل الظروف تتيح لنا في المستقبل الكتابة عن سير عدد منهم ودورهم في مسيرة التغيير والتجديد الفكري والثقافي والاجتماعي.

نماذج من جهود الإصلاح الفكري والثقافي في التاريخ الإنساني:

يُطالعنا التاريخ الإنساني بجهود وتوجهات التغيير والتجديد الفكري والثقافي، التي قام بها جمهور كبير من القادة والمصلحين، والعلماء والفلاسفة، والمفكرين والأدباء، والفنانين وغيرهم، وعلى اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم وعصورهم. ويصعب هنا تناول سير معظمهم فضلاً عن كلهم، كما يصعب التعرض لكل ما يتعلق بشخصيات البعض الذين سنتعرض لهم، وأدوارهم المميزة في التاريخ الإنساني. لذلك سنقتصر على نبذة مختصرة جداً لدور عدد محدود من هؤلاء الروّاد وصنّاع التاريخ.

*** سقراط (حوالي ٤٧٠ – ٤٠٠ ق.م):**

سقراط فيلسوف ومعلم يوناني وُلد وعاش في أثينا، وعرف بأنه كان أكثر الرجال حكمة في العالم القديم. وبعد أن عمل في الفن فترة من الزمن تحوّل إلى الفلسفة حتى صار أشهر الفلاسفة والمفكرين في التاريخ. وقد « ابتدع طريقة للتحقيق والتعليم هي كناية عن سلسلة من الأسئلة، تهدف إلى الحصول على تعبير واضح ومتماسك عن شيء يُفترض أنه مفهوم ضمناً من كل الكائنات البشرية العاقلة » كرّس سقراط حياته للبحث عن الحقيقة والخير والاهتمام بحل مشاكل الحياة المعقّدة. « ولتحقيق هذه الغاية كان مضطراً إلى مناقشة الكثير من المعتقدات والتقاليد المسلّم بها، الأمر الذي أكسبه الكثير من العداوات ». بعد وفاة الحاكم اليوناني بيريكليس الذي كان معجباً بأفكار سقراط، وكان يحميه من كيد المخالفين له، وجد أعداء سقراط سبيلهم للضغط عليه بفرض التراجع عن أفكاره، ولكنه رفض واستمر في طرح ما كان يعتقد صحته، حتى حوكم بتهمة إفساد الشبيبة، وصدر عليه الحكم بالإعدام بتجرّع السم. لم يعرف لسقراط أية مؤلفات، و معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه وأفكاره جاءت عن طريق تلميذيه المؤرخ زينفون، والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسطو فانيس وأرسطو.

هذه الوقفة المختصرة مع سيرة هذا الفيلسوف الكبير تؤشر إلى الإسهام الكبير الذي أسهم به في مسيرة التجديد الفكري والثقافي في إحدى حضارات العالم القديم، كما تظهر مدى ما واجهه سقراط من معارضة لأفكاره وآرائه التجديدية في ميدان الفكر والفلسفة، حتى وصل الحال إلى إعدامه بتجرع السم. ومثل هذا الواقع واجهه كل أو معظم دعاة التجديد والإصلاح الفكري والاجتماعي، على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم وأزمنتهم. كما تلقي هذه النبذة المختصرة الضوء على ثبات هؤلاء الأعلام وقوّة إرادتهم في طرح أفكارهم، وكذلك عزمهم في مواجهة التحديات، وعدم الاستسلام للواقع والضغوط التي تحيط بهم رغم قسوتها. فسقراط، الفيلسوف الكبير، فضّل أن يتجرّع السم الزؤام على أن يتراجع عن معتقداته وأفكاره التي يعتقد صحتها وقيمتها الإنسانية.

*** أفلاطون (حوالي ٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م):**

هو تلميذ الفيلسوف الكبير سقراط، وأخذ عنه كثيراً من علوم الفلسفة والمنطق. ولما حكم على أستاذه بالموت نتيجة أفكاره وأطروحاته المغايرة لما تعارف عليه قومه؛ غادر أفلاطون أثينا كارها لما فعلته بأستاذه، فتنقل بين عدد من بلدان الشرق الأدنى. ثم عاد إليها سنة ٣٨٧ق.م. وأسس مدرسة خاصة سميت بالأكاديمية، تحوّلت فيما بعد إلى جامعة، ولعلها كانت أول جامعة عرفها التاريخ. عمل أفلاطون على إصلاح العالم من خلال تبنّى عدة مفاهيم لبناء الدولة، وإصلاح الحكم، ونشر العدالة والمساواة، ووضع عدداً من الكتب القيّمة، كان من أشهرها كتابه المشهور بـ « الجمهورية »، وهو عبارة عن حوار مثّل فيه أستاذه الكبير كزعيم لها. وكان كتابه محاولة مهمة لرسم صورة الدولة المثالية، شرح فيه تصوره الخاص لمفهوم « المدينة الفاضلة ». والقصد بالمدينة الفاضلةِ الدولةُ التي يسود فيها العقل، وتُبنى على العدل والمساواة لا على الرغبات والشهوات.

وقد وصف أفلاطون مدينته الفاضلة، وبين كيفية بنائها، وسبل تقويتها، وكيفية إدارة شئون الحكم، وحقوق الحاكم والمحكوم، كما شرح كيفية تصرّف الأفراد في هذه المدينة بعضهم تجاه بعض. كذلك تعرض إلى الحديث عن مسألة الآفات التي يمكن أن تصيب هذه الدولة فتحوّلها إلى مدينة « غير فاضلة ». فكانت محاولة جادة وجهد كبير من أفلاطون في سبيل بناء مدينة تكون مثالاً لمدن العالم الأخرى، التي تمنّى أن تسودها القيم الإنسانية، والكرامة البشرية. لذلك حفظ التاريخ له مكانته، وسجّل له منجزاته الإصلاحية الفكرية والعلمية رصيداً خصباً، تستضيء منه الأجيال عبر مراحل التاريخ الإنساني.

*** أبقراط ـ أبو الطب (حوالي ٤٦٠ – ٣٧٧ ق.م):**

درس الطب أولاً على يد والده هرقليدس، ثم واصل تعلمه على يد الطبيب هيروديكوس، حتى مارسه في عدة مدن في مقدونيا وغيرها، وعالج عدداً من القادة والملوك. ومما تفرّد به أنه جعل مرضاه يمشون مسافة عشرين ميلاً بهدف تخليصهم مما سماه الأخلاط البغيضة أو الكريهة، التي كان القدامى يزعمون أنها تقرر صحة المرء ومزاجه. وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء.عندما علم أن اليونان مهددة بالطاعون سافر إلى أثينا رغم محاولات الملك برديكاس منعه حفاظاً عليه من ذلك المرض، ولما وصل إلى أثينا طلب من أهلها إشعال الحرائق الكبيرة في مختلف أنحاء المدينة، الأمر الذي أدى إلى أن يجنبها ويلات ذلك المرض الخبيث. ويُقال إنه أخذ هذه الفكرة من الحدادين الذين أخبروه أن لهيب النار يطهر الأجواء.

لم يقصر جهده على ممارسة الطب كمهنة، ولكنه طوّر مفاهيم و ممارسات أخلاقية لمزاولة هذه المهنة الشريفة، وصلت إلى حد أن يوضع ما اصطلح على تسميته (بيمين أبقراط) التي ما يزال خريجو كليات الطب حول العالم يؤدونها قبل مزاولتهم لمهنة الطب. ومن منجزاته أيضاً أنه انتزع الطب من الفلسفة وجعل منه علماً، وكانت له طرائق متفردة في التعليم وإعداد الطلبة، أتاحت لمن جاء بعده استئناف العمل من حيث انتهى عنده، كما فعل خليفته جالينيوس الذي أكمل مسيـرته على إرث أبقراط. توفي أبقـراط بعـد أن دخـل التاريخ من أوســع أبوابه ليسجل اسمــه في الخالدين.

مثل هذه السيرة لهذا الطبيب الفيلسوف البارع تزوِّد روّاد الفكر والتجديد، ولا سيما في مجتمع المعرفة بمنهجية أخلاقية في صياغة الفكر والثقافة، بما فيها الثقافة المهنية وأخلاق المهنة.إن المبدعين من الموظفين وأصحاب المهن على اختلافها في مجتمع المعرفة لا يقتصر دورهم على أداء المهام الوظيفية لتلك المهنة، بل يتعداه إلى المشاركة في تطوير المفاهيم المرتبطة بتلك المهنة وأخلاقياتها، وسائر العناصر المرتبطة بها، والإسهام في المؤسسات والجمعيات التي تجمع أصحاب المهنة الواحدة، والتي تسمى في بعض الدول بـ (النقابة أو الاتحاد). فهذه الاتحادات وغيرها من المؤسسات المماثلة يمكنها إحداث حراك متنوع في تلك المهنة، كما أنها تسهم في تبصير وتأهيل المنتمين إليها، وتزويدهم بما تحتاجه مهنتهم وبمتطلبات تطويرها وتفعيلها. إن المبدعين من الأطباء والمهندسين والأكاديميين

والفنيين والإداريين وغيرهم يمكنهم في ظل مجتمع المعرفة الإسهام في مختلف مؤسسات المجتمع المدني التي تعنى بقضايا المجتمع، وتؤسس لفكر وثقافة مجتمعية مشتركة بين فئات وقطاعات المجتمع الواحد. وبدون شك لا يعني هذا أن ينشغل هؤلاء بهذه المشاركات على حساب وظائفهم ومهامهم بالمؤسسة التي ينتمون إليها، وأن يشتتوا جهودهم بين عدة جهات، لكن العادة في حال هؤلاء أنهم يحسنون ترتيب الأولويات، فلا يؤخرون ما حقه التقديم، كما لا يقدمون ما حقه التأخير. لذلك نجد مثل هذه الفئة هم أحرص الناس على الرقي بمؤسساتهم، والسعي نحو تطوير مشاريعها وخدماتها.

*** أرسطو ـ فيلسوف يوناني (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م):**

ولد أرسطو في شمال اليونان، وخلال مرحلة صباه التحق بأكاديمية أستاذه أفلاطون، وتتلمذ على يديه مدة عشرين سنة، أخذ عنه العلم والفلسفة، وقد أعجب به أفلاطون أيما إعجاب، وكان من أبرز تلامذته. وبعد وفاة أفلاطون ترك أرسطو الكلية وأثينا وتوجه إلى آترنيوس ـ إحدى المدن أو الدول اليونانية في آسيا الصغرى. بعد فترة وجيزة استدعاه الملك فيليبوس المقدوني ليكون معلم ابنه، الذي أصبح فيما بعد الإسكندر الكبير. صار أرسطو صديقاً للإسكندر ومعلماً ومستشاراً. تذكر الروايات أن الإسكندر كان يرسل لأرسطو نماذج من نباتات وحيوانات البلدان التي كان يمرّ عليها، مساهمة منه ف ي تسهيل أبحاث أستاذه أرسطو وزيادة اطلاعه. حتى استطاع أرسطو إنشاء ما اعتبر أول حديقة حيوان في العالم.

في سنة ٣٣٢ ق.م. أسس أكاديميته الخاصة (لوقيون) التي ظل يدير شئونها بنفسه مدة ثلاثة عشر عاماً، وألّف كتبه التي ظهر أبرزها في هذه الفترة. وعلى الرغم من العداء الذي كان قائماً بين الأثينيين ومقدونيا التي استعبدتهم فترة من الزمن، إلاّ أن مدرسة أرسطو اجتذبت الكثيرين منهم، وصارت مركزاً للأبحاث البيولوجية والتاريخية، وشئون الحكم والإدارة. ويذكر أحد الباحثين أنه لم يكن ثمة موضوع يُناقش في أيام أرسطو إلاّ ويتم التطرق إليه في مدرسته أو في كتبه، فيدرسه ويكتب فيه. هذا وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ق.م، ووقوع حكومة أثينا بيد أعداء المقدونيين، وكان أرسطو من أنصار المقدونيين دبّر له أعداؤه تهمة الإلحاد، فخشي الاضطهاد والمصير الذي لقيه أستاذه سقراط، فهرب إلى مدينة خلسيس، حيث توفي فيها بمرض عضال سنة ٣٢٢ق.م.

يقدر ما صدر لأرسطو من كتابات بـ ٤٠٠ مؤلف، ما بين كتاب وفصول صغيرة. عرف بالعلمية والواقعية التجريبية؛ لذلك هو نقد نظرية المثل لأستاذه أفلاطون. وقد تناول في كتبه المنطق وما وراء الطبيعة والطبيعة والشعر بما فيها الفن والجمال والأخلاق والحيوان والنبات، ومن أشهر مؤلفاته: أورغانون، السياسة، فن الشعر، المنطق، تاريخ الحيوانات، علم الفلك، الخطابة. ولقد تأثرت بوادر التفكير العربي بتآليفه التي نقلها إلى العربية النَّقلَة السريان، وأهمهم إسحاق بن حنين.

من أطروحاته (العلّة الغائية) حيث يرى أن المادة تنزع لتكون صورة، أي كياناً محدد الغاية والوظيفة. بمعنى أن هناك هدفاً وغاية لكل موجود. وهذه الغاية كما يراها هي الكمال، أو محاولة التشبّه بقمة الكمال الأزلي الأبدي. لذلك يرى البعض أن أرسطو كان لديه شكل معين من الإيمان رغم تهمة الإلحاد التي رمي بها في أواخر عمره. كذلك عرف عنه ما سمي بقياس أرسطو المبني على ثلاث قضايا: مقدمة كبرى، ومقدمة صغرى، ونتيجة، وهو مؤسس مذهب « فلسفة المشّائين ».

عرّف المؤرخون أرسطو بأنه واحد من عظماء المفكرين، ساهم في تنوير العالم بأسره، حتى لقبه بعضهم بالمعلم الأول. والحقيقة أن شهرة هذا الفيلسوف ومكانته في التاريخ الإنساني لم تأت من واقع دعائي إعلامي، وإنما من واقع منجزاته العلمية الكبيرة، ودوره الإصلاحي الفكري الذي لم يكن محدوداً بحدود المكان والزمان. ومع ما لهذه الشخصية من الإنجازات والآثار إلاّ أن طبيعة فئة من بني البشر تأبى إلاّ مقاومة التجديد والإصلاح والتغيير ومعارضة روّاده ودعاته، فها هو أرسطو يواجه ما واجهه أستاذه سقراط من التهم والتنكيل، ولو لم ينجُ بنفسه لواجه نفس مصير أستاذه. وفضل الهجرة على التراجع عن أفكاره، وهو شأن هذه النماذج العالمية التي تتحلى بقوة الإرادة والتحدي، فمع كل التحديات التي تواجهها تبقى خدمة العلم والفكر والإنسانية هي الهدف الأسمى لها.

*** مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦م):**

المعروف عن مارتن لوثر بأنه زعيم الثورة البروتستانتية على الكنيسة، وهو من أوائل المصلحين الذين حملوا كثيراً من الأوروبيين على الانفصال عن الكنيسة. بعد أن تخرّج من جامعة (إرفورث) أصبح راهباً، وقد رُسِم كاهناً بعد سنتين، ثم عين أستاذاً للاهوت في جامعة فيتنرغ. بدأ انفصاله عن الكنيسة في سنة ١٥١٧م عندما ثار على صكوك الغفران التي كان يبيعها رجال الدين، لتغفر لمشتريها ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، ووضع نظريته الخاصة في خلاص النفس.

وقد علّق على باب الكنيسة لوحة كتب فيها (إن البابا لا يستطيع أن يغفر لأحد خطيئته) وذلك ضمن ٩٥ فقرة تضمنتها تلك اللوحة، ثم أنكر عصمة البابا من الخطأ، وأيد مبدأ أن كل فرد من حقه أن يفسّر الكتاب المقدس على هواه. وفي سنة ١٥٢٠م عزل البابا ليو العاشر مارتن لوثر، وطلب من الإمبراطور شارل الخامس معاقبته بتهمة الكفر والإلحاد، فقضىَ سنة في العزل نقل خلالها العهد الجديد من الكتاب المقدس إلى الألمانية. وتبنّى ودعا إلى مبادئ جديدة، مثل نبذ العزوبة والتنسك. وأخذ يتحدث إلى الناس بلغتهم بدلاً من اللاتينية. ونتيجة لجهوده وإثر حرب أهلية في ألمانيا بين الكاثوليك واللوتريين اعترف بالدين الجديد رسمياً كنظام شرعي للعبادة، وذلك سنة ١٥٥٥م، ولكن ترك لكل أمير ألماني حق اختيار الكنيسة التي يريد اتباعها هو وأبناء مقاطعته، وتبع ذلك إنشاء عدد من الكنائس البروتستانتية في شمال ألمانيا والبلدان الإسكندنافيه.

*** فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م):**

اسمه الكامل فرنسوي ماري آروويه دو فولتير. ولد في ضواحي باريس، وتعلم أصول الدين المسيحي على يد اليسوعيين. عندما بلغ سن الثالثة والعشرين سجن في قلعة الباستيل؛ لأنه أهان القصر الملكي. كان أول ما طلبه في السجن أشعار هوميروس، وأثناء فترة سجنه ألّف ملحمة (هنرياد) التي روى فيها الملك هنري الرابع للملكة اليزابيث قصة اضطهاد البروتستانت.

في سنة ١٧٢٦م سجن من جديد بسبب أفكاره وصراحته وجرأة أقواله، ثم نفي إلى إنجلترا ودام بها ثلاث سنوات. وبعد عودته إلى باريس وبروز اسمه في صالوناتها الأدبية، نشر كتابه الشهير (رسائل عن الإنجليز) سنة ١٧٣٤م الذي أحدث ضجة كبرى اضطر على إثرها إلى الفرار إلى اللورين. ولما عاد إلى باريس سنة ١٧٤٦م انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، وأنتج روايتيه (صادق) و (ميكرومغاس). كما أقام ثلاث سنوات في البلاط البروسي بدعوة من فيريديريك الكبير، ثم عاد إلى باريس حيث وضع أول كتاب فلسفي عن التاريخ، الذي حاول فيه أن يحلل الأسباب الطبيعية وراء تطور الفكر الأوروبي وسماه (مقالة عن الآداب وروح الأمم).

كذلك ألف رواية (كانديد) عندما أقام في السويد فترة من الزمن، وساهم في تأليف الأنسكلوبيديا (الموسوعة الفرنسية الشهيرة) وقاموسها الفلسفي. ثم أخذ يصدر سلسلة من الكراريس والنشرات التي يهاجم فيها التعصب الديني وتطرّف الكنيسة. ولما عاد إلى باريس في الثمانينيات من عمره استقبل استقبالاً شهيراً. توفي عام ١٧٧٨م، بعد أن أسهم في التأسيس الفكري للثورتين الفرنسية والأمريكية، وقد عرف بلقب (شرارة الحرية). ومن أقواله التي كانت تجعل الملوك والبابوات يصغون إليه ويخشونه « تجارتي أن أقول ما أفكر فيه ... » و « إني أخالفك الرأي في كل كلمة تقولها، ولكنني أدافع حتى الموت عن حقك في قولها ... ».

*** فرنسيس ويلارد (١٨٣٩ – ١٨٩٨م):**

مربية ومصلحة اجتماعية أمريكية. تخرّجت سنة ١٨٥٩م من كلية نورث ويسترن للإناث في ايفانستون بولاية ايلينوى بالولايات المتحدة الأمريكية. بدأت حياتها العملية بالعمل في حقل التدريس. وصفت بأنها المضحية براحتها وهدوء بيتها لتوفر الراحة والهدوء لسائر البيوت. نذرت نفسها لرسالتها السامية ذات الغايات الثلاث: تحريم الخمر، تحرير المرأة ومنحها حق الاقتراع، وتحسين قوانين عمل النساء. ذات فلسفة خاصة في نشر أفكارها حيث انتهجت أسلوب الاختلاط بالسكارى والمقامرين عبر التردد على حانات الخمر، وعربات السكك الحديدية، بدلاً من التردد على دور الكتب واللقاء بالمثقفين.

في سنة ١٨٧١م أصبحت رئيسة كلية ايفانستون للسيدات، ولما انضمت هذه الكلية إلى جامعة نورث ويسترن ١٨٧٣م أصبحت فرنسيس عميدة للنساء، لكنها استقالت من هذا المنصب عام ١٨٧٤م لتلتحق بالحركة النسائية المسيحية الأمريكية لتحريم الخمر، حيث انتخبت رئيسة لهذا الاتحاد عام ١٨٧٩م، وبقيت كذلك حتى وفاتها عام ١٨٩٨م. وهي أول المؤسسين للاتحاد النسائي العالمي لتحريم الخمر في عام ١٨٨٣م، وكانت أول رئيسة له. واستطاعت بعد فترة وجيزة القضاء على المعارضة المتنوعة التي تجمعت ضد آرائها الجريئة وسط الحركة النسائية في المجتمع الأمريكي وخارجه. وحققت فعلاً أهدافها حتى رددت وهي على فراش الموت « هناك عمل آخر في العالم الآخر ... ». وتقديراً لجهودها الكبيرة عُينّت رئيسة للمجلس النسائي القومي عام ١٨٨٨م، وهي المرأة الوحيدة التي يقوم تمثالها في بهو التماثيل في الكابيتول.

هكذا تمثل فرانسيس ويلارد شخصية عالمية أخرى، نذرت نفسها لخدمة مجتمعها والبشرية، من خلال التضحية بكل ما لديها من أجل زرع المبادئ التي تؤمن بها، ونشر الأفكار التي تتبناها. ولم يكن طريقها مفروشاً بالورود، وإنما كان مليئاً بأشواك المعارضين لحركتها وأفكارها. ولكنها وبقوّة إرادتها وإيمانها بمبادئها حققت أهدافها ووصلت إلى أعلى مراتب التقدير في مجتمعها والعالم. وهي طبيعة حركة الإصلاح والتجديد في كل زمان ومكان، قوّة في المبادئ والأفكار، وريادة وإبداع في الأشخاص، وثبات وصبر في الواقع والعمل، ثم نجاح للأهداف والغايات. وهكذا هو تاريخ العالم يصنعه الرواد والمبدعون.

*** جان ـ جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨م):**

فيلسوف وكاتب فرنسي. اعتبر أول قادة الحركة الرومنطقية، والمبشّر بالثورة الفرنسية الكبرى، وبنظرية الرجوع إلى الطبيعة. امتهن عدة مهن بسيطة قبل أن يصبح له مكانه المرموق في حقلي الأدب والفكر. له كتابات واعترافات عدة في الحب والرومانسية. له كتاب تربوي رائع وشهير سماه (اميل) اعتبر تمهيداً لثورة فكرية في عالم التربية، تماماً ككتابه (العقد الاجتماعي) الذي اعتبر تهيئة للثورة الفرنسية، وللتغييرات السياسية التي سبقتها والتي تبعتها. دافع في كتابه هذا عن فلسفتين لم يكن المجتمع الفرنسي على معرفة بهما بعد، وهما الليبرالية والديمقراطية. ومن المبادئ التي دافع عنها في هذا الكتاب أن الناس يولدون أحراراً، ولكنهم يعيشون في كل مكان تأسرهم القيود. ولذلك اعتبرت أعماله ذات تأثير مباشر على القوى السياسية التي أحدثت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

*** لودفيج فان بتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧م):**

ولد بتهوفن في بون بألمانيا عام ١٧٧٠م، وعاش حياة مثقلة بالهموم والأحزان. وتوفي عام ١٨٢٧م. وقد قاد بتهوفن ثورة فنية في عصره، واعتبر أول الثائرين على سلبية الموسيقى في عصره. ومع أن طريقه كما يجمع على ذلك المتتبعين لسيرته كان محفوفاً بالأشواك، لكن إخلاصه في ثورته ساعده على تخليص الموسيقى مما كان يكرهه من الزخارف والنعومة الزائدة. وأوجد « لوناً جديداً من الموسيقى التعبيرية الزاخرة بمختلف المعاني الإنسانية النبيلة، حتى باتت موسيقاه حافلة بالمعاني والأفكار. وتعتبر سنفونياته ومؤلفاته العديدة نبعاً ينهل منه كل محب للموسيقى ».

نماذج من جهود الإصلاح الفكري والثقافي في التاريخ الإسلامي والعربي:

*** الإمام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨- ١١١١م):**

هو أبو حامد محمد الغزالي الشافعي، ولد في مدينة طوس في خراسان في حدود عام ٤٥٠هـ. عالم وفقيه ومتصوِّف إسلامي، أحد أهم أعلام عصره، وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي. ودرس الغزالي في صباه على عدد من العلماء الأعلام في طوس وجرجان ونيسابور. تلقى علم أصول الفقه وعلم الكلام على يد أبي المعالي الجويني إمام الحرمين، ولازمه فترة ينهل من علمه ويأخذ عنه حتى برع في الفقه وأصوله، وأصول الدين والمنطق والفلسفة، وصار على علم واسع بالخلاف والجدل. وكان الجويني لا يخفي إعجابه به، فيفاخر به حتى إنه وصفه بأنه « بحر مغرق ». واستطاع الغزالي أن يحقق شهرة واسعة بعد أن ناظر عدداً من الأئمة والعلماء، و أفحم خصومه ومنافسيه حتى اعترفوا له بالعلم والفضل. عين للتدريس بالمدرسة النظامية في بغداد فقصدها في سنة (٤٨٤هـ /١٠٩١م) وقد استُقبل فيها استقبالاً مهيباً من قبل العامة والخاصة.

اشتغل الغزالي كثيراً بعقد المناظرات، ووجّه جهده إلى محاولة التماس الحقيقة التي اختلفت حولها الفرق الأربعة التي سيطرت على الحياة الفكرية في عصره وهي: « الفلاسفة» الذين يدّعون أنهم أهل النظر والمنطق والبرهان، و « المتكلمون » الذين يرون أنهم أهل الرأي والنظر، و« الباطنية » الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالأخذ عن الإمام المعصوم، و « الصوفية » الذين يقولون بأنهم خواص الحضرة الإلهية، وأهل المشاهدة والمكاشفة. وقد بذل الغزالي جهده لتقصي حقيقة الخلاف بين تلك الفرق الأربعة؛ فتعمّق في دراسة أصولها وأدلتها حتى استوعب آراءها، وتمكّن من الرد عليها وتفنيد حججها كلها، وفصّل ذلك كله في كتابه القيم « المنقذ من الضلال ». لكن الغزالي خرج من تلك التجربة بجرعة كبيرة من الشك جعلته يشك في كل شيء حتى مهنة التدريس التي كان يمارسها. وقرر بعد ذلك مغادرة بغداد إلى الشام حيث أقام بها نحو عامين، معتكفا معظم الوقت في مسجد دمشق، ثم انتقل إلى بيت المقدس وانعزل في مسجد الصخرة، في عزلة وخلوة روحية خصصها لمجاهدة النفس و تزكيتها وتهذيب الأخلاق، كما أنجز خلال تلك الفترة تصنيف كتابه الشهير (إحياء علوم الدين).

ثم سافر إلى خراسان ومكث بها عشر سنوات مواظباً على العزلة، متمتعاً بالخلوة وحياة الزهد والتأمل، وتزكية النفس والقلب لطاعة الله وذكره، مع الأخذ بما تيسر له من الرزق مواجهاً مشكلات الحياة بنفس راضية، حتى استطاع خلال تلك الفترة الوصول إلى حقيقة التصوّف التي كان يبحث عنها ويبثها في تلاميذه ومريديه: يقين الصوفية الحقة الذي استمد دعائمه من مشكاة النبوة الصافية وجوهر الإسلام الخالص.ثم عاد الغزالي إلى مسقط رأسه في طوس فبنى بها مأوى للطلاب والصوفية ممن يقصدونه، وظل بها فلم يبرحها حتى توفي في شهر جمادى الآخرة ٥٠٥هـ (ديسمبر ١١١١م)، تاركاً تراثًا صوفيًا وفقهيًا وفلسفيًا كبيرًا، بلغ ٤٥٧ مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، كثير منها لا يزال مخطوطًا، ومعظمها مفقود.

نتيجة لمعايشة الغزالي ذلك الصراع الدائر بين الفرق الدينية المختلفة والتيارات الفكرية المتباينة، فقد شعر أن له رسالة تجاه أمته ومجتمعه، فاهتم بمناظرة أرباب تلك الفرق، والتصدي لهم بمؤلفاته ودروسه كما اهتم بقضايا ومشكلات أمته الأخرى. وبذلك فإن شخصية الغزالي جمعت بين روحانية الصوفية في شفافية الوجدان، وصفاء الإيمان، والعبادة، والزهد في الدنيا، وبين النزعة العقلية العلمية في النظر إلى الأمور الدنيا والدين على حد سواء، وحرية الفكر وشجاعة الرأي.

ومن مؤلفاته في علم الكلام والمنطق والفلسفة التي تظهر غزارة علمه وقوّة حجته وسعيه إلى إظهار الحق كتبه: «المنقذ من الضلال »، و«فضائح الباطنية » و«تهافت الفلاسفة ». كذلك ترك تراثاً فقهياً كبيراً في الفقه و أصوله يدل على تمكنه في هذه العلوم، ومن أهم مؤلفاته الأصولية والفقهية، « المنحول في علم الأصول »، و « البسيط في الفروع »، و « شفاء العليل في القياس والتعليل »، و « تهذيب الأصول »، و « المستصفى من علم الأصول ». و كتابه الكبير «إحياء علوم الدين » الذي يشعر القارئ بأن الغزالي كان موسوعة ومجدداً لعلوم الدين في القرن الخامس الهجري وليس عالماً فحسب، ويتجلى ذلك بوضوح في العنوان الذي اختاره لهذا السفر الكبير « الإحياء ».

ومن آثار الإمام الغزالي منهجه في التربية الخلقية، والذي هدف من خلاله إلى تحقيق بعض الغايات والأهداف التي تؤدي إلى رفع المستوى الروحي والخلقي، والفكري،

والاجتماعي، والسياسي للفرد والمجتمع، ومن تلك الأهداف التي حرص الغزالي على تحقيقها:

١- الكمال الإنساني: وذلك بارتقاء النفس الإنسانية من مجال الحس إلى مجال التفكير، والارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للأهواء والشهوات إلى مقام العبودية لله.
٢- تربية النفس على الفضيلة: وذلك بالتركيز على أساسيات الفضائل، واعتبرها أربعة هي: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل.
٣- تهذيب قوى النفس الإنسانية: وهو يرى أن ذلك لا يعني قمع نزعاتها وغرائزها واستئصالها تماما، فإن ذلك مخالف لفطرة الإنسان؛ لأن الشهوة خلقت ولها فائدة ووظيفة لا غنى للإنسان عنها.
٤- حسن توجيه طاقات الأمة: وذلك بالتأكيد على أهمية حفظ طاقات النفس وتوجيهها للإفادة منها على النحو الأمثل، مؤكداً على الأثر التهذيبي للشريعة الإسلامية في كل من الفرد والمجتمع.
٥- تكوين الشخصية المتوازنة: بالتركيز على المكونات الرئيسة للنفس الإنسانية وهي: العقل والروح والجسم، وينظر إليها باعتبارها كيانا واحدا متكاملا، منوّهاً إلى بعض الأساليب والطرائق التربوية التي تتناول تلك المكونات بشكل متكامل ومتوازن.
٦- إرضاء الله سبحانه وتعالى: بتوخي مرضاته، والحذر من مطامع الدنيا، وإحياء الشريعة في الفرد والمجتمع.

*** محمد علي جناح (١٨٧٦ - ١٩٤٨م):**

ولد في كراتشي ١٨٧٦م في دولة الهند، حيث لم تكن باكستان ولدت بعد على خريطة العالم. أكمل دراسته في بريطانيا وتخرّج محامياً عام ١٨٩٦م من كلية لنكولن، وعاد ليمارس هذه المهنة في مسقط رأسه ثم انتقل إلى بومباي التي عرفته كمحامٍ لامع، وناشط وطني مخلص.

وكان مسلمو القارة الهندية قد استخدموا كل ما لديهم من وسائل الضغط والمقاومة بما فيها المقاومة العنيفة، والمقاطعة للمؤسسات الغربية، وذلك في سبيل تطبيق سياسة الإصلاح التي نادى بها زعماؤهم، والتي فيها تثبيت حقوقهم وحفظ هويتهم وحماية

أوطانهم، ومع ذلك لم تؤدِ تلك الوسائل إلى تحقيق غاياتهم، بل على العكس من ذلك كانت الأمور تسير في غير صالحهم. حتى برز دور محمد علي جناح على المسرح السياسي في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، حيث كان معظم الساسة على قناعة بأنه يمسك بيده مفتاح الحل السلمي لعقدة شبه القارة الهندية، وهو الحل الذي يرشّد اندفاع عامة مسلمي الهند ويوجه عواطفهم. فطالب محمد جناح بتطبيق الوسائل الدستورية، موظفاً دهاء السياسة، وأثر العاطفة الوطنية، وقوة القلم في قيادة مقاومة سياسية عنيدة، تميّزت بحنكة وإرادة حديدية نادرة أدت إلى مواجهة كل الضغوطات والمؤامرات والمحبطات، وولدت على أثرها دولة باكستان الإسلامية في ١٤ أغسطس ١٩٤٧م.

بفضل الجهود والتضحيات التي قدمها هذا الزعيم الفذ، قفل باب أكبر فتنة عرفتها القارة الهندية، وتوحدت جماهير أكثر من مائة مليون مسلم في وطن قومي واحد، وتحت راية دولة واحدة لها كيانها البارز على خريطة العالم كدولة مستقلة، حتى لقّبه شعبه (القائد الأعظم المحبوب)، وشهد له العالم بمن فيهم خصومه بزعامته وريادته. توفي في ١١ سبتمبر ١٩٤٨م أي قبل أن تكمل دولته الفتية عامها الأول.

*** الإمام محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م):**

داعية ومفكر ومصلح إسلامي، عرف بفكره الإصلاحي ودعوته للتحرر من كافة أشكال الاستعمار الأجنبي. وبرغم ما تعرض له من سجن ونفي كان دائم السعي إلى تطوير وإصلاح المجتمع ومؤسساته الدينية والتعليمية والاجتماعية، كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية وغيرها. ولد الإمام « محمد عبده » في عام ١٢٦٦هـ – ١٨٤٩م. وتلقى بداية تعليمه الديني واللغوي في عدد من الجوامع وعلى يد بعض العلماء. ثم انتقل إلى الدراسة في الأزهر في عام ١٨٦٥م، وتلقى في هذه الجامعة العلمية والدينية القيمة علومه الدينية واللغوية حتى تخرّج فيها بحصوله على شهادة العالمية عام ١٨٧٧م.

انفتح محمد عبده على العلوم والتجارب الأخرى، وكان لعدد من الشخصيات أثرها الفعلي على حياته. ومن أهم تلك الشخصيات جمال الدين الأفغاني الذي ربطته به صداقة قوية مبعثها الدعوة للإصلاح. قال الشيخ محمد عبده في مذكراته: « وقد صاحبته وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكيمة أي (الفلسفية) والكلامية، وأدعو الناس إلى

التلقي عنه كذلك »، وكان أبرز آثار جمال الدين الأفغاني على شخصية العلامة محمد عبده أثره في توجيهه إلى النهوض بمجتمعه علميا وأدبيا واجتماعيا ووطنيا، لذلك وبعد حصوله على الشهادة العالمية عين مدرسا بالأزهر، ثم عين في مدرسة دار العلوم ثم فصل منها بسبب اتصاله بجمال الدين الأفغاني، حيث كانت الحكومة تعتبر آراءه مناهضة لها. وعكف الشيخ محمد عبده على دراسة اللغة الفرنسية وتعلمها، وكان يقول: « من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوربية لا يعد عالما في هذا العصر ». وقد سافر إلى أوربا وكان له انطباع أبداه في بعض ما سجله في مقارنة بين المسلمين والغرب، حين قال عن الغرب: « وجدت مسلمين ولم أجد إسلاما، وفي الشرق وجدت إسلاما ولم أجد مسلمين »، وذلك بسبب ما كان عليه الأوربيون من إتقان للعمل وإخلاص فيه، فأخذوا مبادئ الإسلام التي تحث على إحسان العمل بينما أهمل المسلمون ذلك.

عمل محمد عبده في الدعوة للإصلاح ونشر التنوير والعلم بالتدريس في العديد من الأماكن، منها الأزهرْ الذي قام بتدريس المنطق والفلسفة والتوحيد فيه، ودرّس في دار العلوم مقدمة ابن خلدون، كما قام بالتدريس في مدرسة الألسن. كذلك ألف كتاباً في علم الاجتماع والعمران، كما قام بكتابة عدد من المقالات في عدد من الجرائد، مثل جريدة الأهرام. وتعيّن في جريدة الوقائع المصرية، حيث تولّى مهمة التحرير والكتابة في القسم الخاص بالمقالات الإصلاحية الأدبية والاجتماعية.

في الاتجاه الإصلاحي يذكر الدكتور أحمد عمر هاشم أن الإمام محمد عبده كان ينتمي إلى تيار المحافظين الذين يرون أن الإصلاح يكون من خلال نشر التعليم بين أفراد الشعب، والتدرج في الحكم النيابي، وكان سعد زغلول أيضاً من مؤيدي هذا التيار، وهو عكس التيار الذي يدعو للحرية الشخصية والسياسية، مثل المنهج الذي تتبعه الدول الأوروبية، وكان من مؤيدي هذا التيار « أديب إسحاق » ومجموعة من المثقفين الذين تلقوا علومهم في الدول الأوروبية.

قامت الثورة العرابية في عام ١٨٨٢م وكان محمد عبده من مؤيديها فتم القبض عليه، وحكم عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات. حيث مكث في بيروت قرابة العام، انتقل بعدها إلى باريس ليكون بالقرب من أستاذه وصديقه جمال الدين الأفغاني حيث قاما معاً بتأسيس جريدة « العروة الوثقى »، ولكن هذه الجريدة لم تستمر كثيراً، حيث أثارت المقالات التي

كانت تكتب بها حفيظة الإنجليز والفرنسيين، خاصة وأنها كانت تتضمن مقالات تندد بالاستعمار، وتدعو للتحرر من الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله، فتم إيقاف إصدارها. عاد مرة أخرى لبيروت و قام بتأليف عدد من الكتب، والتدريس في بعض مساجدها ومدارسها، وشارك بكتابة بعض المقالات في جريدة « ثمرات الفنون »، وقام بشرح « نهج البلاغة » و « مقامات بديع الزمان الهمذاني ».

بعد ست سنوات قضاها في المنفى صدر العفو عن محمد عبده فعاد إلى مصر، ليواصل رسالته الإصلاحية في المؤسسات الإسلامية ومحاولة النهضة بالتعليم وتطويره. وعين محمد عبده قاضياً أهلياً ثم مستشاراً في بعض المحاكم المصرية. بعد وفاة الخديوي توفيق عام ١٨٩٢م، تولى الخديوي عباس الحكم وحاول محمد عبده تحقيق حلمه في الإصلاح والتطوير للأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية، من خلال توطيد علاقته بالخديوي عباس، وعندما تم تشكيل مجلس إدارة الأزهر برئاسة الشيخ « حسونة النواوي » عين محمد عبده عضواً فيه، ثم بعد ذلك أصبح مفتياً للبلاد. إلاّ أن علاقته بالخديوي عباس لم تستمر طويلاً وازدادت سوءاً على مر الأيام، وأخذ الخديوي يكيد لمحمد عبده ويعمل على تشويه صورته في الصحف وأمام الشعب، وأدى هذا الأمر بالشيخ في نهاية الأمر بتقديم استقالته من الأزهر عام ١٩٠٥م، وبعد ذلك اشتدت معاناته مع المرض حتى كانت وفاته بالإسكندرية في يوليو ١٩٠٥م.

إضافة إلى جهوده الإصلاحية المتنوعة ومؤلفاته ومشاركاته العديدة التي أشير إليها أعلاه، قام محمد عبده بكتابة وتأليف وشرح عدد من الكتب، منها « رسالة التوحيد »، وتحقيق وشرح « البصائر القصيرية للطوسي »، وتحقيق وشرح « دلائل الإعجـاز » و« أسرار البلاغة » للجرجاني، وكتاب « الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » وفي هذا الكتاب قام الإمام محمد عبده بإجراء مقابلة بين الإسلام والمسيحية وأثرهما في العلم والمدنية، وتقرير إصلاح المحاكم الشرعية سنة ١٨٩٩ م. هذا وقد درس العديد من الكتاب والباحثين والصحفيين شخصية محمد عبده وآراءه الإصلاحية من خلال كتبهم وأبحاثهم ومقـالاتهم المختلفـة منهـا: كتـاب « محمد عبده » تأليف محمود عباس العقاد، كتاب « رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده » من تأليف عثمان أمين، وكتاب « الإ مام محمد عبده في أخباره وآثاره » تأليف رحاب عكاوي، وغيرها من الكتب.

*** محمد إقبال (١٨٧٧ - ١٩٣٨م):**

ولد محمد إقبال سنة ١٨٧٧م وتعلم في مدرسة إنجليزية، تعرف إلى أستاذ يتقن الفارسية ففرس في نفسه حب الثقافة والإسلام، إلى جانب إلمامه بثقافة العصر، وسافر إلى لاهور فالتحق بكليتها ليتقن الإنجليزية والعربية، فأتقنهما ونال وسامين علميين. أخذ يتصل بعدد من رجال التعليم فأفاد منهم كثيرا، وأخذ ينظم الشعر بالفارسية فلفت الأنظار إليه، وأصبح أديبا شهيرا. ثم نال درجة الماجستير في الفلسفة، وتعين أستاذاً بكلية لاهور ثم بكلية الحكومة.

في سنة ١٩٠٥ سافر إقبال إلى لندن فدرس الفلسفة والاقتصاد بجامعة كامبردج، ولم ينس رسالته الدينية، فأخذ يلقي محاضرات في موضوعات إسلامية متنوعة أسهمت في تغيير نظرة ومفاهيم كثير من الإنجليز عن الإسلام. نال درجة الدكتوراه من جامعة ميونيخ بألمانيا في الفلسفة، ثم رجع إلى لندن حيث أدى امتحاناً في الحقوق والاقتصاد. صار أستاذا صاحب رسالة ومنهج في العلم، ومفكرا مهتما بشؤون الإسلام والمسلمين. وكان كثير الانشغال بأحوال العالم الإسلامي إضافة إلى حالة المسلمين بالهند، لذلك ندد بفظائع إيطاليا بطرابلس، وتألب الغرب على تركيا في البلقان. نشر كثيراً من القصائد الحماسية حتى سمي بشاعر الإسلام الأول في عصره. ظل إقبال يواصل نشر أفكاره سياسيا، ويؤلف الكتب الفلسفية والدينية بالإنجليزية والفارسية، ويمثل المسلمين في المؤتمرات السياسية شرقا وغربا، ويدعو إلى إنشاء دولة إسلامية حتى لقي ربه عام ١٩٣٨م.

عن آراء واتجاهات إقبال الفكرية يقول الدكتور محمد رجب البيومي (أستاذ الأدب والنقد وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر): لقد كانت إقامته في أوروبا ذات أثر قوي في اتجاهه، لا لأنه اقتنع بما يجري بها من تيارات منحرفة، بل لأنه أحس في أعماقه بأن ما تدعو إليه من القومية هو الذي فتن أبناء المسلمين ممن يتعلمون بأوروبا، وصرفهم عن عالمية الإسلام وإنسانيته. وكانت له قصائد رائعة في المطالبة بتوحيد المسلمين، وإصلاح أوضاعهم، وتخليص بلدانهم من الاحتلال والاستعمار. من تلك القصائد قصيدته في رثاء صقلية المسلمة حين مرّ بها، وهتافاته بمجد الحجاز، ورسالة مكة وصرخة الألم أمام قبر رسول الله ﷺ حين وقف أمامه يبكي حاضر العالم الإسلامي، متحسراً على ذهاب ماضيه. ومن أحسن ما قاله في هذا الصدد قصيدته الشهيرة « منارة الساري » التي

تحدث فيها الشاعر بلسان الخضر عن مشاكل السياسة الأوروبية وفظائعها الاستعمارية، وحذر المسلمين من آثارها. كما ترك عشرين كتابًا في مجال الاقتصاد والسياسة والتربية والفلسفة والفكر إضافة إلى عدد من الكتابات المتفرقة كالرسائل التي كان يبعث بها إلى أصدقائه أو أمراء الدول، ذلك إلى جانب روائعه من الشعر، والتي استحق أن يسمى بسببها (شاعر الإسلام). وكان وثيق الصلة بأحداث المجتمع الهندي حتى أصبح رئيسا لحزب العصبة الإسلامية في الهند، ثم العضو البارز في مؤتمر حيدر أباد التاريخي، حيث نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس، ورأى تأسيس دولة إسلامية اقترح لها اسم باكستان.

وصدق الدكتور طه حسين، حينما قال عن إقبال إنه: « رفع مجد الآداب الإسلامية إلى الذروة، وفرض هذا المجد الأدبي الإسلامي على الزمان »، هذا وغنّت له أم كلثوم إحدى قصائده وهي « حديث الروح ».

*** العلامة المحقق سعيد بن خلفان الخليلي (١٢٣٠ - ١٢٨٧هـ):**

هو الشيخ المحقق سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلي، من علماء عمان، ونسبه يلتقي بـ (الإمام الصلت بن مالك الخروصي. ولد سنة ١٢٣٠هـ في بلدة بوشر من ضواحي العاصمة مسقط. وفي فترة صباه درس الفقه والحديث وعلم الأسرار (أو الروحانيات) على يد شيخه ناصر بن جاعد بن خميس الخروصي، حيث كان الشيخ سعيد مولعاً بعلم الروحانيات والخلوات الإلهية.. ويقال عنه: إنه دخل خلوة بأسماء الله الحسنى كلّها وهي تسعة وتسعون اسما فتحصّل له أسرار هذا العلم الرباني، وقد نظم في ذلك منظومتين وصف فيهما تسبيحه وتبتّله لله ﷻ. كان المحقق الخليلي وجهة المعلمين والعلماء في عصره.. وكان المقصود في الفتاوى وحل المشاكل العلمية العويصة.. وقد أطلق عليه الشيخ العلامة نور الدين السالمي لقب (المحقق الخليلي)، وفي عهد الإمام عزان بن قيس أصبح هو المستشار السياسي للإمام وموجهه.

توفي في شهر ذي القعدة من عام ١٢٨٧هـ، بعد قيامه بدور بارز في تجديد علوم الدين في المجتمع العماني وفي فكره وثقافته. استمر أثره عبر مؤلفاته وتلامذته الذين أخذوا عنه العلم، وأصبحوا علماء عصرهم من بعده، وكان لهم دور بارز في التجديد العلمي

والفكري والثقافي في عمان. من هؤلاء خميس بن راشد العبري (ذو الغبراء) وابنه ماجد بن خميس العبري ومحمد بن سليم الغاربي وصالح بن علي الحارثي وجمعة بن خصيف الهنائي وعبد الله بن راشد الهاشمي وعلي بن محمد المنذري (من علماء زنجبار) والشيخ السعدي (مؤلف كتاب قاموس الشريعة). كذلك كان للمحقق الخليلي دور مهم في نبذ البدع والشبهات عن الدين الحنيف، وتوضيح أحكامه ومبادئه السمحة. كذلك كان اهتمامه بعلوم اللغة العربية واضحاً في دروسه ومؤلفاته وتلامذته. انتهج منهج تحقيق المسائل وتمحيص الأدلة، باحثاً عن الحقيقة في مضانّها، منفتحاً على مصادر وفقه المذاهب الإسلامية الأخرى. له عدة مؤلفات تتنوع بين النثر والشعر ومنها (لطائف الحكم في صدقات النعم)، و كتاب(كرسي الأصول)، وكتاب (تمهيد قواعد الإيمان) في أربعة أجزاء من الحجم الكبير. وكتاب (النواميس)، و كتاب (قصائد في السلوك والحماسة). ومن مؤلفاته في علوم اللغة العربية نظم (ألفية) في علم الصرف، على غرار ألفية ابن مالك في النحو، ثم شرحها في كتابه (مقاليد التصريف)، وله كذلك ديوان شعر معنون باسمه. وهناك دراسات علمية وأبحاث تحليلية أجريت حول سيرته وشعره وآثاره الأدبية والثقافية والاجتماعية، كما أقيمت عدة ندوات للاحتفاء بشخصيته ومآثره، صدرت بها كتب منشورة من قبل أكثر من جهة، من بينها المنتدى الأدبي بسلطنة عمان.

*** العلامة نور الدين السالمي (١٢٨٦هـ/١٨٦٨م - ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م):**

هو العلامة المحقق الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد بن سلوم بن عبيد بن خلفان بن خميس السالمي، ولد ببلدة الحوقين من ولاية الرستاق العمانية عام ١٢٨٦هـ. يكنى بأبي محمد وكذلك بأبي شيبة نسبة إلى أكبر أبنائه محمد بن عبدالله السالمي الذي كان يلقب بالشيبة. أما والده فهو الشيخ حميد كان ذا فضل وعلم وتقوى. كانت بداية تعلمه في مسقط رأسه الحوقين، حيث تعلم مبادئ الدين الحنيف وعلوم اللغة العربية، كما حفظ القرآن الكريم على يد والده.

ونتيجة خلاف قبلي نشب بين قبيلته وقبيلة أخرى هاجرت قبيلة الشيخ تاركة الحوقين إلى بلدة (الخبة) من بلدان الباطنة، فلبث بها الشيخ فترة من الزمن، ثم ارتحل إلى الرستاق موطن العلم والعلماء حينئذ. وهناك وجد الشيخ السالمي ضالته، وبدأ ينتقل بين علمائها الكبار كالشيخ راشد بن سيف اللمكي الذي كان يدرّس في مسجد قصرى. ولما

بلغ الشيخ اثني عشر عاما فقد بصره، ولكن الله عوضه ببصيرة متوقدة، وحافظة جبارة تحفظ كل ما تسمع. سرعان ما لاحظ الشيخ اللمكي وغيره من المشايخ على السالمي علامات النبوغ، و سرعة الفهم وقوة الذكاء، والحفظ الغريب، فأعجب به الشيخ وبدأ يقدمه على زملائه. ورآه مرّة يقرأ في كتاب لامية الأفعال فأخذ الاستغراب من الشيخ مأخذه، وقال له: كيف تقرأ ما لا تفهمه؟ فقال: إنني أفهمه وأستطيع أن أشرح ما قرأت، فلما شرح له، استغرب أكثر من ذي قبل. وهكذا أخذ السالمي يتنقل بين جنبات الرستاق العامرة بالعلماء حتى أصبح ممن يشار إليهم. وهناك بدأ بالتأليف وهو ابن سبعة عشر عاما، وكان ذلك عام ١٣٠٥هـ، كما يقول ذلك في إحدى تأليفاته.

كان العلامة نور الدين السالمي وهو بالرستاق يسمع عن الشيخ العالم صالح بن علي الحارثي، أحد أقطاب عمان في ذلك العصر، فأعجب بسيرته، فشد رحله إليه سنة ١٣٠٨هـ. أعجب الشيخ الحارثي بالسالمي وطلب منه أن ينتقل ليسكن بجواره، فوجد الشيخ ضالته، وأقام في القابل بلد الشيخ الحارثي متعلما ثم مدرّساً، فألّف وعلّم وخرج على يديه عدد من أبرز علماء عمان الذين ذاع صيتهم، وكان لهم دور علمي وفكري واجتماعي بارز. وفي سنة ١٣١٤هـ توفي الشيخ صالح بن علي الحارثي فكان لوفاته الأثر الكبير على العلامة السالمي، الذي كان عليه أن يتحمّل تبعات كبيرة من شئون المجتمع والتعليم والإصلاح التي كان الشيخ الحارثي يعينه عليها. وفي عام ١٣٢٣هـ سافر لأداء فريضة الحج، وهناك التقى بعدد من علماء الإسلام من مختلف المذاهب وتناقش معهم فيما يتعلق بأمور المسلمين وإصلاح أحوالهم. وفي رحلته تلك اطلع على كثير من علوم الحديث، واقتنى كثيراً من كتبها، مما لم يكن متاحاً له في عمان. عندما عاد إلى عمان واصل مسيرة نشر العلم وتنوير الفكر، وقام بدور سياسي واجتماعي بارز في سبيل إصلاح المجتمع، مستعيناً بالكم الكبير من الكتب والمصادر التي أحضرها معه من رحلة الحج. وافاه الأجل المحتوم عام ١٣٣٢هـ الموافق ١٩١٤م.

لقد كانت سيرة العلامة السالمي منار تجديد فكري وديني واجتماعي في عمان والوطن العربي، وكانت فترة حياته فترة حراك اجتماعي وثقافي. وهذا ما جعل فقهاء عمان ومؤرخيها يطلقون عليه لقب « المجدد »، ولقب « نور الدين » وهو اللقب الأكثر شهرة. فسيرته ومنجزاته غير خافية على معظم العمانيين ومثقفي الوطن العربي. فالآثار العلمية

والثقافية لهذه الشخصية الفذة ودورها الحضاري ماثلة لكل معني بالعلم والثقافة والفكر والتجديد في هذا الوطن وغيره. قال عنه محمد أمين عبدالله: « وقد ألف السالمي أكثر من اثنين وعشرين كتاباً ... » كما كان لهذا العالم نشاط سياسي ملحوظ ... ولابد من وضع هذه الخلفية المتميزة في الاعتبار عند دراسة أو تقويم أفكاره وأعماله، والتي كانت في معظمها ترمي إلى غاية واحدة، هي بعث وتعميق الروح القديمة للشريعة الإسلامية بين العمانيين ... فقد كان أدق عالم في نظر كاتب هذه الرسالة.

وإضافة إلى ما أشرنا إليه أعلاه من آثاره وتلاميذه، ومع أنه لم يُمد له في العمر، إذ كانت فترة حياته قصيرة (حوالي ٤٧ سنة) إلاّ أن حجم مؤلفاته وآثاره ومنجزاته سواءً على مستوى العلم والفكر أم على مستوى الوطن والأمة، ليدعو إلى الاستغراب من المواهب والقدرات التي حباها الله ﷻ هذا العالم الجليل، و الإرادة والعزيمة التي تحلى بها. وهنا نعرج إلى ذكر بعض مؤلفاته والتي تنوعت بين عدد من العلوم، وتوجهت إلى شرائح عمرية، و فئات مختلفة من أهل العلم وطلابه. وأهمها ما يلي:

في الحديث الشريف: شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب (ثلاثة أجزاء).

في العقيدة وأصول الدين: مشارق أنوار العقول، بهجة الأنوار ، غاية المراد في الاعتقاد .

في أصول الفقه: كتاب طلعة الشمس (جزأين).

في الفقه : معارج الآمال شرح مدارج الكمال، الحجج المقنعة في أحكام صلاة الجمعة، جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، تلقين الصبيان، العقد الثمين في فتاوى الإمام نور الدين .

في اللغة العربية: شرح بلوغ الأمل في المفردات والجمل، المنهل الصافي في العروض والقوافي

في التاريخ: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، اللمعة المرضية في أشعة الإباضية.

*** الأديب الفقيه أبو مسلم البهلاني (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م -١٣٣٩هـ/١٩٢٠م):**

هو الشاعر الفقيه ناصر بن سالم بن عديم بن صالح بن محمد البهلاني الرواحي العماني، ينحدر من سلالة عريقة النسب، حيث كان جده عبدالله بن محمد البهلاني قاضياً في أيام دولة اليعاربة على وادي محرم ، كما أن أباه الشيخ سالم بن عديم البهلاني

كان قاضياً للإمام عزان بن قيس الذي كان إماماً لعمان سنة ١٢٨٥هـ - ١٢٨٧هـ . ولد الشاعر سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م في قرية وادي محرم، وهي من قرى ولاية سمائل العريقة، التي اشتهر أهلها بالعلم والشعر والأدب، والتي خرج منها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء.

نشأ محباً للشعر والأدب وطلب العلم، فكانت عنايته بطلب العلم فائقة منذ صغره، ودرس على يد عدد من علماء عمان وأدبائها. غادر إلى شرق أفريقيا زنجبار سنة ١٢٩٥هـ في عهد السلطان برغش بن سعيد سلطان زنجبار ، حيث كان والده سالم بن عديم البهلاني قاضياً للسلطان المذكور في زنجبار. بقي الشاعر في زنجبار خمس سنوات، ثم رجع إلى عمان سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م ثم عاد إلى زنجبار مرة ثانية سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م، فقضى فيها بقية حياته.

وفي جو يسوده الرعاية والاحترام الذي أحاطه به سلاطين زنجبار، وخاصة في عهد السلطان حمد بن ثويني والسلطان حمود بن محمد بن سعيد ومن بعدهما ، وفي تلك الربوع الهادئة عكف الفقيه الأديب أبو مسلم على المطالعة وقراءة نفائس الكتب الفقهية والأدبية، حتى نبغ في علوم العربية وفي الشعر والأدب وفي العلوم الشرعية. إلاّ أن نبوغه في الشعر كان أظهر، ومتناولاً أغراض شعرية متنوعة كالمديح والرثاء والغزل، وذكر المعاهد والاستنهاض والسلوك. علماً بأنه كان معروفاً بالزهد وعفة النفس، وكان لا يستجدي بشعره، وإنما كان مدحه لحكام زنجبار وللأئمة نابعاً عن إخلاص وعاطفة صادقة؛ لما كان يشاهده منهم من خصال حميدة، ومساندة للحق والخير. ولقد تقلد منصب القضاء في زنجبار، ثم وُلّي رئاسة القضاء بها.

والذي تجدر الإشارة إليه هنا، هو دوره البارز في الأدب والشعر العربي، و توجهات التجديد الفكري والثقافي والاجتماعي، التي كان يعمل على تحقيقها في مجتمعه وأمته. وكعلامة على نبوغه وأخذه بأدوات العصر؛ أدرك أثر الصحافة والإعلام، واشتغل بمتابعته الأحداث الجارية على مستوى العالم في عصره، مما أتاح له المجال لتناول تلك الأحداث بقلمه الأدبي الرفيع. وسعى إلى تحرير أول صحيفة عمانية، هي صحيفة النجاح ١٩١١م ، التي فتحت المجال أمام مشاركات عمانية عديدة ، حيث تبعتها صحف: (الكفاح، ١٩٢٨م) و (الفلق ١٩٢٩م) و (النهضة ١٩٥١م) و (المرشد عام ١٩٥٣م).

وقد أخذ عنه العلم كثير من الطلبة والباحثين، حتى أن الشيخ مكلا برهان القمري وهو من علماء جزر القمر ذكر أنه درس علوم العربية على يد الشيخ أبي مسلم مع مجموعة من طلاب العلم وقد أشاد الشيخ القمري بشيخه أبي مسلم وأثنى عليه أحسن الثناء. وزامن أبو مسلم البهلاني الشاعرين المصريين : أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وكانت بينه وبين أحمد شوقي مراسلات شعرية، ومن شعراء عمان زامن خميس بن سليم، والشاعر محمد بن شيخان السالمي (شيخ البيان) ، والشاعر المر بن سالم.

توفي الشيخ الشاعر أبو مسلم الرواحي في زنجبار في شهر صفر ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م ، بعد حياة حافلة بالتجديد والعطاء الفكري والاجتماعي، تاركا تراثاً يزخر بفقه شرعي غني، وأدب عربي رفيع. ومن أهم مؤلفاته: « نثار الجوهر » وهو شرح لكتاب جوهر النظام للإمام السالمي، والنشأة المُحمدية، والنُور المحمدي، والنفس الرحماني، وكتاب السُؤالات، والعقيدة الوهبية، وكتاب في التوحيد، و حوار بين أستاذ وتلميذه، وديوان شعر باسم « ديوان أبي مسلم البهلاني »، والذي طبع حتى الآن خمس طبعات، وهو زاخر بالشعر الرصين والقصائد البليغة، والأشعار الرائعة، يدل على تمكنه من ناصية اللغة والبيان.

يلاحظ على أبي مسلم أنه يسترسل في قصائده، حتى يخيل إلى القارئ أنه إذا بدأ قصيدة فإنه لن ينتهي منها، لتدفق موهبة الشعر عنده؛ فقصيدته في الذكر بلغت مائة ألفاً وخمسمائة بيت، وقصيدته النونية المشهورة (بقصيدة الفتح والرضوان في السيف والإيمان) بلغت ما يقارب أربعمائة بيت، وقل أن تجد له قصيدة تقل عن مائة بيت. ومع أن شعره غلبت عليه النزعة الدينية فتجد له قصائد في الذكر والمواعظ، وفي الغيرة على الإسلام والمسلمين، ودعوتهم إلى الوحدة وعدم التفرق، إلاّ أن آثار التجديد في الفكر والأدب فيه واضحة للعيان. فشعره يتميز بالوضوح والسهولة والانسجام والبعد عن التعقيد والإلتواء لذلك نجده بعيداً عن الغرابة أو التنافر، ويكثر في قصائده التصوير الخيالي، فهو لا يتقيد بالصور القديمة، بل إن التجديد فيه واضح لما يتمتع به من تميز وإبداع. فهو يتعرض في شعره إلى أحداث جارية ويظهر موقفه، ومن ذلك نجد له قصائد في التحسر على أوضاع المسلمين وتفرق كلمتهم، دعاهم فيها إلى الوحدة واتباع سنة الرسول ﷺ، ومن ذلك قصيدته المعنونة بـ (أفيقوا بني القرآن)، والقصيدة المسماة (المقصورة) والتي عارض فيها مقصورة ابن دريد الشهيرة، وقد ضمنها أسفه على وضع المسلمين، ودعوته لهم للنهوض ضد الاستعمار.

واحتل أبو مسلم البهلاني مكانا مميزا بين شعراء عصره في عمان، و لقي شعره إعجاب الكثيرين وذاع عبر وسائل مختلفة: مكتوبة ومسموعة، وتعددت المخطوطات، وربما بلغت كما يذكر بعض الباحثين أكثر من سبعة عشر مخطوطة. ولا يزال كثير من الناس يحفظون ويرددون أبياتا من أشعاره، وخاصة من قصيدته النونية، التي مثّلت كما يقول بعضهم ملحمة عمان الكبرى كنونية عمرو بن كلثوم عند بني تغلب في الأعصر العربية البعيدة، مع الفارق أن تلك لقبيلة واحدة وهذه لشعب بكامله.

ولم يكن هذا الاحتفاء بالشاعر مقصورا على أبناء جيله، فقد امتد بعد ذلك لدى الأجيال اللاحقة. حيث احتفت به مؤسسات وجهات رسمية وأهليه، من بينها وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان التي خصصت ندوة كاملة للاحتفاء بذكرى الأديب الفقيه في عام ١٩٩٨م شارك فيها عدد من الكتّاب والباحثين، ثم صدر كتاب يحوي مضامين الندوة وفعالياتها. كما امتد الاحتفاء بهذه الشخصية المؤثرة إلى أبناء هذا الجيل الذين وظفوا معطيات العصر الحديث لنقل قصائد البهلاني الوطنية ، وقدمت الأشرطة السمعية فرصة غالية لمن يريد أن يستمع الى تلك القصائد في أي زمان ومكان ، وهي مسجلة بأصوات مشهورة بجمال إلقائها حسب الطريقة العمانية المشهورة في التغني بالشعر.

وقفة:

لقد قصدنا في هذه الورقة الوقوف بشكل أطول مع نماذج للشخصيات الإصلاحية في التاريخ العربي والإسلامي الحديث، بما فيهم نماذج الشخصيات العمانية، وذلك لقرب عهد هذه الشخصيات بالثورة المعرفية والمعلوماتية التي يشهدها العالم، والتي أدت إلى ظهور مفهوم وواقع مجتمع المعرفة، إضافة إلى قرب انتماء هذه الشخصيات إلى بيئة ومنطلق هذه الندوة بكونها تنتمي إلى الفكر والثقافة الإسلامية. ومن جانب آخر؛ لإظهار أن تاريخ هذه الأمة بما فيها التاريخ المعاصر شهد ولا يزال يشهد محاولات تجديد وإصلاح جادة، سواءً في البعد الديني أم الفكري، أم الاقتصادي والسياسي أم غيرها من الأبعاد والمجالات. وإذًا لا تقتصر محاولات التجديد والتغيير على الأمم والشعوب الأخرى، وإنما كان لرواد الفكر ودعاة التجديد في الأمة العربية والإسلامية دورهم البارز في مسيرة التجديد والتغيير. لكن من الإنصاف القول أن نظراءهم من الأمم الأخرى أتيحت لهم

بيئة ثقافية بحرّيّة أكثر، وإمكانات وحقوق معنوية ومادية أكبر، مما لم يتوفر في المجتمعات العربية والإسلامية التي كانت حتى وقت قريب تعيش تحت الاستعمار، الذي كان يستنزف مختلف طاقاتها البشرية والطبيعية والمادية، كما تمزقها حالياً الخلافات والتباينات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن النماذج التي تم تناولها من شخصيات وتجارب وجهود التجديد الفكري والثقافي في التاريخ الإنساني والإسلامي والعربي، لا تعني بالضرورة أنها الأمثل (فيما عدا دعوات الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ فهي الأمثل والأكمل)، إذ لا شك أن هناك شخصيات لها دور وجهود مماثلة، أو أكبر من تلك التي ذكرت لعدد من النماذج التي تم تناولها في هذه الورقة. لذلك ذكر هذه النماذج لم يكن عن تفضيل أو تمييز لها عمّن هي في مستواها من الريادة والإنجاز.

مجتمع المعرفة والتنمية البشرية:

إن ما تم استعراضه من جهود الإصلاح والتجديد الفكري والثقافي، سواءً على مستوى الأنبياء ورسالاتهم، أم على مستوى التاريخ الإنساني القديم والحديث، أم على المستوى الإسلامي والعربي قامت في معظمها على تغيير الواقع إلى ما هو أفضل وأنفع وأكرم لحياة بني البشر. وفيما عدا دعوات الأنبياء لم يكن لأي من تلك الجهود والتجارب ضماناً بتحقيق أهدافها والوصول إلى غاياتها. فدعوات الأنبياء هي التي كانت مؤيدة بالوحي وموعودة بالنجاح والنصر، أما بقية التجارب والجهود فقد قامت وفق ظروف طبيعية، ووسط كثير من الصعوبات والتحديات، وقد كانت عرضة للفشل بالقدر الذي كانت به عرضة للنجاح، ومع ذلك لم تُثن تلك الظروف القاهرة، وعدم توفر الضمان بالنجاح وبلوغ الغايات، أصحاب تلك التجارب الإصلاحية عن مسيرة التجديد والتطوير، ولم تتسبب في إحباطهم أو تراجعهم إلى الوراء، ومن أصابه شيء من ذلك توقفت حركته وماتت تجربته.

وعليه فالعامل الأبرز وهو في الوقت ذاته القاسم المشترك في تلك الجهود والتجارب الإصلاحية هو وجود شخصيات فذة، ذات مستوى متفرد من القدرات والإمكانات، ولديها الإرادة والاستعداد للبذل والتضحية. وهذا العامل يبرز أهمية دور الفرد في المجتمع، وفي مسيرة التجديد والتطوير أياً كان نوعها، وعلى وجه الخصوص مسيرة التجديد الفكري والثقافي والاجتماعي، كما تبرز ضرورة التنمية البشرية بجميع أبعادها. وهذا المعطى

هو أحد الأسس الرئيسة لمجتمع المعرفة المعاصر، وفي الوقت نفسه هو هدف وغاية هذا المجتمع. وفق العبارة التي اصطلح عليها منظرو التنمية والاقتصاد « الإنسان هو عماد التنمية وهو هدفها وغايتها ». ولذلك يعتبر مجتمع المعرفة فرصة تاريخية نادرة لإحداث نقلة نوعية في حياة الإنسان والجماعات والأمم، وذلك لأنه:

- يضع المعرفة على اختلاف أنواعها في قلب المعادلات، ويبني عليها رؤيته وأهدافه المستقبلية.
- يضع الإنسان فاعلاً رئيساً في هذا المجتمع، فهو من جانب يعتبره مصدر الإبداع المعرفي والفكري والإنتاجي، ومن جانب آخر يجعله هدفه وغايته.

يؤسس لنهضته وحركته وفق مبادئ وحقوق إنسانية اصطلح عالم اليوم على احترامها.

إن مجتمع المعرفة المعاصر يتأسس بشكل راسخ ومتين حين ينبني على المعرفة الدقيقة والهادفة، ويبعث في أفراده الاطمئنان، كما يوفر لهم مستوى من العيش الكريم والسعادة، لأنه يحفظ لهم حقوقهم المعنوية والمادية، وفي الوقت نفسه يحفزهم نحو الإبداع و التنافس الشريف. إن الأبعاد التي يشملها مجتمع المعرفة متداخلة ومتشابكة إلى حد بعيد.ولقد تم التعرض لها في الأوراق الأخرى في هذه الندوة. نذكر منها على سبيل المثال: البعد الاقتصادي، والبعد التكنولوجي، والبعد الاجتماعي، والبعد التربوي والتعليمي، و البعد الثقافي، و البعد السياسي.

وإضافة إلى ما تم ذكره من الفوائد والعبر المستفادة من سير الأنبياء والرسل - عليهم السلام - في توجيه البشرية وقيادتها نحو الخير والسلام والعيش الكريم، وكذلك النتائج المستقاة من تجارب الشخصيات التي تم التعرض لها ودورها الحضاري في توجيه مسيرة التجديد الفكري والثقافي في مجتمع المعرفة، فإن مجتمعاتنا العربية إذا أرادت أن يصدق عليها مفهوم مجتمع المعرفة المعاصر، وأن تسير وفق منطلقاته ونحو تحقيق رؤيته وغاياته، فلا بد لها من تبني الأسس التي انبنى عليها مجتمع المعرفة في الدول المتقدمة، وأن تتحمّل تبعات ومسئولية هذا التحوّل، وأن تضحي بما يتطلبه من تضحيات سواءً على مستوى الفرد أم المجموعات أم الدولة أم المؤسسات.

لذلك لا بد لمجتمعنا العربي أن يعمل بداية على صياغة رؤيته وأهدافه لمجتمع المعرفة وأن تكون هذه الرؤية مدعومة بإرادة سياسية واجتماعية، وأن تتوفر لها الإمكانات البشرية

والمادية اللازمة. فهناك عوامل وعوائق تعرقل تشكيل مجتمع المعرفة بمفهومه المتطوّر، وإن وجدت بعض أشكاله في الواقع. هناك نواقص وظروف لا تزال تعترض طريق التجديد الفكري والثقافي في منطقتنا. تعرضنا لبعضها في ثنايا هذه الورقة، وربما تعرضت لها الأوراق الأخرى المعروضة على المؤتمر، ولعل أهم ما أشرنا إليه هنا هو الواقع المعيش في مجتمعاتنا الذي ألف التقليد والتبعية للموروثات القديمة، والركون إلى ديمومة الأحوال على ما هي عليه دون حاجة إلى تغيير، إما لتخوّف من المجهول، أو لعدم التأهل والاستعداد؛ أو لأنه استساغ اليأس لكثرة المحبطات التي اعترته وتعتريه. و تبعاً لهذا الوضع نجد مجتمعاتنا العربية تتحفظ على تصوّرات ومبادرات التجديد الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي وغيرها، وترفض المغامرة بقبول التغيير والتجديد في هذه المجالات الحيوية لمجتمع المعرفة، وإن قبلت فسيكون على استحياء أو ببطء شديد، مع أن مسيرة مجتمع المعرفة المعاصر لا تنتظر المتخلف ليلحق بها، فضلاً عن المتوقف أو المتراجع للوراء.

إن المثقف العربي تثقله هموم عديدة تقف عائقاً أمام طموحه في التجديد، سواءً الفكري والثقافي أم العلمي أم الإداري أم الاقتصادي أم غيره. ولعل بعض الباحثين أشار هنا إلى أبرز هذه الهموم: الحرية والاكتفاء المعيشي. إذ هما عاملان شرعيان وضروريان وفاعلان في حياة كل إنسان، وعلى وجه الخصوص المثقف أينما وجد. ولذلك فإن على جهات ومؤسسات التجديد الفكري والثقافي وغيرها، والتي تتبنى العمل على بناء مجتمع المعرفة أن تأخذ في حسبانها أهمية وأثر هذين العاملين مع غيرهما من العوامل. فضغوط المجتمع المختلفة، وتهميش دور المفكرين والمثقفين، وسوء التخطيط، والتخبط الإداري كلها عوامل مؤثرة ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار كيفية تلافيها خلال مسيرة بناء مجتمع المعرفة.

إن روّاد التجديد في مجتمعاتنا العربية لديهم من العطاء ما لدى غيرهم من مجددي الشعوب والحضارات الأخرى، كما أظهرنا ذلك في سير النماذج التي تم تناولها في هذه الورقة. وهناك دراسات عديدة تظهر أثر عطاء المفكر والمثقف العربي في كثير من مجالات الحياة وشئونها، وخاصة في الإبداع العلمي، والفكري، والأدبي وغيره. لكن مسيرة التجديد الفكري والثقافي شأنها شأن غيرها من توجهات التجديد والإصلاح، تحتاج إلى مجتمع يحتضنها، ومؤسسات ترعاها، وروّاد يديرون حركتها ويوجهون مسارها بما يخدم مجتمع المعرفة والإنسانية جمعاء.

لكن من المهم التذكير بأن عملية التجديد الفكري والثقافي في المجتمع، وخاصة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، تبقى محكومة بالأساس ـ وعلى وجه الخصوص ـ بالتجديد في المنظور الديني، والتغيّر في توجهات وخطاب دعاة هذا المنظور ورعاته، وهو ما يتحسس منه الكثيرون ويتجنبه الأكثر. لذلك كان على الجهات المؤسسة لمنظومة التغيير والتجديد في المجتمع أن تتبنى وترعى عملية التغيير والتجديد وإدارتها، بشكل يحسن التعامل مع هذا المنظور بمختلف عناصره وأبعاده، شريطة أن تكون هذه الجهات مخلصة التوجه والجهد، وطنية الانتماء، واعية لمتطلبات هذا التغير، وفي الوقت نفسه مؤهلة لتبنيه وإدارته، وإلاّ كانت النتائج أسوء والضرر أبلغ. ذلك؛ لأن هذا الحقل بالذات هو العامل الأبرز في حياة الشعوب الإسلامية، وهو في الوقت ذاته العامل الذي أكثر ما يُضار بداء التقليد والتبعية، أو بسقم التحامل والجهالة، كما أوضحنا ذلك فيما سبق، وكما يؤكد على ذلك أكثر الباحثين والمفكرين. يقول المفكر عبدالله العلايلي: « في ميدان البحث الإسلامي، هناك ميل جامح إلى التقليد، يبلغ حد التطوّح، وكدت أقول الهوى لو لم أمسك وأحبس على قلمي، لمكان الرغبة الخيّرة التي تكمن وراء هذا الميل ... ميل يشاء أن يأخذ الإسلام كنظام فكر وعمل، مأخذ هذه المذاهب الحديثة التي شاعت بفتنها وشاعت باستهوائها ». وينقل العلايلي عن الإمام مالك قوله: « كان من قبلنا يعمدون إلى كتاب الله وسنة نبيه فيتلقون الأحكام، أما اليوم فنعمد إلى رغائبنا ثم نبحث في كتاب الله وسنة نبيه عمّا يسندها ويشهد لها ».

لقد تناول عدد من مفكري الأمة أسس التجديد، وبنوا دعوتهم على تلك الأسس، ولم تؤدِ دعوتهم إلى التجديد و التغيير إلى خروجهم عن الدين، أو انحرافهم عن خط الانتماء لأوطانهم، بل أعطاهم التاريخ لقب المصلحين والدعاة، وحفظت لهم أوطانهم وشعوبهم مكانتهم ودورهم في بنائه وإصلاحه. ولعل من أبرز هؤلاء المصلحين. الإمام محمد عبده، الذي أسس مع عدد من رواد عصره لمسيرة التجديد والإصلاح، ووضع لها رؤية علمية واقعية، كما حدد لها أسساً وغايات واضحة تبنّاها فيما بعد غيره من المفكرين واستنار بها عدد من المصلحين.

ولعل من أبرز تلك الأسس ما يلي:

١- التخلي عن رذائل الجهل والتقليد والخرافات.

٢- الدعوة إلى التحلي بالعلم واحترام العقل والتفكير.

٣- الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

لقد قرر الإسلام قاعدة التجديد والتغيير وجعلها أهم شرط لحصول المعونة الإلهية لتحقيق الأمل المنشود، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾[1]، وحتى يتمكن الفرد من التجديد والتغيير لا بد أن يعمل ويتغير لا أن يقلد ويتبع حذو النعل بالنعل، وإلاّ أين التغيير الذي أحدثه طالما صار متبعاً ومقلداً، وإذا انتفى التغيير امتنع عنه مدد الله وعونه في تحقيق التغيير والتجديد، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. ولا شك أن في أصول الفقه، وقواعد الفقه الكلية والفرعية، وفي أبوابه ومصادره المتنوعة ومنها باب الاجتهاد وباب الرخص الشرعية وغيرها ما يوفر للعالم المجتهد قواعد انطلاق متينة نحو عملية التغيير والتجديد. هذا بشرط أن تتوفر لدى المجتهد المقدرة والإمكانات التي تؤهله لذلك، مع تبني قاعدة العمل والتغيير لا التبعية والتقليد. فلا إلزام لفرد بفكر غيره، كما لا إلزام لمسلم أو لمجتمع المسلمين بقول فقيه دون غيره. يقول الشيخ وهبة الزحيلي « لا إلزام في الشريعة باجتهادات وأقوال الفقهاء التي ليس فيها نص صريح، وإذا كان لا واجب إلاّ ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يعمل في دين الله بمذهب إمام معين أو مجتهد من غير معرفة دليله، فإن الترجيح أو الاختيار الانتقائي أمر سائغ شرعاً » ويبين الزحيلي أن هذا الاتجاه استجاب له المصلحون المخلصون من العلماء غير المتشائمين والمقلدين والمتزمتين. ومع ذلك نرى أن الواقع لا يزال يشي بمحدودية التغير وتعثره في بعض الأوقات أو في بعض الأماكن. لكن، وبرغم كل المعوّقات لا بد من مواصلة الطريق نحو التغيير والتجديد الفكري والثقافي بمختلف أبعاده وأشكاله وعلى جميع المستويات ثقةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾[3]، وأن التجديد والتغيير من السنن التي لا يمكن أن تستمر الحياة بدونها. والله تعالى الموفق.

---

(١) – سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) – سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(١) – سورة الرعد: الآية ١١.

المصادر والمراجع:

١- قصص الأنبياء، أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ـ ٧٧٤هـ)، الطبعة الثالثة (١٤٠٨ه/ ١٩٨٨م) تحقيق: مصطفى عبد الواحد. مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

٢- المثقف العربي: همومه وعطاؤه، مجموعة من المؤلفين، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، ومؤسسة عبد الحميد شومان، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٣- أين الخطأ؟: تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد، عبد الله العلايلي، الطبعة الثانية، دار الجديد (١٩٩٢)، بيروت.

٤- الرخص الشرعية: أحكامها وضوابطها. وهبة الزحيلي، الطبعة الأولى، دار الخير (١٩٩٣م)، دمشق، بيروت.

٥- عمان تاريخاً وعلماء، ترجمة: محمد أمين عبد الله، سلسلة تراثنا (العدد العاشر)، أغسطس ١٩٨٠م، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ص ٣٦-٣٧.

٦- صانعوا التاريخ سمير شيخاني، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧- قراءات في فكر البهلاني الرواحي: حصاد ندوة ذكرى أبو مسلم البهلاني، إعداد: محمد علي الصليبي مع مجموعة الباحثين. وزارة التراث القومي والثقافة (المنتدى الأدبي)، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، سلطنة عمان ، مسقط.

٨- الشعر العماني مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية: علي عبد الخالق علي، دار الكتاب العربي، ط٢ /١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مصر، القاهرة.

٩- الشعر العماني الحديث: أبو مسلم البهلاني نموذجا، محمد بن ناصر المحروقي، مكتبة الجيل الواعد، ط١/١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، سلطنة عمان ، مسقط.

http://www.ali4.com/vb/showthread.php?t=1588.

http://www.4adab.com/en/showthread.php?t=1778.

http://www.syrianmeds.net/forum/topic3995.html الإمام محمد عبده

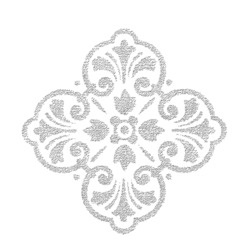
http://www.moheet.com/show _ news.aspx?nid=6819&pg=67

الإمام محمد عبده مجدداً. أحمد عمر هاشم

http://www.islamonline.net/arabic/In-Depth/MohamadAbdo/Articles/05 shtml.

http://www.islamonline.net/arabic/history/1422/09/article02shtml

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B7.



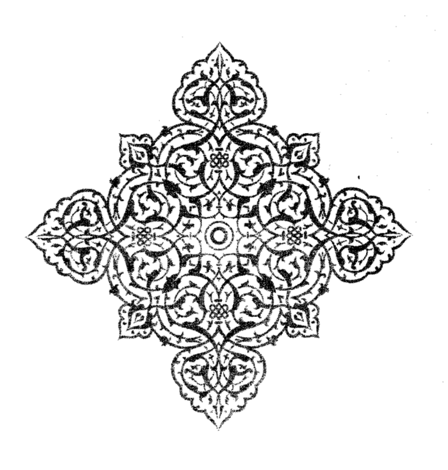
حدود التشابه و نقاط الافتراق

في

تجارب مجتمع المعرفة

د. سالم بن سلطان الرزيقي (*)

*) الرئيس التنفيذي لهيئة تقنية المعلومات في سلطنة عمان، وقد تقلد عدة مناصب فنية وقيادية، في وزارة الخارجية بالسلطنة، كان آخرها رئيس دائرة تقنية المعلومات والاتصالات، وله خبرة واسعة في مجال تقنية المعلومات تمتد إلى عشرين عاما.





مقـــدمـــة :

أكد حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم المعظم ـ حفظه الله ورعاه ـ في خطابه السامي الأخير بمجلس عمان على الدور الكبير الذي أخذت تلعبه تقنية المعلومات والاتصالات في العصر الحديث، حيث قال جلالته: « لقد أصبحت تقنية المعلومات والاتصالات هي المحرك الاساسي لعجلة التنمية في هذه الألفية الثالثة، لهذا أولينا اهتمامنا لإيجاد استراتيجية وطنية لتنمية قدرات المواطنين ومهاراتهم في التعامل مع هذا المجال، وتطوير الخدمات الحكومية الالكترونية ». داعياً جلالته جميع المؤسسات الحكومية « للمسارعة إلى تعزيز أدائها، وتيسير خدماتها، بواسطة التقنية الرقمية، متطلعين إلى الارتقاء بالسلطنة ».

ولا شك أن الخطاب السامي لجلالته يشف عن رؤاه الحكيمة لمتغيرات الألفية الثالثة، واستبصاره العميق للتحولات الكبيرة، التي أحدثتها تقنية المعلومات والاتصالات في البنى الاقتصادية والمعرفية في العالم، فبفضل التقنية الرقمية أصبح العالم صغيراً، متقاربا متواصلاً بشكل لا سابق له من قبل، فقد أصبح هنالك الآن فضاء إلكتروني عالمي موحد، وعبر هذا الفضاء تتدفق بيانات ومعلومات ومعارف هائلة، ويتاح للأفراد والمؤسسات التواصل بين بعضها البعض، عبر وسائط مكتوبة ومسموعة ومرئية، وأصبحت تقنية المعلومات تدخل في مختلف مفاصل النشاط الاقتصادي والتجاري الصناعي، بل غدت أداة فعّالة لتطوير الأداء والخدمات، وركيزة أساسية لاقتصاديات الدول المتقدمة في الألفية الثالثة.

وتطلعاً لأفضل السبل نحو تحقيق المزيد من الرقي والتقدم، وتعزيز مسيرة النهضة المباركة، فقد وضعت السلطنة خططاً طموحةً جداً للاستفادة من الفرص والمزايا الهائلة لتقنية المعلومات والاتصالات، من خلال استراتيجية وطنية تراعي الاحتياجات الأساسية للتنمية، وتتسق مع الأهداف المستقبلية للسلطنة، التي حددتها الرؤية المستقبلية للاقتصاد العماني ٢٠٢٠، وعلى هذا الأساس تم إيجاد « الاستراتيجية الوطنية لمجتمع عمان الرقمي، والحكومة الإلكترونية »، التي حددت خططاً وآليات قيام مجتمع معرفي في السلطنة، وذلك وفقاً لمنظور شامل ومتكامل، بدءاً من التأسيس لبنية إلكترونية متطورة في السلطنة، عبر

سلسلة من المشاريع الرقمية المتصلة والمتكاملة مع بعضها البعض، وصولاً إلى بناء القدرات والمهارات الوطنية في مجال تقنية المعلومات، من خلال محو الأمية الرقمية، ورعاية المواهب الابتكارية في المجال الإلكتروني، وإيجاد قطاع صناعي متطور لتقنية المعلومات والاتصالات في السلطنة، بما يسهم في بناء اقتصاد وطني قائم على المعرفة.

مفهوم مجتمع المعرفة:

يعرّف تقرير الأمم المتحدة الإنمائي للعام 2003م، مجتمع المعرفة بأنه ذلك المجتمع الذي يقوم أساساً على نشر المعرفة وإنتاجها، وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد، والمجتمع المدني، والسياسة، والحياة الخاصة، وصولاً لترقية الحياة الإنسانية باطراد، أي إقامة التنمية الإنسانية.

ومن أهم خصائص مجتمع المعرفة الحديث هو الاستخدام المكثف لتقنية المعلومات والاتصالات، باعتبارها من أهم العوامل التي تسهم في نشر المعرفة، وتحويلها إلى مرتكز أساسي لكافة أوجه النشاط الإنساني في العصر الحديث، فقد دخلت تقنية المعلومات والاتصالات الحديثة إلى كافة مناحي الحياة، وغيرت المفاهيم والعلاقات وأشكال التبادل المعرفي والتجاري، وآليات العمل داخل المؤسسات الحكومية والخاصة، وأوجدت منظومة جديدة من طرق التعامل، وإنجاز المعاملات عبر الإنترنت.

ونتيجة لهذا التقدم في تقنية المعلومات والاتصالات أصبحت دول العالم مرتبطة إلكترونياً ببعضها البعض، مما أتاح للمعلومات ورؤوس الأموال أن تنتقل بحرية كبيرة، وأصبح التواصل والتفاعل يحدث على شكل آني ومتواصل، وكأن مجمل النشاط الاقتصادي لدول العالم عبارة عن بحر متصل تتواصل أمواجه، ويتأثر بعضها ببعض، ولعل الأزمة المالية الأخيرة خير برهان على التشابك الوثيق بين اقتصاديات الدول الذي أوجدته تقنية المعلومات والاتصالات، بحيث إن الأزمة الاقتصادية في دولة من الدول، تتعدى تأثيراتها النطاق الجغرافي للدولة، لتصل إلى كافة بقاع العالم، وهذا يعني أننا نعيش في عالم جديد، مما يتطلب منا تغيير فهمنا وإدراكنا للعالم، حتى نستطيع أن نتعامل معه، ونديرشأننا بنجاح، وهذا هو أهم تحديات بناء مجتمع المعرفة في أي دولة من الدول.

بهذا المعنى، فإن مجتمع المعرفة يتطلب توفر مستوى عالٍ من التعليم، واهتماماً كبيراً بالبحث العلمي وإنتاج المعرفة، وتحويل المؤسسات الحكومية والخاصة ومؤسسات المجتمع

المدني إلى مؤسسات إلكترونية، من خلال نشر استخدام الحاسب الآلي والإنترنت، وتحويل الخدمات المؤسسية إلى خدما ت إلكترونية، وبمستوى عالٍ من الجودة والفاعلية، لذلك فإن مفهوم مجتمع المعرفة لا يعني فقط وفرة البيانات والمعلومات، بل يتعداه إلى اكتساب المجتمع لقدرات وآليات تعينه على امتصاص هذه المعلومات والبيانات، وتوظيفها ضمن نسيج في كافة الأنشطة العلمية والمهنية، بحيث تتحول المعرفة إلى قيمة مضافة تؤدي إلى مزيد من الجودة والإتقان، في إدارة وتنفيذ مختلف الأنشطة والمشاريع الفردية والمؤسسية، وتحقيق الجودة في التعليم والصحة وتطوير الأداء المهني للمؤسسات الحكومية والخاصة، وفتح آفاق تجارية واقتصادية واسعة قائمة على المعرفة الحديثة.

وبناء على هذا يمكن القول: إن بناء مجتمع المعرفة هو مسؤولية وطنية مشتركة ينبغي أن تسهم فيها جميع المؤسسات والقطاعات الحكومية، فالتعليم الجيد، والاهتمام بالبحث العلمي والثقافة وآفاق المعرفة المتجددة، هي عوامل أساسية، لتدعيم ركائز مجتمع المعرفة جنباً إلى جنب، مع إيجاد البنية الأساسية لتقنية المعلومات والاتصالات، وتنمية المهارات التقنية للتواصل مع العالم الرقمي، وبهذا يتاح للتقنية الحديثة أن توظف كأداة فاعلة في إنتاج المعرفة، وتحقيق الجودة، وبالتالي تدخل المعرفة كمكون رئيس في نسيج كافة الأنشطة الإنسانية في المجتمع، وتسهم في تعزيز جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وقد غيرت ثورة تقنية المعلومات والاتصالات مفاهيم الاقتصاد التقليدي القائم على الإنتاج ورأس المال، حيث أصبحت المعرفة الآن هي رأس المال الحقيقي، وأصبح النجاح الاقتصادي يعتمد على ما تعرف وليس على ما تملك، وأصبحت القيمة الاقتصادية للمنتجات قائمة ومبنية على المعرفة، ولهذا فقد احتلت العديد من الدول مكانة مرموقة في خارطة الاقتصاد العالمي بفضل اعتمادها على تقنية المعلومات والاتصالات التي هي عصب التنمية الاقتصادية في الألفية الثالثة، وكل هذه المتغيرات أوجدت وعياً عالمياً متزايداً بقيمة المعرفة كأساس للإنتاج والقوة والنجاح والتقدم، وبالتالي ضرورة بناء مجتمع عالمي يتساوى فيه الجميع من حيث فرص الحصول على التقنية الرقمية، وتضييق الفجوة المعرفية، حتى تستطيع جميع المجتمعات جني ثمار الثورة المعلوماتية، والاستفادة من تطبيقات تقنية المعلومات والاتصالات في تقديم خدمات ذات كفاءة عالية في مجالات التعليم والصحة، والأنشطة الإنسانية كافة.

إن مجتمعات المعرفة تميزت بخصائص عديدة من أهمها: وجود بنية أساسية إلكترونية متطورة، وخدمات حكومية إلكترونية ذات جودة عالية، وتوفر الإنترنت بسعر في متناول الجميع، ووجود قدرات ومهارات عالية لدى أفراد المجتمع في استخدام الحاسوب، والوصول إلى الخدمات الإلكترونية، والمشاركة بفعالية في إنتاج المعرفة، والحصول عليها، إضافة إلى وجود نشاط كبير في التجارة الإلكترونية، وبنية تشريعية منظمة للتعاملات الإلكترونية، وآليات دقيقة وفاعلة ومضمونة للدفع الإلكتروني، وكذللك الاهتمام بتوظيف التقنية الرقمية في التعليم، وإعداد الطلبة وتأهيلهم ليكونوا جزءاً فاعلا في مجتمع المعرفة، من خلال تعاملهم الخلّاق والمبتكر مع التقنية، وصولاً إلى محو الأمية الرقمية، وإتاحة المعلومات والمعارف عبر الإنترنت لكافة شرائح المجتمع وفئاته.

الاستراتيجية الوطنية لمجتمع عمان الرقمي والحكومة الإلكترونية:

تبنت السلطنة مشروعاً طموحاً لتحويل اقتصادها والمجتمع إلى الآفاق المعرفية الجديدة التي أتاحها عصر تقنية المعلومات والاتصالات، فكانت (الاستراتيجية الوطنية لمجتمع عمان الرقمي والحكومة الالكترونية) وتغطي هذه الاستراتيجية كافة مجالات المعرفة والقدرات البشرية المفعلة في جميع المجالات والأنشطة الاقتصادية، من أجل تجميع المعرفة وسرعة كفاءة تشغيلها في تحقيق الأهداف والخدمات الحكومية الإلكترونية.

وعندما شرعت حكومة سلطنة عمان في اتخاذ الخطوات الأولية لتبني تقنيات المعلومات والاتصالات، لتحقيق الاقتصاد المبني على المعرفة وصولاً إلى مجتمع عمان الرقمي، بدأت بوضع رؤية للقطاع لتكون بذلك الإطار الذي تتحرك من خلاله، وتتمثل هذه الرؤية الشاملة في وضع سياسة وطنية للمعلومات وتقنيتها، واستراتيجية تنفيذها بما يمكن السلطنة من الاستفادة الكاملة من الفرص الهائلة التي تتيحها، وتجنب المخاطر المصاحبة لذلك، إضافة إلى تحقيق فعالية التكاليف في البرامج والمشروعات المرتبطة بذلك ، مع تشجيع الدخول في مجال صناعة تقنية المعلومات ، وإتاحة الفرصة للسلطنة لمواكبة الثورة المعلوماتية الحديثة.

وقد حددت الاستراتيجية رؤيتها الموضوعية للسلطنة كالتالي: « السعي إلى استخدام تقنية المعلومات و الاتصالات فى تقديم الخدمات، و توفير البيانات في القطاعين العام والخاص، و جعل الخدمة الآلية المحرك الأساسي لتوفير و تقديم هذه الخدمات و إتاحتها

للجميع، لنقل السلطنة إلى الاقتصاد المبني على المعرفة، و بما يخدم مختلف غايات و أغراض التنمية المستدامة في البلاد ».

مراحل تنفيذ الاستراتيجية:

ومن أجل الوصول إلى ذلك فقد تم تشكيل اللجنة الوطنية لتقنية المعلومات بموجب قرار مجلس الوزراء الموقر الصادر في جلسته رقم(٨٩/١٦) المنعقد بتاريخ ٢٩ محرم ١٤٢٠هـ الموافق ٢٦ مايو ١٩٩٨م. وقد جاء هذا القرار من منطلق اعتماد الخطة الخمسية السادسة(٢٠٠١-٢٠٠٥) وأهدافها المرتبطة بتطوير قطاع تقنية المعلومات.

وقد تم تحديد مهام اللجنة الوطنية لتقنية المعلومات على النحو التالي:

أ- وضع سياسة وطنية للمعلومات وتقنياتها، واستراتيجية تنفيذها، بما يمكن السلطنة من الاستفادة الكاملة من الفرص الهائلة التي تتيحها، وتجنب المخاطر المصاحبة لذلك، إضافة إلى تحقيق فعالية التكاليف في البرامج والمشروعات المرتبطة بذلك.

ب- تشجيع الدخول في مجال صناعة تقنية المعلومات، عن طريق إنتاج البرامج والتجهيزات والشبكات، كرافد في تنويع مصادر دخل الاقتصاد العماني، وإتاحة الفرصة للسلطنة لمواكبة الثورة المعلوماتية الحديثة.

جـ- الإشراف على وضع الأسس والمعايير والتعليمات المتعلقة بتقنية المعلومات.

د- اعتماد البرامج والمشاريع الوطنية اللازمة لتنفيذ سياسة تقنية المعلومات، وتشكيل الفرق الفنية لإدارة وتوجيه كل برنامج أو مشروع منها.

وبعد تشكيل اللجنة الوطنية لتقنية المعلومات صدر القرار الوزاري رقم (١١) لعام ٢٠٠٠م، بتشكيل فريق العمل الفني لتقنية المعلومات والاتصالات، وتطبيق الحكومة الإلكترونية، والانتقال إلى الاقتصاد المبني على المعرفة، والتي اعتمدت من قبل اللجنة الوطنية لتقنية المعلومات بتاريخ ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٢م، آخذين في الاعتبار عدة نقاط أهمها:

أ- مساندة ودعم المبادرات الخاصة بالشباب، على أساس كونهم العمود الفقري لأي مجتمع.

ب- توفير فرص العمل للعمانيين من خلال اعتماد المشاريع التي توفر عدداً كبيراً من فرص التوظيف.

جـ- إعطاء دفعة قوية ومساندة لمبادرات التخصيص لتقليل اعتماد الاقتصاد الوطني على الإنفاق لحكومي.

ولأجل تنفيذ الاستراتيجية الوطنية لمجتمع عمان الرقمي، والنهوض بقطاع تقنية المعلومات، قامت حكومة السلطنة بداية بتحديد أهدافها، والتأكد من أنها تعكس حاجة المجتمع العماني ككل وليس الحكومة فقط، وقد تبلورت هذه الأهداف في مبادرات محددة لكنها متكاملة ومتجانسة، والتي ستقود الحكومة بدورها إلى النتائج المرجوة ، وقد بنيت الاستراتيجية الوطنية على منهجية موحدة تعاونية متكاملة بشقيها، لبناء مجتمع عمان الرقمي، ولتوفير خدمات الحكومة الإلكترونية لكافة القطاعات بالسلطنة، بدءا بالمواطنين ووصولا لقطاع الأعمال، والتي سيكون لها دور فعال في تحقيق غايات التنمية المستدامة بالبلاد، وتطوير كفاءة وفاعلية وشفافية تنفيذ الإجراءات الحكومية الداخلية.

انطلاقة جديدة:

وبصدور المرسوم السلطاني رقم (٥٢/٢٠٠٦) بإنشاء هيئة تقنية المعلومات ، آلت كافة أصول ومخصصات واعتمادات وسجلات الأمانة الفنية لتقنية المعلومات لهيئة تقنية المعلومات.

إن هيئة تقنية المعلومات والتي تتبع وزير الاقتصاد الوطني هي هيئة تتمتع بالشخصية الاعتبارية، وبالاستقلال المالي والإداري ذات كيان مستقل، وهي الجهة المسئولة عن تنفيذ استراتيجية مجتمع عُمان الرقمي ، إذ تقوم بتنفيذ مشاريع البنية الأساسية، والإشراف على جميع المشاريع ذات العلاقة بعُمان الرقمية.

وقد حدد المرسوم السلطاني هدف الهيئة بـ« العمل على تعزيز وتفعيل سياسة الحكومة للإنتقال إلى اقتصاد مبني على تقنية المعلومات؛ لتحقيق المنفعتين الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العماني من خلال تكامل استخدام هذه التقنية في إطار سياسة التنويع الاقتصادي والتنمية المستدامة ».

وتعمل الهيئة جنبا إلى جنب مع فئات المجتمع المختلفة لتنفيذ استراتيجية مجتمع عُمان الرقمي ، كما أنها تعمل على تنسيق مبادراتها بين جميع الفئات الرئيسة لعُمان الرقمية والتي تمثل الوحدات الحكومية وقطاع الأعمال والأفراد، وذلك لتحقيق المصالح الرئيسية

للمجتمع من خلال الخدمات الإلكترونية المتميزة. كما تعمل الهيئة كمركز كفاءة لأفضل التطبيقات للإدارة الإلكترونية، وتسخير تقنيات المعلومات والاتصال لتوفير خدمات فاعلة ، وتحقيق التكامل بين العمليات ، ورفع كفاءة منافذ توصيل الخدمات الإلكترونية. وتمارس الهيئة وظائفها الرئيسة من خلال مكاتبها المتخصصة.

مفهــوم عُمــان الرقميـــة :

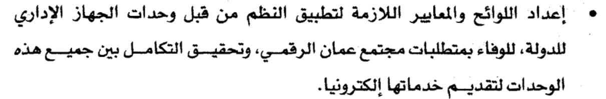
يرمز مصطلح عُمان الرقمية إلى مبادرة السلطنة إلى الانتقال إلى المجتمع المبني على المعرفة من خلال استخدام تقنية المعلومات والاتصال في جميع مجالات الحياة . وتشمل عُمان الرقمية البنية الأساسية كالشبكة الحكومية الموحدة، وبوابة الدفع الإلكتروني وبوابة الخدمات الحكومية والتشريعات والقوانين ، بالإضافة إلى إيجاد بيئة آمنة لتقديم الخدمات الإلكترونية . كما تشمل مبادرة السلطنة التركيز على تنمية الكوادر في مجال تقنية المعلومات وكذلك التوعية والتدريب لكافـــة شرائح المجتمع، للاستفـــادة مـــن الخدمات الالكترونيـــة والمساهمـــة في الانتقـــال إلـــى المجتمع المعرفي.

دور الهيئـــة :

إن مسؤولية هيئة تقنية المعلومات تكمن في إيجاد البنية الأساسية لتقنية المعلومات، والإشراف على جميع المشاريع ذات الصلة بمبادرة عمان الرقمية، إضافة إلى تقديم استشارات مهنية وتقنية متخصصة لمختلف المشاريع الإلكترونية للمؤسسات الحكومية المختلفة في السلطنة.

وفي سبيل ذلك حدد المرسوم السلطاني رقم ٥٢ /٢٠٠٦ للهيئة ممارسة الصلاحيات الآتية:

- اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيـــق التعـــاون والتنسيـــق بين وحدات الجهاز الإداري للدولـــة، وبينهـــا وبين القطـــاع الخاص فيمـــا يتعلق بمشاريع تقنيـــة المعلومات بمـــا يكفـــل تحقيـــق الفائدة المرجوة للمواطنين والمستثمرين.
- تنفيذ مشاريع البنية الأساسية لمجتمع عمان الرقمي، والإشراف على تنفيذ مشاريع تقنية المعلومات في جميع وحدات الجهاز الإداري للدولة، وما يرتبط بها من خدمات إلكترونية.



- إعداد اللوائح والمعايير اللازمة لتطبيق النظم من قبل وحدات الجهاز الإداري للدولة، للوفاء بمتطلبات مجتمع عمان الرقمي، وتحقيق التكامل بين جميع هذه الوحدات لتقديم خدماتها إلكترونيا.
- إعداد القواعد والإجراءات الكفيلة بالمحافظة على النظم إذا طرأت حوادث غير متوقعة، والعمل على الحد من آثارها.
- وضع وتنفيذ برامج التوعية المعلوماتية بما يحقق انتشار استخدام خدمات الحكومة الإلكترونية، وتحقيق غايات مجتمع عمان الرقمي.
- تنفيذ المسوحات الدورية وتقييم الاستثمارات في قطاع تقنية المعلومات بهدف تحديد المتطلبات المستقبلية، وإتاحة الفرص للمزيد من رؤوس الأموال الأجنبية للاستثمار في هذا القطاع.
- تقديم الخدمات الاستشارية وغيرها لوحدات الجهاز الإداري للدولة في مجال تقنية المعلومات.
- الإشراف على متابعة المصروفات الإنمائية المخصصة لتقنية المعلومات، في ميزانيات وحدات الجهاز الإداري للدولة بالتنسيق مع الجهات المختصة.
- الموافقة على التقارير والإحصائيات المتعلقة بتقنية المعلومات، والتي تعدها وحدات الجهاز الإداري للدولة، وذلك قبل نشرها.
- إعداد المعايير اللازمة لحفظ المعلومات بما يكفل سهولة تداولها وتدقيقها، والمحافظة على سريتها وما يرتبط بها من إجراءات.
- تصميم وتطوير الإجراءات التنظيمية والمعايير اللازمة في مجال تقنية المعلومات، وضمان تنفيذها من قبل وحدات الجهاز الإداري للدولة.
- إعداد دراسات الجدوى المتعلقة بالمناقصات والخدمات الاستشارية اللازمة للتعاقد، بشأن مشاريع تقنية المعلومات من قبل وحدات الجهاز الإداري للدولة، بالتنسيق مع الجهات المختصة، والمشاركة في إجراءات تقويم العروض المقدمة في هذا الصدد.
- إعداد سجل يقيد به المستوفون للمعايير التي تحددها الهيئة لكل من الخبراء والاستشاريين والمقاولين وغيرهم، ممن يقدمون خدمات تقنية المعلومات لوحدات الجهاز الإداري للدولة.

متابعة وتقويم الآتي:

- برامج الموارد البشرية وتدريب العاملين في مجال تقنية المعلومات،بهدف تنمية المهارات والكفاءة.
- أداء الخبراء والاستشاريين والمقاولين وغيرهم من المسجلين لدى الهيئة.
- عقود وحدات الجهاز الإداري للدولة المتعلقة بتقنية المعلومات، بما في ذلك البرامج والخدمات ذات الوضع الدولي.
- تمثيل السلطنة في جميع المؤتمرات والاجتماعات الدولية والإقليمية في مجال تقنية المعلومات، بالتنسيق مع الوزارات والجهات الحكومية المعنية.

مهمة الهيئة:

تتولى هيئة تقنية المعلومات قيادة خطط تنفيذ مبادرة عمان الرقمية، والتي تتضمن مجموعة من مشاريع البنية الأساسية، كالشبكات والبوابات الإلكترونية، والمبادرات الداعمة لها، إضافة إلى التشريعات والأطر المنظمة للتعامل الرقمي بالسلطنة، سعياً لتعزيز الخدمات الحكومية الإلكترونية، وإثراء قطاع الأعمال، وتزويد الأفراد بالمهارات، والمعرفة لتلبية احتياجات المجتمع وتطلعاته، وهو ما يسهم في تعزيز جهود السلطنة للتحول إلى اقتصاد قائم على المعرفة.

و جسدت مبادرة عمان الرقمية رؤية هيئة تقنية المعلومات، والمتمثلة في تحويل السلطنة إلى مجتمع معرفي من خلال تطوير تقنية المعلومات والاتصالات، لتعزيز الخدمات الحكومية، وإثراء القطاع التجاري، وتزويد الأفراد بمهارات التعامل مع التقنية الرقمية. فالرسالة الأساسية لهيئة تقنية المعلومات هي تحويل السلطنة إلى مجتمع معرفي بتفعيل تقنية المعلومات والاتصالات. وتعمل هيئة تقنية المعلومات عبر مبادراتها ومشاريعها على إيجاد البنية الرقمية المتطورة في السلطنة، من خلال تنفيذ عدد من مشاريع البنية الأساسية التي من شأنها إحداث نقلة نوعية متطورة على صعيد التعامل الرقمي في السلطنة، إضافة إلى تفعيل تقنية المعلومات في مختلف المجالات لتعزيز الخدمات الحكومية الإلكترونية، وكذلك على بناء القدرات والمهارات الوطنية في مجال تقنية المعلومات.

مشاريع البنية الأساسية :

كثفت هيئة تقنية المعلومات الجهود لتحقيق الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُماني، وذلك من خلال تنفيذ العديد من مشاريع البنية الأساسية التي تعتبر الركيزة الاساسية لنقل الخدمات المقدمة للمواطن، لتواكب التطلعات المتوخاة من المجتمع المعرفي .

بوابة الدفع الإلكتروني :

فقد دشنت هيئة تقنية المعلومات بوابة الدفع الإلكتروني التي تعتبر أحد أهم مشاريع البنية الأساسية لعمان الرقمية، إيذاناً ببدء حقبة جديدة من التعامل الرقمي في السلطنة، حيث تعتبر هذه البوابة ركيزة أساسية لتعزيز الخدمات الحكومية الإلكترونية، من خلال بنية إلكترونية متفاعلة ومتكاملة، تتسم بالجودة والكفاءة العالية، وتعمل على تمكين الأفراد، والمؤسسات الحكومية، وقطاع الأعمال من الدفع الإلكتروني لرسوم الخدمات وقيمة المنتجات بطريقة آمنة وفاعلة ومضمونة، وهو ما يسهم في تعزيز الخدمات الحكومية الإلكترونية، حيث إنها تقلل التكاليف الإدارية، وتخفف الضغط على منافذ تقديم الخدمات، وتوجد آلية مقننة للتعامل مع المدفوعات الإلكترونية للبضائع والخدمات، كما أن البوابة تتيح التحويل الآمن للأموال عبر الإنترنت، وبالتالي تنمية التجارة الإلكترونية في السلطنة، حيث ستجد الكثير من المؤسسات الحكومية والخاصة، وكذلك أفراد المجتمع بيئة آمنة للتسوق، وشراء السلع، والحصول على الخدمات المختلفة إلكترونياً، وبالتالي الاستفادة من الفرص التجارية الكبيرة والمتنوعة التي توفرها الإنترنت، مما سيسهم في جعل التجارة الإلكترونية رافداً جديداً يصب في دعم الاقتصاد الوطني، ومن هنا يمكن القول إن بوابة الدفع الإلكتروني تشكل بالفعل نقلة نوعية جديدة على صعيد التعامل الرقمي في السلطنة.

بوابة الخدمات الحكومية الإلكترونية :

تعد بوابة الخدمات الحكومية الإلكترونية، المنفذ الرئيس الإلكتروني للحصول على المعلومات، والخدمات الحكومية عبر الشبكة العالمية للمعلومات، وتم تطبيق عدد من الخدمات والعناصر الداعمة في البوابة، والتي تتيح تقديم خدمات إلكترونية أكثر مرونة وشمولا، مثل الاستمارات الإلكترونية، حيث تمكن البوابة المستخدمين من تنزيل وتعبئة كافة معاملات الخدمات الحكومية الإلكترونية. أضف إلى ذلك فلن يقتصر الوصول إلى الخدمات الحكومية الإلكترونية في هذه البوابة على مواقع شبكة الإنترنت فقط، بل يمكن الوصول إلى البوابة عن طريق الهواتف المحمولة، والهواتف التفاعلية في المرحلة القادمة .

ويهدف برنامج تطوير الخدمات الإلكترونية إلى تسهيل التنفيذ الناجح للبوابة، من خلال التعريف والمراجعة، وأولويات الخدمة والتي يجب اللجوء إلى تقديمها إلكترونيا.

الشبكة الحكومية الموحدة:

تعد الشبكة الحكومية الموحدة المؤمنة إحدى المبادرات المهمة التي تساعد المؤسسات الحكومية للارتباط فيما بينها، وبفروعها في جميع أنحاء السلطنة، بطريقة آمنة ومضمونة، لتقديم خدمات متكاملة لكافة شرائح المجتمع.

مركز البيانات الوطني:

يعد مركز البيانات الوطني مرفقا آمنا لاستيعاب نظم تقنية المعلومات الحكومية مع بنية أساسية تخصصية. كما يقوم المركز باستيعاب نظم تقنية المعلومات الحكومية ذات الطبيعة الحساسة، ويمكنها من مواصلة المهمة المطلوبة في كل الأوقات. كما أنه يعالج الحاجة لوجود خطة استراتيجية لاسترجاع البيانات في حالة وقوع كارثة ما، وهو الشيء الذي تفتقر إليه أغلب نظم تقنية المعلومات الحكومية. وكذلك فإن المركز مجهز بالبيئة اللازمة لاستيعاب واستضافة مشاريع مبادرة عمان الرقمية، مثل بوابة الخدمات الحكومية الإلكترونية، والبنية الأساسية الخاصة بأمن المعلومات، وبوابة الدفع، والأنظمة الحكومية المشتركة.

قانون المعاملات الإلكترونية:

يعد صدور قانون المعاملات الإلكترونية بموجب المرسوم السلطاني رقم (٢٠٠٨/٦٩م) نقلة نوعية كبيرة في البنية التشريعية القانونية التي تشهدها السلطنة، وذلك لتعزيز ثقة المواطن وقطاع الأعمال في هذه المعاملات الإلكترونية، نظراً لما تتطلبه مبادرات مجتمع عمان الرقمي، حماية قانونية واسعة لكافة التعاملات الرسمية والشخصية في قطاع الاتصالات وتقنية المعلومات.

ويعالج قانون المعاملات الإلكترونية القضايا الأساسية، مثل: قانونية المعاملات الإلكترونية، وحماية البيانات الشخصية، والاعتراف القانوني بالتوقيع الإلكتروني، والاعتراف بالقيمة الإثباتية لبيانات الرسائل، وصلاحية الدفع الإلكتروني، بالإضافة إلى مسائل تتعلق بالرسائل الإلكترونية وحماية الخصوصية والأمن. حيث يعمل هذا القانون

على حماية حقوق المتعاملين إلكترونيا، وتحديد التزاماتهم، وتشجيع وتسهيل المعاملات والمراسلات الإلكترونية بواسطة سجلات إلكترونية يعتمد عليها، وتسهيل وإزالة أية عوائق أمام المعاملات الإلكترونية الأخرى.

بناء القدرات :

أولت الهيئة اهتماماً كبيراً ببناء القدرات والمهارات الوطنية في مجال تقنية المعلومات، وعلى هذا الصعيد تعمل الهيئة على تنفيذ مبادرة بناء القدرات الوطنية في مجال تقنية المعلومات، ومحو الأمية الرقمية.

وتتألف هذه المبادرة من أربعة مشاريع أساسية وهي:

١- مشروع تأهيل الكوادر العمانية المتخصصة في مجال تقنية المعلومات، من خلال مركز الابتكار والدعم بالهيئة.
٢- ومشروع تدريب موظفي الخدمة المدنية في مجال تقنية المعلومات.
٣- ومشروع تدريب المجتمع وتأهيله في مجال تقنية المعلومات.
٤- ومشروع التدريب المتخصص في مجال تقنية المعلومات لموظفي الحكومة، وخريجي تقنية المعلومات الباحثين عن عمل، ومبادرة حاضنات تقنية المعلومات، ومبادرة تعزيز استخدام الحاسب الآلي.

مركز الابتكار والدعم:

يعد مركز الابتكار والدعم الذي أسسته هيئة تقنية المعلومات أول مبادرة حكومية من نوعها في السلطنة ، فهو يجمع بين خدمات تقديم الدعم التقني، وابتكار الحلول للمشاريع الإلكترونية، وتدريب وتأهيل المواهب العمانية للابتكار والإبداع الرقمي في آن واحد.

وقد تم الإعداد والتأسيس لهذا المركز بمواصفات عالمية، بالتعاون بين هيئة تقنية المعلومات وشركة مايكروسوفت الرائدة في صناعة تقنية المعلومات والبرمجيات، ويعمل مركز الابتكار والدعم على تقديم خدمات تقنية متخصصة للمؤسسات الحكومية، وإمدادها بأحدث وأفضل التقنيات والبرمجيات، وتزويدها بالحلول المبتكرة لمشاريعها الإلكترونية، إضافة إلى رعاية الموهوبين العمانيين الشباب في مجال التقنية الرقمية، وذلك

من خلال تقديم برامج تدريبية متقدمة ورفيعة لهم في مهارات تقنية المعلومات، وإيجاد بيئة ومناخ محفز لطاقاتهم وقدراتهم الابداعية على الابتكار الرقمي.

ويلعب المركز دوراً بارزاً في نقل المعارف والمهارات والتطبيقات الرقمية الحديثة والمتطورة من الأسواق العالمية إلى السوق المحلية، ويسهم في تحسين كفاءة البرمجيات والتقنية المستخدمة، إضافة إلى أن المركز يعمل من خلال التدريب والتأهيل للشباب العماني على بناء خبرات وطنية في مجال تقنية المعلومات، بحيث تكون قادرة على تطوير سوق العمل المحلي، وتعزيز الجهود المتواصلة لبناء بيئة معلوماتية متطورة في السلطنة، كما يسهم وجود هذا المركز في دعم الاستثمار في البنية الأساسية لتقنية المعلومات والاتصال، وتنمية وتطوير هذا القطاع في السلطنة، وذلك من خلال المشاريع التي يشارك فيها المركز.

تدريب موظفي الخدمة المدنية:

ومن أجل بناء القدرات والمهارات الوطنية في مجال تقنية المعلومات، تقوم الهيئة بتدريب وتأهيل ما يزيد عن ٩٣ ألف موظف من موظفي الخدمة المدنية للحصول على الشهادة العالمية للحاسوب والانترنت IC3، وذلك بالتعاون مع وزارة الخدمة المدنية ووزارة التربية والتعليم، ولمدة ثلاث سنوات ٢٠٠٩-٢٠١١ . ويهدف تدريب موظفي الخدمة المدنية إلى إيجاد شريحة تأخذ على عاتقها مسؤولية عملية التغيير في مؤسساتها، من حيث تبني تقديم الخدمات الحكومية الإلكترونية، وإعادة هندسة الأعمال، كما أن هذه الشريحة في المجتمع ستلعب دورا منتجا، وبناء في مجتمع عُمان المعرفي، من خلال استخدام التقنيات الرقمية الحديثة في جميع تعاملاتها الحياتية، وسيعتمد التدريب في هذا المشروع على تطبيق العديد من البرامج المتميزة، ومن بينها تطبيق تقنية جديدة في التدريب، حيث تتيح للمتدربين الاستفادة من برامج التدريب والدراسة، دون التقيد بحدود المكان والزمان، وتمكن في نفس الوقت المشرفين والمنفذين للتدريب، من متابعة مدى تطور كل متدرب من خلال ذاكرة التخزين المحمولة، التي سيتم توزيعها لجميع المتدربين.

تدريب المجتمع:

أولت الهيئة اهتماما كبيراً بتدريب المجتمع في مجال تقنية المعلومات، لذا فهي تعمل على تنفيذ مشروع تدريب المجتمع وتأهيله في مجال تقنية المعلومات، والذي يعتبر ركيزة

أساسية لمحو الأمية الرقمية في المجتمع، وتعمل الهيئة على إنشاء مراكز المجتمع المعرفية في مختلف محافظات ومناطق السلطنة، والتي تقدم برامج تدريبية متميزة، ومنهجاً متكاملاً لمحو الأمية الرقمية، من خلال توفير تعليم مجاني، أو قليل التكلفة في مجالات الكمبيوتر والإنترنت.

وتقوم الهيئة بتنفيذ هذا المشروع من خلال التكامل مع مؤسسات المجتمع المدني من أندية وجمعيات وهيئات حكومية . وقد وقعت الهيئة مؤخراً مذكرة تفاهم مع كلية التقنية العليا بصلالة لإنشاء مركز مجتمع معرفي في محافظة ظفار، كما وقعت مذكرة تفاهم مع وزارة الشؤون الرياضية لإنشاء مركز مجتمع معرفي في كل من محافظة مسقط ومدينة صحار، وكذلك مع جمعية المرأة العمانية بصور لإنشاء المركز بولاية صور، ويتم الإعداد لإنشاء مراكز مجتمع معرفي في مختلف محافظات ومناطق السلطنة، وستستقبل هذه المراكز جموع المواطنين، وستوفر لهم التدريب، وسيكون لها دوراً كبيراً في محو الأمية الرقمية في المجتمع، بالإضافة إلى توفير مكان مناسب للمجتمع للاستفادة من الخدمات الحكومية الإلكترونية.

وتهدف الهيئة من خلال تنفيذ مشروعها لتدريب المجتمع وتأهيله في مجال تقنية المعلومات إلى تنمية وتطوير قدارت ومهارات تقنية المعلومات لدى أفراد المجتمع، وزيادة الوعي بالتعاملات الرقمية، والفرص والفوائد الكبيرة التي يتيحها الفضاء المعلوماتي. وسيتم من خلال هذا المشروع توفير فرص التدريب في مجال تقنية المعلومات للمواطنين؛ لكي يتمكنوا من المشاركة الكاملة في مجتمع عمان الرقمي.

التدريب المتخصص:

كما اهتمت هيئة تقنية المعلومات بتأهيل الكوادر المتخصصة في مجال تقنية المعلومات، من خلال عقد دورات متقدمة لموظفي المؤسسات الحكومية، وذلك بالتعاون مع شركات القطاع الخاص العالمية ، كما تقوم الهيئة حاليا بوضع الإطار العام لتنفيذ برامج تخصصية تكون رافدا للقطاع العام والخاص، وللمبادرات الشخصية. حيث تؤمن الحكومة بأهمية تأهيل الكادر البشري وتزويده بمتطلبات العصر، ليكون داعما لتوجهات النهضة، وعنصرا فاعلا في مجتمع عُمان المعرفي.

تعزيز استخدام الحاسب الآلي:

تأتي المبادرة الوطنية لتعزيز استخدام الحاسب الآلي من أجل تعزيز انتشار واستخدام الحاسب الآلي الشخصي، والإنترنت في السلطنة، وإعطاء شرائح المجتمع الوسائل التي تؤهلهم إلى التعامل والاستفادة من الخدمات الإلكترونية والمساهمة الفاعلة في المجتمع المعرفي.

مشروع حاضنات تقنية المعلومات:

تهدف هذه المبادرة وبالتنسيق مع الجهات الحكومية والخاصة ذات العلاقة إلى الترويج لقطاع تقنية المعلومات في السلطنة، عبر دعم وتشجيع رواد الأعمال في تأسيس أعمالهم التجارية في قطاع تقنية المعلومات، بالإضافة إلى جذب الاستثمارات الأجنبية في هذا المجال. ويوفر هذا المشروع الدعم للشباب العماني الراغب في تنفيذ مشاريع اقتصادية في مجال تقنية المعلومات، من خلال تقديم الاستشارات والخبرات لهم، إضافة إلى رعاية مشاريعهم حتى ترى النور وتحقق النجاح، وهو ما يسهم في التأسيس لصناعات وطنية في مجال تقنية المعلومات. وقد قامت السلطنة بوضع اللبنة الأساسية لصناعة تقنية المعلومات، بتأسيس « واحة المعرفة » بمسقط، والتي تعد مقرا لشركات عالمية، ومحلية تعمل جميعها في مجال تقنية المعلومات، كما يوجد بالواحة أحد مشاريع حاضنات تقنية المعلومات، والذي تستضيف فيه عدداً من أصحاب المبادرات التقنية المهمة، والتي من المؤمل أن تسهم في إيجاد صناعة محلية لتقنية المعلومات.

تقديم الاستشارات الفنية للمؤسسات الحكومية لتعزيز خدماتها الإلكترونية:

تقوم الهيئة بتقديم وتنفيذ عدد من الاستشارات في مجال تقنية المعلومات، ومبادرات الخدمات الالكترونية لعدد كبير من المؤسسات الحكومية، حيث تتنوع هذه الاستشارات بين تقويم المقترحات الاستثمارية، ودراسات وتحليل المتطلبات، وتطوير طلبات المقترحات، وتقويم أداء الشركات، وغيرها من الخدمات الاستشارية، إضافة إلى خدمات الحوكمة، حيث قامت الهيئة كذلك بنشر المعايير والسياسات المتعلقة بتقنية المعلومات لتعزيز اعتمادها على نطاق واسع. كما بادرت الهيئة بالتعاون مع المؤسسات الحكومية المختصة بصياغة التشريعات المنظمة لقانون المعاملات الإلكترونية.

وتقوم المؤسسات الحكومية في السلطنة بجهود حثيثة لمواكبة التطور المضطرد في هذا المجال، وذلك باستخدام التقنية الرقمية لتيسير أعمالها، وإضفاء نقلة نوعية للخدمات المقدمة لشرائح المجتمع المختلفة. وقد تم تدشين العديد من المشاريع الاستراتيجية المهمة، كنظام الأحوال المدنية، والبطاقة الذكية للمواطن والمقيم، ونظام القبول الموحد، والبوابة التعليمية، ونظام المحطة الواحدة للاعمال التجارية، ونظام الشفاء بوزارة الصحة، ونظام خدمة العملاء ببلدية مسقط، وغيرها من المبادرات التي تصب جميعها لتقديم خدمات أفضل للمواطن والمقيم، ورجال الاعمال.

الجاهزية للحكومة الإلكترونية:

احتلت السلطنة المرتبة 84 عالمياً في مجال الحكومة الإلكترونية، حيث بلغ مؤشر الاستعداد للحكومة الإلكترونية بالنسبة للسلطنة 0.4691، وفقاً لتقرير الأمم المتحدة الخاص بجاهزية الحكومة الإلكترونية لعام 2008م. والتقرير يحدد مراكز الدول من خلال التطور الإلكتروني، حيث قفزت السلطنة 28 نقطة في هذا الترتيب إلى الأمام، بحصولها على المركز 84 في عام 2008. إذ أنها كانت تحتل المركز 112 في عام 2005، وجاء هذا التقدم انعكاساً لما تم تحقيقه من نجاح وتطور في مجال توفير البنية الأساسية لتقنية المعلومات والاتصالات، والتوعية بالخدمات الإلكترونية الحكومية، وبناء القدرات داخل المجتمع، لتحقيق أقصى استفادة من التقدم الذي يشهده العالم.

ويتألف مؤشر الجاهزية الإلكترونية من ثلاث وحدات وهي بالتحديد: مؤشر المشاركة الإلكترونية، ومؤشر البنية الأساسية، ومؤشر الموارد البشرية، واحتلت السلطنة المركز 60 في مؤشر المشاركة (من بين 192 دولة شملها التقرير) بـ 0.2045 نقطة، ويرجع الفضل في ذلك إلى أن هناك العديد من الجهات الحكومية التي توفر لمستخدمي الشبكة الإلكترونية المعلومات اللازمة عن السياسات، والبرامج والميزانية، والقوانين، والأنظمة، والأخبار الأخرى التي تهم الرأي العام. ويقيس مؤشر المشاركة الإلكترونية الأدوات المستخدمة في نشر المعلومات في وقتها المناسب، واستخدام المعلومات العامة، بما في ذلك منتديات الشبكة، وقوائم البريد الإلكتروني، ومجموعات الأخبار، وغرف الدردشة، وهناك العديد من المؤسسات الموجودة في السلطنة التي تستخدم البريد الإلكتروني والرسائل النصية القصيرة للوصول إلى المواطنين، وتقوم بشكل مستمر وفي المواعيد المناسبة بتحديث المعلومات المتعلقة بالخدمات التي تقدمها.

وتدل القفزة الكبيرة التي حققتها السلطنة بشكل واضح على التطور الكبير والنجاح الذي حققته، مبادرات نشر الخدمات الحكومة الإلكترونية من جانب القطاعين العام والخاص في السلطنة، كما تعكس كذلك وبشكل جلي التحول نحو مزيد من تطبيقات خدمات الحكومة الإلكترونية في قطاعات الأعمال المختلفة، ونحو إعادة هندسة العمليات الحالية، بحيث يتم تقديم الخدمات بوسائل أكثر تقدما، تؤدي إلى الوصول إلى الجماهير بكل سهولة ويسر. وقد أعطت مبادرة عمان الرقمية دفعة قوية للجهات الحكومية، لتتمكن من توصيل المعلومات اللازمة إلى الجمهور بشكل أفضل، وجعلت مستوى الوعي بهذه الخدمات أعلى مقارنة بما كان عليه الوضع في السابق.

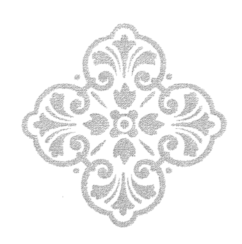
ختاماً:

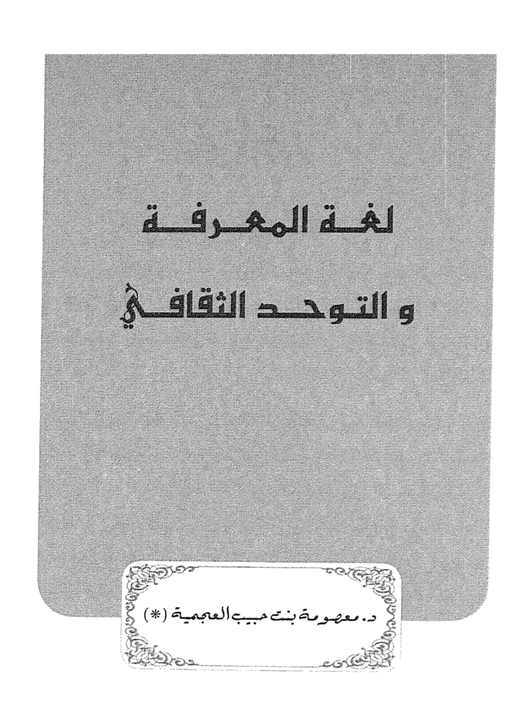
إن المعرفة أهم أداة لارتقاء الإنسان بحياته، وإدارة مصيره، فالمعرفة هي المضمون الجوهري لعمليات الإدراك والتفكير، التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وكلما نما هذا المضمون، وازداد سعة وتنوعاً وثراء، ارتقى الإنسان، وأصبح أكثر قدرة على إدارة حياته، وصنع مستقبله، ولقد ازداد الإحساس بقيمة المعرفة في العقود الثلاث الأخيرة نتيجة للتطور المذهل في تقنية المعلومات والاتصالات، وهو ما أدى إلى ولادة فضاء إلكتروني تتدفق فيه المعلومات والبيانات، بسرعة آنية وفورية بين مختلف البلدان والقارات، حيث أوجدت شبكة الإنترنت وفرة معلوماتية، وحققت تواصلاً مباشراً بين الدول والمؤسسات والأفراد، وأصبحت تقنية المعلومات تدخل في مختلف مفاصل النشاط المهني والتجاري والإنتاج الصناعي، بل غدت أداة فعّالة لتطوير الأداء والخدمات، مما جعل صناعة التقنية الرقمية هي الركيزة الأساسية لاقتصاديات الدول المتقدمة في الألفية الثالثة.

ولأن البيانات والمعلومات لا قيمة حقيقية لها إلا بمقدار ما تسهم في بناء معرفة دقيقة وواضحة، لذا فقد أكد تقرير اليونسكو الصادر في عام ٢٠٠٥م على أنه: « لا ينبغي لبروز مجتمع عالمي للمعلومات، باعتباره ثمرة لثورة التكنولجيا الجديدة، أن ينسينا أنه لا يصلح وسيلة لتحقيق مجتمع حقيقي للمعرفة، فازدهار الشبكات لايمكن له وحده، أن يقيم قواعد المعرفة؛ لأنه إذا كانت المعلومات وسيلة للمعرفة، فليست هي المعرفة ».

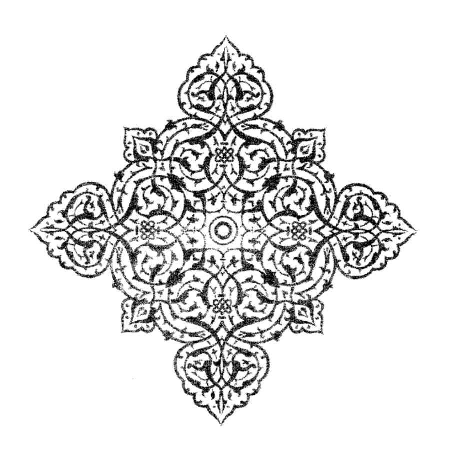
ومن هنا فإن وفرة المعلومات التي يتيحها الفضاء الإلكتروني لا يمكن الاستفادة منها إلا بتطوير كافة المنظومات التعليمية والاقتصادية، والهيكلة الإلكترونية لمختلف الأعمال والخدمات التي تقدمها المؤسسات الحكومية، وتيسيرها لكافة فئات المجتمع وشرائحه عبر الإنترنت، إضافة إلى تنمية الوعي المجتمعي بفوائد التقنية الرقمية، وآفاق استخدامها والاستفادة منها في مختلف المجالات، وبناء صناعات متكاملة لتقنية المعلومات والاتصالات.

إننا نعيش عصراً جديداً يختلف تماماً عما سبقه من عصور، ولهذا فإن مقومات النجاح والتقدم باتت تعتمد بشكل أساسي على التطور في البنية الأساسية لتقنية المعلومات والاتصالات، وإيجاد منظومة متكاملة من المشاريع الهادفة للوصول إلى الحكومة الإلكترونية وبناء المجتمع الرقمي، وهذا ما أدركته دول عديدة في العالم، لذلك تسارعت الخطى نحو إعادة هيكلة المنظومات الاقتصادية، وتنفيذ التطبيقات المبتكرة للتقنية الرقمية في مختلف القطاعات، وفي هذا المجال قطعت السلطنة خطوات كبيرة هامة، وهي ماضية في هذا الطريق للوصول إلى التطبيق الأمثل للحكومة الإلكترونية، وبناء مجتمع معرفي ينعم فيه الجميع بمكاسب وفوائد تقنية المعلومات والاتصالات.





(*) تعمل خبيرة تربوية بالمديرية العامة لتطوير المناهج بوزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان، وترأست مجموعة من اللجان المهتمة بالمشاريع والمبادرات في مجال اللغة العربية، كما شاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات الوطنية و الخليجية.



بسم الله الرحمن الرحيم

تساؤلات:

لماذا نقلل نحن العرب من شأن العربية ـ لغتنا الأم ـ رغم الأهمية القصوى للغة الأم لكل إنسان؟ ولماذا ننتقص من مكانة اللغة العربية رغم علمنا أن المولى ﷻ كرمها وأنزل بها المعجزة العلمية الربانية القرآن الكريم؛ حيث قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾[1].

ما الذي ينقص اللغة العربية لتكون مقوما من مقومات التكتل العربي المعلوماتي، رغم أن العديد من علماء اللغة الغرب تغنوا بثرائها ومرونتها وجمالها؟ حيث قال الألماني (فريتاج): « اللغة العربية أغنى لغات العالم ». والإسباني (فيلا سبازا): « اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوروبا، لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها، في حين الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة، وإني لأعجب لفئة كثيرة من أبناء الشرق العربي يتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية ويخدعون أنفسهم ليقال عنهم إنهم متمدنون ».

والألماني (كارل بروكلمان): « بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا » ؟

هذا يقودنا للتساؤل الرابع والأخير، محور هذه الورقة، وهو:

كيف نجعل العربية لتكون وسيلة تخاطب مجتمع المعرفة العربي؟

إذن ستتناول هذه الورقة المحاور الأساسية التالية:

١- اللغة وأهميتها.

٢- موقف اللغة العربية: قديما وحديثا.

٣- العوامل التي أثرت سلبا على اللغة العربية.

٤- الدور المنوط بنا لجعل اللغة العربية مقوما من مقومات التكتل العربي المعلوماتي: دور التعليم، دور الإعلام، دور المجتمع، دور مجامع اللغة العربية والترجمة والتعريب.

٥- الخلاصة والتوصيات.

---

(١) - سورة يوسف: الآية ٢.

-١-

اللغـــة وأهميتهـــا :

اللغة أيا كانت هي وعاء الفكر، ومرآة الحضارة الإنسانية التي تنعكس عليها مفاهيم التخاطب بين أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، أو فئة من الناس، وهي وسيلة التواصل بين أفراد تلك الفئة، وإذا لم تتمسك الشعوب بلغتها، ولم تكيفها لتستوعب كل ما يستجد في الحياة اليومية، فإن مصيرها إلى الاندثار، وهذا ما حدث لعدد كبير من اللغات؛ حيث جاء في تقرير اليونسكو الإحصائيات الخطيرة التي تشير إلى أن أكثر من ٥٠٪من اللغات المحكية في العالم، والتي يبلغ مجملها ٧٠٠٠ لغة، معرضة للاندثار إذا لم تتخذ الإجراءات المناسبة للحفاظ عليها؛ لذا دعت اليونسكو المجتمعات الدولية إلى العمل وبذل الجهود المخلصة من أجل ضمان احترام جميع اللغات وتعزيزها وحمايتها، ومن منطلق هذا الاهتمام بنشر ثقافة الاهتمام باللغة الأم، أعلنت الجمعية العامة لليونسكو عام ٢٠٠٨ سنة دولية للغات، أطلقت فيه اليونسكو شعارها « للغة شأن »[١].

إن اللغة نظام متطور ينمو ويزدهر بتطور الحياة؛ مما يعني قدرتها على استيعاب كل جديد على الصعيدين العلمي والاجتماعي، وقد أشار أحد الباحثين إلى إن الولوج إلى عصر التقدم والتكنولوجيا لا يتم إلا عن طريق اللغة الأم لأبناء الأمة، لما في ذلك من ارتباط وثيق بين الحاجات النفسية والاجتماعية بين أبناء أي أمة ولغتهم الأم، وترك اللغة الأم والتشبث باللغات الحديثة، كما يطلق عليها البعض « لغة العلم والتكنولوجيا » مخالف للطبيعة النفسية والاجتماعية للبشر، وقد أدرك أصحاب الشركات العالمية للتكنولوجيا أن منتجاتهم الإلكترونية لن تلاقي الرواج والانتشار إلا إذا ترجمت للغات المختلفة، وانتشار البرامج الحاسوبية، مثل ويندوز بعد ترجمتها لأكثر من لغة لتكون في متناول المتحدثين بلغات غير الانجليزية هو أبرز دليل على الارتباط النفسي الكبير بين اللغة وأبنائها؛ فاللغة الأم لأبناء أي أمة هي لغة التفكير والإبداع والتواصل[٢].

---

(١) - UNESCO.2008.

(٢) - الجندي،٢٠٠٣.

-٢-

موقف اللغة العربية قديما:

إن اللغة العربية أثبتت جدارتها في استيعاب جميع العلوم بشكل واضح في التراث الفكري الإسلامي الذي أوجده الدين الإسلامي، وقد يكون أعظمها المعجزة العلمية واللغوية المتجددة – القرآن الكريم ـ الذي نزل بلسان عربي مبين، والسنة النبوية التي لم تترك شاردة ولا واردة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله.

ولم يقتصر دور اللغة العربية قديما على استيعاب التراث الفكري الإسلامي، إنما استطاعت العربية بمرونتها واتساعها استيعاب علوم الفرس والرومان والهند والإغريق من خلال ترجمتها لشتى أنواع العلوم والمعارف، في الطب والرياضيات والفلسفة والعلوم.

لقد استطاع العرب في العصور السابقة، وخاصة العصرين الأموي والعباسي ترجمة كم هائل من العلوم والمعارف، من لغات مختلفة كاليونانية والفارسية والسريانية والهندية في مختلف مجالاتها، وأصبحت اللغة العربية في قمة ذروتها كلغة للعلوم في القرنين الرابع والخامس الهجريين في مراكز الإشعاع الثقافي في تلك الفترة، مثل: بغداد وقرطبة وأصفهان وأوربا، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف استطاع العرب في القرون الهجرية الأولى أن يرتقوا بالعربية لتكون لغة علم وفكر؟

إن علماء العرب في القرون الهجرية الأولى عملوا جاهدين، ليواكبوا التطور العلمي والمعرفي لدى الشعوب الأخرى؛ فبدأوا بالترجمة والتعريب، وقد كانت أهم روافد اللغة العربية في تلك الحقبة من الزمان ترتكز وبشكل رئيسي على الاشتقاق، حيث يتم التعبير عن كل مفردة مشتقة بعبارات عربية فصيحة، ولم يقف علماء العرب عند حد الترجمة والتعريب، إنما أبدعوا في ابتكار علوم أخرى، كعلوم النحو والصرف والبلاغة والعروض، وعلم الطب والفلسفة وعلم الفلك، ويعد الحسن بن الهيثم أبرز معلم من معالم التفوق والابتكار في مجال العلوم بمجالاته المختلفة؛ حيث ترك للأجيال ثروة علمية كبيرة ضمنها في مصنفات كثيرة تربو على المئة مصنف، وقد ترجمت هذه المصنفات إلى لغات مختلفة قديما وحديثا[1]. ومما يؤسف له أن هذه المصنفات لاقت اهتماما كبيرا لدى الغرب لكنها أهملت من قبل العرب، فلم يستفيدوا منها كما استفاد الغرب منها، وباختصار إن اللغة العربية كانت لغة المصادر العلمية في أوربا على مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

---

(١) – خليفة، ٢٠٠٢.

إن عالمية اللغة العربية التي ازدهرت في القرون الهجرية الأولى لم تأت من القرار بجعل العربية لغة رسمية في المخاطبات في الدولة الإسلامية في العصر الأموي، إنما جاءت من مكانة الإسلام وقوة المسلمين في تلك العصور؛ حيث استطاع المسلمون فتح الكثير من الدول ونشر الإسلام بين الأمم في مصر وفارس واليونان، وبالتالي أخذت اللغة العربية مكانتها بين شعوب تلك البلدان، وبدأت تدريجيا تحل محل اللغات الأم في تلك البلدان، وليس أدل على انتشار اللغة العربية بين الأمم من اعتماد الحرف العربي أساسا للكتابة في لغات كثيرة كالفارسية والتركية، وبعض دول آسيا كماليزيا واليونان، وبعض أجزاء من الهند وأسبانيا وأفغانستان، وكذلك من تلك المفردات العربية التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من مفردات لغات تلك الشعوب، والتي بقيت في لغة تلك البلدان حتى بعد انحسار سلطة الدولة الإسلامية عنها[1].

ويذكر المؤرخون أن اللغة العربية ظلت لغة العلم والمعرفة في أسبانيا حتى القرن السادس عشر الميلادي، بل أن العربية أصبحت سمة أهل العلم في تلك العصور، فلقد كان من المستهجن أن يتعاطى أحد مجالا من مجالات العلم والأدب وهو لا يجيد العربية، ففي العصور الوسطى كانت الجامعات الأوربية تدرس الطب والأدب والفلسفة بالعربية مما زاد في انتشار اللغة العربية، وكوسيلة لاستيعاب اليونان للمصادر والمراجع وأمهات الكتب العربية فتحت في أنحاء أوربا معاهد لتعليم العربية.

إذن فلا عجب من وجود الكثير من المصطلحات العربية العلمية والثقافية في أوربا وأمريكا اللاتينية. بل لقد اعترف بعض المستشرقين أن المنهاج العلمي في البحث والمعرفة انطلق من علوم العرب الذين طرقوا جميع الأبواب، وجابوا البلدان، وانتهجوا شتى السبل بحثا عن معلومة أو علم معين، فكانت لهم الأسبقية في انتهاج المنهج العلمي في البحث[2].

ولكن مما ينبغي الإشارة إليه هو أن العرب نشروا لغتهم بين الأمم والشعوب، إلا أنهم لم يتركوا لغتهم العربية تختلط مع اللغات الأخرى دون وضع ضوابط تحمي ألسنتهم من اللحن، فعندما ازداد انتشار الإسلام واختلطت القبائل خاف المسلمون على العربية فبدأوا بوضع القوانين والضوابط النحوية والصرفية، مستشهدين بكلام أهل البادية والشعراء

---

(١) - أبو جبين،٢٠٠٦.

(٢) - خليفة، ٢٠٠٢.

والخطباء، فظهر علم النحو، وكثرت المؤلفات النحوية، ثم عندما زاد انتشار الإسلام أكثر واختلط المسلمون بالشعوب الأخرى بدأ المسلمون بوضع المعاجم، ومنها كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، كما ظهرت مؤلفات كثيرة اهتمت بجمع ما يشيع على ألسنة العامة من عبارات وتراكيب تخالف قواعد اللغة العربية الفصحى[١].

موقف اللغة العربية حديثا:

أما اليوم فتواجه اللغة العربية تحديا كبيرا، وأصبحت في خطر يحيط بها من جهات مختلفة؛ فهناك الفضائيات وشبكة المعلومات العالمية(الانترنت)، فطغت اللغات الأخرى على العربية، بل أصبحت الفضائيات تستسهل استخدام اللهجات المحلية، ويزيد الأمر خطورة على اللغة العربية، العولمة التي دخلت مجالات الحياة المختلفة؛ مما خلق جيلا من العرب الذين يشكون في مقدرة اللغة العربية على استيعاب العصر الحالي، عصر العلم والمعرفة، فاستسهلوا استخدام لغات أخرى تشعرهم بالتحضر والمعرفة، فرغم إمكانية الإفادة من هذه الوسائل والتقنيات الحديثة في النهوض باللغة العربية ونشرها، وفرض قوتها ومكانتها بين الشعوب والأمم كان الاستغلال عكسيا، حيث بدأنا نتنازل عن لغتنا ونتهمها بالقصور[٢].

لقد استمرت الثورة ضد العربية ضمن خطط الاستعمار، التي حاولت جاهدة القضاء على العربية، بفرض لغتها الخاصة كالفرنسية والإنجليزية والإيطالية، كلغة رسمية في المخاطبات والدواوين وفي التعليم، وقد زاد الأمر سوءا تلك الأصوات التي بدأت تظهر هذه الأيام وتنادي بضرورة التدريس باللغات المحلية.

ولكن من جانب آخر أشار بعض الباحثين العرب أن وضع العربية في هذا العصر ما زال يبشر بخير؛ فالعربية هي اللغة الخامسة بين اللغات العالمية، وإن كنا نطمح أن تكون الأولى، إلا أن ذلك لن يحدث إلا إذا توحد العرب وافتخروا بلغتهم ودافعوا عنها؛ فدفاعهم عن اللغة العربية تعد وسيلة لحفظ الحضارة العربية بقيمها وتقاليدها [٣]. ومما يدل على احتفاظ اللغة العربية بمكانتها كثرة البحوث والدراسات في مجال اللغة العربية، بل أن معظم الدول العربية أولت موضوع اللغة العربية اهتماما في كثير من ندواتها ومؤتمراتها؛

---

(١) – الضامن، ١٩٨٦.
(٢) – الموسوي، ٢٠٠٨.
(٣) – الجندي، ٢٠٠٣.

فأصبحت اللغة العربية والنهوض بتعلمها وتعليمها الشغل الشاغل للكثير من التربويين واللغويين، والمسؤولين أيضا، وهذا يعني أن اللغة العربية أصبحت في دائرة الضوء في معظم البلدان العربية.

هذه اللغة التي استوعبت جميع العلوم والآداب ونقلتها للناس عبر العصور، قادرة على استيعاب العصر وعلومه ومخترعاته، حيث ما زال العرب في هذا العصر يستوعبون ما قيل من شعر في العصر الجاهلي أي قبل 1443 سنة، بينما عجزت لغة كالإنجليزية عن نقل إبداع الشعراء والأدباء الإنجليز كشكسبير إلى الأجيال الحالية دون ترجمتها إلى الإنجليزية الحديثة، ليتمكنوا من فهمها. أليست العربية هي تلك اللغة التي قال بلسان حالها حافظ إبراهيم:

وسعت كتاب الله لفظا وحكمة ••• وما ضاقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ••• وتنسيق أسماء لمخترعات؟!

بل يكفي أننا نحن العرب ما زلنا نتفاهم بالعربية مهما اختلفت اللهجات بين البلدان، إلا أن ذلك لا يعني أن نتمادى في استخدام المفردات والأساليب العامية، بل ينبغي أن ننتبه ونتوقف قليلا ونرجع إلى لغتنا العربية الفصيحة، حيث إن أرقى درجات العامية يعد أدنى درجات الفصحى.

-٣-

العوامل التي أثرت سلبا على اللغة العربية:

أشرت سابقا إلى أن اللغة هي ذلك النظام الذي يعبر عن أمة من الأمم بأفكارها ومعانيها وتراثها الفكري الحضاري، مما يعطي تلك الأمة خصوصيتها وكيانها القائم بذاته ويميزها عن غيرها من الأمم والشعوب الأخرى، وهذا هو شأن العربية، تلك الصورة التي ارتبطت بالعروبة وقيمها وأفكارها، وهذا ما يميزها عن بقية اللغات، فهي ارتبطت ارتباطا تاريخيا مع الوجود العربي، وقد يكون السبب الرئيسي في وحدة الأمة العربية وتماسكها في العصر الإسلامي هو نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وقد ساند هذا السبب سبب آخر هو نزول الوحي والقرآن على نبي قرشي عربي، فتشكل من ذلك أمة عربية متحدة حملت شعلة الدين الإسلامي آخر الديانات السماوية، ذلك الدين الذي انتشر شرقا وغربا حمل في طياته معاني العروبة بقيمها وتقاليدها؛ فكل من يعتنق الإسلام

كان يحتاج للعربية لقراءة القرآن الكريم، ولأداء صلواته الخمس، ولأداء مناسك الحج، بل يمكننا القول إن كل مسلم كان يحتاج في حياته اليومية إلى العربية؛ لذا أصبح هناك ولاء صريح للغة العربية، وتهافت الجميع لتعلمها وإتقانها كدليل على صحة العقيدة الإسلامية التي كانت تفرض على كل مسلم تعلم ولو جزء بسيط من القرآن الكريم، ليتمكن من أداء صلاته بشكل صحيح.

إن اللغة كما أشار أحد الباحثين هي « ديوان ثقافي، ونسق رمزي، وأساس التنمية في وطنها، سواء أكان هذا الوطن دماغا، أو فضاء جغرافيا » وهذا يعني أنه لن يتأتى لأي لغة منافسة اللغة الأم في تحقيق هذه التنمية [1]؛ فدور اللغة صياغة الإنسان بالمحمول الثقافي المضمر فيها؛ لذا لا يمكن أن نجد إنسانا متحضرا ولغته متخلفة، كما لا يمكن إيجاد شخص متخلف ولغته متحضرة، فاللغة تعبر عن المكنون الثقافي للإنسان كما تعبر عن حضارة شعب من الشعوب، وتحمل قيمه ومعارفه وعلومه وتنشرها بين الأمم.

و يرى الباحثون أن التقهقر الذي تعانيه اللغة العربية ليس تقهقرا في اللغة وإمكاناتها في استيعاب لغة العصر، إنما هو تقهقر وقصور في نفسيات المتحدثين بالعربية، وانعدام ثقتهم بأنفسهم قبل انعدام ثقتهم بلغتهم.إن التدهور اللغوي العربي جاء نتيجة لعوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية متداخلة؛ ومتى ما استجمع العرب قوتهم ومكانتهم بين الأمم أصبحت للغتهم مكانة بين اللغات، وهذا لن يتأتى إلا ببذل الجهود للحاق علميا وثقافيا وتقنيا وصناعيا بالدول المتقدمة في هذه المجالات.

العوامل الاجتماعية:

ادعاء الوجاهة بين بعض فئات المجتمع العربي باستخدام الألفاظ الأجنبية، والسخرية من اللفظ العربي هو دليل على عقدة النقص التي تعانيها هذه الفئة من الناس إزاء اللغة الأجنبية، وانعدام الثقة في قدرة اللغة العربية على الإيفاء باحتياجات العلم والمعرفة في عصر الانفجار المعرفي والتكنولوجي؛ وذلك بسبب تأخر العرب في مختلف المجالات العلمية والتكنولوجية.

---

(١) - الضامن، ١٩٨٦.

وبينما كان الإقبال في العصور الأولى على العربية كبيرا؛ حيث كان الإلمام بالعربية شعرها ونثرها يعطي صاحبها مكانة مرموقة بين الناس؛ فقد كان الشعراء والخطباء وعلماء اللغة يحظون بمكانة رفيعة لدى الخلفاء والحكام، أصبح العرب الآن يتنازلون عن لغتهم، ويتخاذلون في حفظها والدفاع عنها، ويلهثون بكل قوة لتعلم لغات أخرى كالإنجليزية والفرنسية، ويعدون تملك اللغات الأجنبية من علامات الرقي والتفوق المعرفي والمكانة العلمية العالية، وكل ذلك نتيجة للعولمة وسيطرة اللغة الإنجليزية في سوق العمل.

لقد اعتبر البعض اللغة العربية لغة البكاء على أطلال الماضي، وأنها تدل على التقهقر إلى الوراء، بينما يتطلب التطور إتقان اللغات العالمية، والأسوأ من ذلك أن البعض يرى أن إتقان اللغة الإنجليزية هو جواز مرور للحصول على أرقى الوظائف في سوق العمل، وخاصة في القطاعات الخاصة، وأن التحدث بالإنجليزية يعد سمة من سمات الحداثة والرقي؛ لذا توجهت أغلب الأسر إلى تعليم أبنائهم في مدارس خاصة لضمان إتقانهم للغة الإنجليزية منذ الصغر، فلم يكتف أولياء الأمور بهبوط مستوى أبنائهم في اللغة العربية- لغتهم الأم- بسبب التحدث بالعامية التي تفتقد إلى الكثير من قواعد العربية الفصيحة، وبسبب احتكاكهم بعدد غير بسيط من المتحدثين بغير العربية، بدءا بالمربية أو العاملة بالمنزل وانتهاء بالسائق، بل أن الشارع العربي يزخر بالعمالة الآسيوية التي أوجدت لنفسها لغة خاصة هي مزيج من أصوات وتراكيب بعيدة كل البعد عن أي لغة، وقد اعتاد العربي على هذه اللغة، بل أصبح يمارسها بشكل يومي كوسيلة للتواصل مع الفني والميكانيكي والكهربائي وغيرهم من العمالة الآسيوية. إن السماح للعمالة الوافدة باستخدام العربية بشكل يؤذي الذوق العربي دون أدنى مبادرة للتصحيح والتوجيه، بل التمادي في هذا الخطأ بممارسة اللغة نفسها ما هو إلا دليل على التخاذل في حفظ العربية وصونها.

العوامل الثقافية:

إن الكم الهائل من الألفاظ والمصطلحات العلمية التي تظهر بشكل يومي دون أن يواكبها نشاط مماثل في الترجمة والتعريب، أدى إلى ظهور الشعور بعجز اللغة العربية، وقد ساعد وجود دعاة يحاولون القضاء على العربية من خلال التشكيك بمقدرتها على مواكبة علوم العصر، وعلى إعطاء الفئة من مدعي الوجاهة سببا قويا للتنازل عن لغتهم العربية بسهولة.

إضافة إلى ذلك فإن الإعلام الذي يستخدم العامية في برامجه الثقافية والأدبية يعمل على إيجاد هوة كبيرة بين العربية الفصحى واللهجات المحلية، فهو يعين على القضاء على اللغة العربية الفصيحة بطريقة غير مباشرة.

ومن العوامل التي أثرت سلبا على اللغة العربية ومكانتها إهمال النصوص القديمة والكتب التراثية، وهـذا جعـل الغرب يستفيدون مـن تراثنا العلمي دون نسب الفضل لأصحابـه من علمـاء العرب.

إن نظرة القصور للعربية أصبحت شائعة حتى في مؤسساتنا التربوية، فالنظرة الدونية التي ينظر بها للطالب الجامعي الذي يلتحق بتخصص اللغة العربية واضحة مقارنة بالنظرة للتخصصات الأخرى، بل إن الأسوأ من ذلك أن بعض مؤسسات التعليم الجامعي تختار لتخصص اللغة العربية الطلاب ذوي النسب الأدنى، مما يوجد معلمين للغة العربية ضعفاء في مادة تخصصهم، بل ونافرين منها لأنهم وضعوا في تخصص لم يخيروا فيه، فماذا نتوقع منهم بعد ذلك؟ وكيف سيحببون أبناءنا في العربية إذا كانوا هم نافرين منها، وغير مقتنعين بها؟ فكلنا يعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه.

ومما ينبغي الانتباه إليه أن تقمص اللغات الأخرى لا يقتصر على استخدام المفردات فقط، إنما يطال القيم والعادات والتقاليد التي قد لا تتلاءم مع قيم المجتمع وعاداته وتقاليده، حيث إن اللغة تحمل معها تراث أمتها وثقافتها. وإذا كنا نسعى للحفاظ على عاداتنا وقيمنا وتقاليدنا لا بد من المحافظة على لغتنا من المفردات الدخيلة على لغتنا خاصة تلك التي تحمل في طياتها قيما غير مرغوبة، ولا تتناسب مع المجتمع وقيمه وتقاليده.

- ٤ -

الدور المنوط بنا لجعل اللغة العربية مقوما من مقومات التكتل العربي المعلوماتي:

أشار التقرير الذي جاء بعنوان « نحو إقامة مجتمع المعرفة » الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في عام 2003 إلى الدور الكبير الذي تلعبه اللغة العربية في مجتمع المعرفة والتنمية الاقتصادية والمعرفية والإنسانية، فمن خلال مقوماتها الذاتية من مرونة وتوليد وغنى معجمي وغنى الإمكانات التحويلية يمكن للغة العربية أن تواكب المعرفة الحديثة عن

طريق التعريب والترجمة وحوسبة العربية، ونشر التعليم[1]. إذن هناك أدوار كبيرة منوطة بنا للنهوض باللغة العربية، ووضعها في مكانها ومكانتها المناسبة.

أ- دور التعليم والجامعات:

ينبغي أن تقوم الجامعات بدورها؛ وذلك بتدريس جميع العلوم باللغة العربية، كما هو الحال في الجامعات السورية، ولا مانع من تعلم اللغات الأخرى، فقد قال الرسول ﷺ: « من تعلم لغة قوم أمن شرهم »، ولكن التخلي عن لغة القرآن، ولغة العروبة والتعلم بلغات أجنبية أمر ينبغي أن تنتبه له الأمة العربية جمعاء، فترك اللغة الأم يعني التخلي عن قيم العروبة والحضارة الإسلامية، وإعطاء الفرصة للغرب السيطرة على الأجيال العربية القادمة، والتأثير على فكرهم وأفكارهم وقيمهم وتقاليدهم وعاداتهم، وهذا يزيد من تخاذل العرب والإحساس بضعفهم، وإعطاء اللغات الأخرى أهمية كبرى واعتبارها مصدر قوة ووجاهة. بل إن العرب ينبغي أن يستردوا قوتهم ومكانتهم، لتحظى العربية بالمكانة التي تستحقها بين الأمم.

ومن جانب آخر يشكل الضعف اللغوي الذي يعاني منه طلابنا خطرا لا بد من معالجته، فهو يعمل وبشكل غير مباشر على هدم اللغة العربية بين الأجيال المتلاحقة، ويكفي العربية فخرا أنها اللغة الوحيدة التي حافظت على تكوينها اللفظي والدلالي لآلاف السنين، فأي لغة صمدت على مر العصور كما صمدت العربية، فالألفاظ التي استخدمت في العصور الإسلامية الأولى لم تفقد مدلولاتها حتى يومنا هذا؛ حيث يستطيع أبناؤنا اليوم فهم قصيدة لحسان بن ثابت قالها في مدح رسول الله ﷺ منذ ١٤٠٠ عام دون الحاجة إلى شروحات مفصلة، كما هو الحال مع أبناء اللغة الإنجليزية الذين يحتاجون للرجوع إلى شروحات ومعاجم ليتمكنوا من فهم قصيدة لشكسبير على سبيل المثال، وكل ذلك بسبب التغيير الذي طرأ على اللغة الإنجليزية منذ عهد شكسبير وحتى الآن، من حيث الألفاظ ومدلولاتها، وهذا يؤكد قول الفرنسي (إرنست رينان): « إن اللغة العربية بدأت قوية فليس لها طفولة ولا شيخوخة، فهي سلسة غنية كاملة فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظامها ».

(١) – مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة بالمغرب، ٢٠٠٨.

ب- دور الإعلام ووسائل التواصل الأخرى:

هذا العصر هو عصر المعلومات والاتصالات، وينبغي استغلال هذه السبل والوسائل جميعها في نشر اللغة العربية؛ لتكون لغة العلم والتواصل والتفاعل مع العلوم جميعا؛ لذا يجب زيادة نشاط الإعلام في نشر المصطلحات المعربة، واستغلال التكنولوجيا لجعل اللغة العربية في حركة ديناميكية تواكب جميع المستجدات في مجالات العلوم المختلفة، واستغلال إمكانات العربية كالنحت والاشتقاق التي لا تمتلكها أي لغة أخرى.

إن مجرد قبول العربي إدخال مصطلحات غير عربية ـ يسمعها عبر القنوات الفضائية أو يستخدمها ضمن الشبكة العنكبوتية (الانترنت) ـ ضمن نطاق عربيته يعد انسلاخا من عروبيته؛ حيث أصبحت مفردات كالماسنجر، والإيميل والمسج من الكلمات اليومية المتداولة بين أبناء المجتمع العربي، الذي يفترض أنه يحمل شعلة العروبة، ودعنا لا نلوم من يستخدم هذه الألفاظ، إنما يقع اللوم على جميع القائمين على العربية، وخاصة المجامع العربية التي لا تواكب التغييرات المعلوماتية المتسارعة والكم الهائل من الألفاظ الذي يردنا بشكل يومي من الدول المتقدمة علينا علميا وتقنيا.

جـ - دور المجتمـع:

ذكر المفكر المصري طارق حجي في لقاء له: « إن الرابطة التي توحد العرب هي الرابطة اللغوية والثقافية الأدبية..»، وذكر أن مشروعه الفكري ركز على مجموعة من النقاط من أهمها:

التخلص من فكرة أن العقول العربية هي أقل العقول قبولا للنقد، والتأكيد على ضرورة ممارسة النقد الذاتي؛ لأن العقول التي تمارس النقد الذاتي، وتتقبل النقد من الآخرين تستطيع أن تتعلم من الآخرين، وتبدع في عملها.

الإيمان بالتعددية وممارسة الغيرية، وذلك بالانفتاح على الثقافات الأخرى وعدم التقوقع حول الذات، فالإنسان يتعلم من خلال تفاعله مع الآخرين، واستفادته من تجاربهم ليتمكن من البناء عليها، بل والإبداع فيها.

تطوير التعليم في البلدان العربية؛ لتكون قادرة على إعداد جيل يؤمن بعالمية العلم والمعرفة، وإنسانيتها في مسيرة الحضارات البشرية؛ فالعلم لا يختص بفئة معينة ، وهو ليس حكرا على شعب من الشعوب، أو دولة من الدول[١].

إن المجتمع العربي بحاجة إلى التحلي بإرادة البقاء والصمود في وجه كل الذين يحملون معاول هدم اللغة العربية لا للقضاء على العربية، إنما للقضاء على العروبة، واجتثاث حضارتها في سباق للقضاء على 90% من لغات العالم التي تفوق الستة آلاف لغة. كما إن جعل العربية لغة للمعرفة يتطلب من كل عربي تحميل لغته معارف وعلوم مختلفة، وهذا يتطلب من المجتمعات العربية عدم تهميش العربية في المعاملات اليومية، بل ينبغي أن تكون العربية هي لغة التواصل والمعاملات في المؤسسات الحكومية والخاصة.

د) دور مجامع اللغة العربية، ومؤسسات التعريب، والترجمة :

أشرت سابقا أن التعريب بالاشتقاق أو النحت هي من أكثر المناهج التي استخدمها العرب قديما لنقل تراث الأمم الأخرى إلى العربية، ولكن في العصر الحديث لم تستغل مؤسسات التعريب كمجامع اللغة العربية إمكانات العربية في الاشتقاق والنحت، مقارنة بجهود اللغة الإنجليزية في نقل المفردات من اللغات الأخرى إلى اللغة الإنجليزية؛ لذا ينبغي على مجامع اللغة العربية بذل مزيد من الجهد لمواكبة الانفجار المعرفي في العالم؛ لتتمكن العربية مواكبة الكم الهائل من المصطلحات الذي يتدفق يوميا على المجتمعات العربية.

إن تهيئة اللغة العربية، لتواكب التطور العلمي المتسارع، ولتستوعب هذا التطور لا بد من ابتكار وإنتاج مفردات تتناسب مع هذا التطور العلمي؛ وهذا يتطلب نهضة علمية في مجال البحث العلمي، وتحديث المعرفة عبر الترجمة والتعريب المستمر، وصناعة المعاجم التخصصية.

كما أن التلاقح بين اللغات أمر مطلوب، ومهم فمن خلالها يتم الانفتاح الحضاري بين الأمم، وبذلك تنمو اللغات ويقوى رصيد المفردات العربية، وهذا دور مؤسسات الترجمة والتعريب كمجامع اللغة العربية، فالعربية لن تنمو إلا بالترجمة والممارسة الصحيحة لها، واكتساب العرب القدرة على الإبداع والابتكار، فاللغة تحتاج إلى بيئة تعين على النمو

---

(١) – البقاعي، ٢٠٠٨.

والازدهار، وهذا لا يعني الوقوف عند حدود الترجمة فقط بل لا بد من الإبداع والابتكار للخروج بعلوم جديدة تضاف إلى الموروث العلمي الموجود، وهذا ما فعله العلماء العرب في القرون الهجرية الأولى؛ فهم لم يكتفوا بترجمة علوم الثقافات الأخرى، إنما أضافوا عليه وابتكروا علوما جديدة لم يسبقهم إليها أحد.

الخلاصة والتوصيات:

خلاصة القول: إنه بالرغم من التحديات الكثيرة التي تواجه اللغة العربية، إلا أننا ينبغي أن نكون على ثقة بأن العربية باقية ببقاء الحياة، ولا يمكن أن تندثر؛ وذلك لأن خالق هذا الكون تكفل بحفظها، حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾[1]. وقال أيضا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[2].

ولكن هذا لا يعطينا مبررا للتخاذل عن صونها والحفاظ على مكانتها بل يعطينا دافعا قويا لتتكاتف جهودنا لإثراء اللغة العربية وإغناء مفرداتها بالترجمة والتعريب والاشتقاق والنحت، وأيضا بتطوير مناهج تعليم اللغة العربية، والأهم من ذلك تطوير البحث العلمي في المجالات العلمية المختلفة، مع إعطاء المجال اللغوي اهتماما خاصا.

إن العربية لديها قدرة عجيبة على استيعاب أي مفردة جديدة لما تمتاز به هذه اللغة من خواص كالاشتقاق والنحت والتركيب والتعريب، وقد اعترف الغرب بقيمة و روعة اللغة العربية وتجددها المستمر أكثر من شعور أبنائها بقيمة لغتهم، ففي حين يتغنى المستشرق بالعربية وجمالها ومرونتها يتشبث العربي بمفردات لا تمت لعروبته بصلة كدليل على التمدن؛ لذا فنحن بحاجة حقيقية وماسة إلى جهود متكاتفة تصمد ضد التحديات الكبيرة التي تواجه لغتنا العربية، وهذا يتطلب تفعيل دور المجامع اللغوية، وتأكيد التعاون بينها، وتطوير البحث العلمي اللغوي، وتنمية البرامج اللغوية، وتفعيل دور اللغة في الإعلام والتعليم.

---

(١) - سورة يوسف الآية ٢.

(٢) - سورة الحجر الآية ٩.

ومن هنا توصي الورقة بالآتي:

١- تكاتف الجهود لوضع اللغة في مكانها ومكانتها الصحيحة، وهذا لن يتأتى إلا إذا شعر أبناء العربية بانجذاب وحب للعربية، فتحميل العربية بعلوم العصر بشكل مشوق وجذاب للطلاب من أهم الأدوار المنوطة بأنظمة التعليم في الوطن العربي.

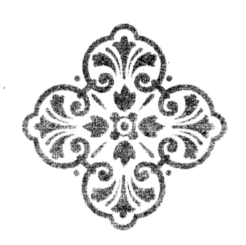
٢- دراسة إمكانية تدريس العلوم والرياضيات في المستوى الجامعي باللغة العربية، وربما تكون تجربة سوريا في هذا المجال حافزا لنا، حيث سيعين ذلك في تحميل العربية علوم العصر، وبذلك تكون مقوما من مقومات التكتل العربي المعلوماتي.

٣- تفعيل دور الإعلام ومؤسسات الإنتاج في اعتماد اللغة العربية الفصيحة في برامجها وأفلامها الاجتماعية والثقافية، حيث سيعمل ذلك على نشر اللغة العربية الفصيحة بين شرائح المجتمع المختلفة؛ خاصة أن التلفاز يستقطب شريحة كبيرة من الناس، ولساعات طويلة، وهذا الأمر يتطلب تعاونا مستمرا بين اللغويين والإعلاميين، فبعد أن كانت الكثير من الأفلام والمسلسلات تكتب وتنتج بالعربية الفصيحة، تدهور حال الإعلام العربي فأصبحوا يعرضون المسلسلات المدبلجة باللهجات المحلية بعد أن كانت تترجم باللغة العربية الفصيحة، ورغم ذلك كانت تستقطب الكثير من الناس لمشاهدتها وفهمها بالفصحى دون أدنى صعوبة.

٤- جعل العربية لغة محوسبة، وذلك بالاستفادة من التقنيات الحديثة في زيادة النشر الإليكتروني، وخاصة لإحياء أمهات الكتب العربية، ونشرها عبر الشبكة العنكبوتية (الانترنت)، لتكون في متناول الجميع، ولتطلع الأجيال على الموروث العلمي والثقافي والمعرفي الذي خلفه لهم علماء العرب القدامى الذين أبدعوا في مجالات العلوم المختلفة.

ينبغي للمجتمع العربي أن ينتبه للانحدار الذي يأخذ لغته العربية إليه، فمسايرة العمالة الآسيوية، وقبول الطريقة التي يمارسون العربية بها، بل والتمادي في استخدام الطريقة نفسها عند التواصل معهم ما هو إلا وسيلة صريحة للقضاء على العربية وتدميرها. إن العمالة الوافدة ينبغي أن تتعلم العربية كما يستخدمها أهلها دون أدنى تهاون في تراكيبها وألفاظها بالشكل الذي يخل بجمال العربية التي ما زال الغرب يتغنون به حتى يومنا هذا.

وفي النهاية ينبغي ألا ننسى مجامع اللغة العربية ومؤسسات التعريب والترجمة والدور الكبير المنوط بها في نقل وترجمة العلوم الحديثة لأبناء العربية؛ ليواكبوا النهضة المعلوماتية السريعة، كما ينبغي تفعيل دور مجامع اللغة العربية بوضع ما تخرج به هذه المجامع من مفردات ومصطلحات قيد الاستعمال اليومي عوضا عن المصطلحات غير العربية؛ وذلك لتعتاد الأجيال العربية عليها، وتصبح جزءا لا يتجزأ من لغتهم اليومية.



المراجــــع:

١- أبو جبين، عطا، قدرة اللغة العربية على استيعاب مصطلحات العصر، ورقة عمل مقدمة للمديرية العامة لتطوير المناهج (٢٠٠٦).

٢- البقاعي، مرح، حوار مع المفكر المصري طارق حجي (٢٠٠٨)، حوار منشور في:
www.aafaq.org/new.asp

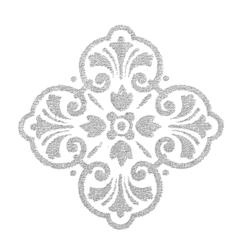
٣- الجندي، فداء، العرب والعربية في عصر الثورة الحاسوبية (٢٠٠٣)، دمشق: دار الفكر.

٤- خليفة، عبد الكريم، اللغة العربية والمصطلحات العلمية في التعبير عن فكر ابن الهيثم، القاهرة: مجلة مجمع اللغة العربية، العدد٩٥ (٢٠٠٢)، ص ٧٤-٥١.

٥- الضامن، حاتم، العامية والفصيحة في اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة (١٩٨٦).

٦- مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة المغربية، ندوة اللغة العربية والتنمية البشرية: المجالات والرهانات، ١٥-١٧/٤/٢٠٠٨.

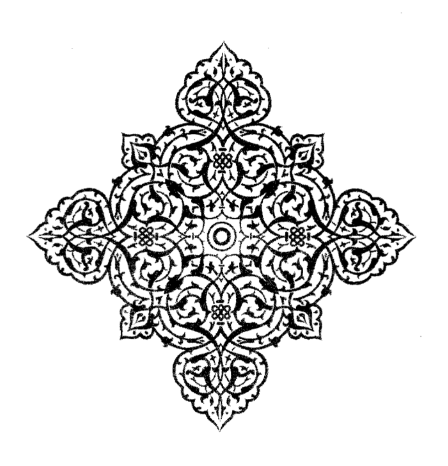
7- UNESCO (2008).." LANGUAGES MATTER" UNESCO the courier 2008 No. 1. ISSN 1993-8616.



آفاق مجتمع عمان الرقمي في ضوء مجتمع المعرفة

أ.د. داخل حسن جريو (*)

(*) يعمل مستشارا للتعليم التقني بوزارة القوى العاملة في سلطنة عمان، وشغل عدة وظائف أكاديمية مرموقة، ومن أبرزها رئاسة الجامعة التكنولوجية بالعراق، وأسهم في تحرير العديد من المجلات العلمية والثقافية، وحاز على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٩م بالعراق، وله عدة مؤلفات منها: «الترجمة العلمية ومتطلبات التعريب»، و«أسس التصميم المنطقي وتطبيقاته».





مقدمـــــة :

ازداد تأثير تقنية المعلومات والاتصالات في العقدين الأخيرين في جميع مناحي الحياة، في الشؤون المالية، والتجارية، والاجتماعية والثقافية وغيرها؛ وذلك بسب انخفاض أسعار الحواسيب وملحقاتها ، مما نجم عنه زيادة انتشار الحواسيب وأجهزة الاتصالات في البيوت والدوائر الحكومية والمدارس والمؤسسات التعليمية والتجارية والصناعية . لقد طورت منظومات اتصالات ومعلومات متقدمة لأغراض التصوير والتخزين والحسابات وغيرها. ساعدت شبكة الإنترنت على إعادة تشكيل الاقتصاد والتجارة بالإفادة من الاتصالات الدولية، ونقل المعلومات والبيانات والمعرفة إلى جميع أرجاء العالم بيسر وسهولة لا حدود لها . ولم يعد النشاط الاقتصادي في أي بلد من البلدان يعتمد على رأس المال، ومصادر الطاقة، وقوة العمل فحسب، بل باتت المعرفة تلعب دوراً بارزاً في هذا النشاط . أدت زيادة تأثير المعلومات والمعرفة على مفاصل الاقتصاد إلى بروز نمط اقتصادي جديد يعرف باقتصاد المعرفة، ويسمى هذا النمط أحيانا بالاقتصاد الرقمي أو اقتصاد الشبكة .ساعدت شبكة الإنترنت على تبادل المعلومات الهامة بين أقسام المؤسسات المختلفة، وبين العاملين في هذه المؤسسات المنتشرين في مواقع متباعدة. كما ساعدت شبكة الإنترنت على أسلوب العمل عن بعد، دون الحاجة إلى الذهاب يومياً إلى موقع العمل، كما هو متعارف عليه في أسلوب العمل التقليدي، وكذلك المساعدة في تخفيض أسعار المنتجات والخدمات التي تقدمها الشركات بسبب تقليل تكاليف التوزيع. وأصبح بإمكان الزبائن مقارنة نوعية الخدمات والبضائع وشراء ما يناسبهم منها. نجم عن هذه التطورات بروز مجتمعات جديدة تعرف حاليا بالمجتمعات الرقمية.

يشير أحد تقارير التنمية البشرية لهيئة الأمم المتحدة (UNDP) أن مجموع عدد مستخدمي شبكة الإنترنت قد بلغ عام ٢٠٠٢ في أرجاء العالم المختلفة ما مجموعه ٥٤٤,٢ مليون شخص بعد أن كان عددهم ١٥٠ مليون شخص عام ١٩٩٩ ، أي بزيادة مقدارها ٣٩٤ مليون شخص خلال ثلاث سنوات فقط، يتوزع هؤلاء المستخدمون عالمياً بنسبة ٣٣,٣٪ في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، ونسبة ٣١,٥٪ في أوربا ، و٢٨,٩٪ في شرقي آسيا والمحيط

الهادي، و٤,٧٪ في أمريكا اللاتينية، و٠,٩٪ في الشرق الأوسط، و٠,٨٪ في أفريقيا. وتبلغ نسبة المستعملين قياساً إلى مجموع السكان في المناطق المختلفة ٥٦،٦٪ من مجموع سكان الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، و ٢٣,٦٪ في الدول الأوربية، و٤,٢٪ في دول شرقي آسيا والمحيط الهادي، و ٤,٧٪ في دول أمريكا اللاتينية، و ٢,٤٪ في دول الشرق الأوسط، و ٠,٥٪ في الدول الأفريقية، وتجدر الإشارة إلى أن المعدل العام في العالم يبلغ ٨,٥٪. وتشير الإحصاءات إلى وجود فجوة رقمية مختلفة الاتساع من بلد إلى بلد آخر، ومن منطقة إلى أخرى. كذلك فإن أكثر من ٨٥٠ مليون شخص في البلاد النامية يعيشون منعزلين عن مجالات المعلومات والمعرفة، ويظل الفقراء في البلاد النامية هم الأكثر عزلة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وقد حذر الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان في تشرين الأول ١٩٩٩م أثناء انعقاد مؤتمر الاتصالات في جنيف بسويسرا، من خطر حرمان الدول الفقيرة من الاستفادة من الثورة المعلوماتية إذ لا يصح أن بلداً أوربيا صغيراً مثل السويد يفوق عدد مستعملي الإنترنت فيه عددهم في عموم قارة أفريقيا، وأن ثلثي مستعملي الإنترنت في العالم هم في خمسة أقطار فقط، هي الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وبريطانيا وألمانيا وكندا، وأن ما هو موجود من مواقع الإنترنت في مدينة نيويورك مثلاً هو أكثر مما هو موجود في قارة أفريقيا بأكملها . تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها ما يقرب من ١٠٧ مليون (SERVERS) موزعاً على شبكة الإنترنت أي ما يمثل قرابة ٧٥ بالمائة من مجموع الموزعات على الشبكة، وأن عدد موزعات (SERVERS) لكافة الدول العربية لا يتعدى ١١٢ ألف.كما تتباين الدول الأوربية نفسها، ففي السويد والدانمارك وفنلندة يملك ثلثا السكان وسائل اتصال بالانترنت مقابل عشر السكان في دول حوض البحر المتوسط.وعلى صعيد اللغات المستعملة في شبكة الانترنت تقع اللغة الإنكليزية في المقدمة بنسبة ٤٠٪، تليها اللغة الصينية بنسبة ٩,٨٪، واللغة اليابانية بنسبة ٧,٢٪. بينما يبلغ عدد مواقع الإنترنت باللغة الإنكليزية ما نسبته ٨٠٪ من مجموع المواقع في العالم.

تسلط هذه الدراسة الضوء على أبرز معالم المجتمعات الرقمية، مع إشارة خاصة إلى المجتمع العماني الرقمي الذي يتبلور تشكيله حاليا.

-١-

بعض خصائص المجتمعات الرقمية:

تتميز المجتمعات الرقمية بخصائص معينة أبرزها الآتي:

١- الحكومة الإلكترونية:

يقصد بالحكومة الإلكترونية قيام دوائر الحكومة المختلفة بإنجاز المعاملات الحكومية باستعمال شبكة المعلومات الدولية، والوسائل الإلكترونية المختلفة. لقد ساعدت التطورات الحاصلة في مجالات الشبكات والتصوير المرئي وتعشيق الرسومات على إنشاء مواقع حكومية على شبكة المعلومات الدولية، تحتوي هذه المواقع على معلومات حكومية كثيرة يمكن التعامل معها مباشرة عبر شبكة المعلومات الدولية، إذ أصبح بإمكان المواطنين إنجاز الكثير من معاملتهم دون الحاجة للذهاب شخصيا إلى تلك الدوائر. قامت الكثير من الدول بإنشاء حكوماتها الإلكترونية منذ أواخر القرن المنصرم، وحققت نجاحات مهمة بذلك.

يتطلب إنشاء الحكومة الإلكترونية توفر الإرادة السياسية المنفتحة والمؤمنة بجدوى خدماتها، وتذليل العقبات القانونية التي قد تواجهها أثناء عملها ، والعمل على تكامل خدمات ومهام الدوائر الحكومية المختلفة . و لكي ينجح مشروع الحكومة الإلكترونية في أي بلد من البلدان لابد من رؤية علمية واضحة لعمل دوائر الحكومة المختلفة وترابطها ببعضها من جهة، وترابطها بالمواطنين وقطاعات المجتمع من جهة أخرى، وإعادة نظر جادة وشاملة بجميع إجراءات هذه الدوائر، وهيكلية عملها بهدف تبسيط هذه الإجراءات وتحديثها بما يتماشى ومفاهيم الإدارات الحديثة، وتحسين جودة عمل هذه الدوائر ورفع كفاية أدائها، وبناء علاقات إنسانية بين موظفي الحكومة والمواطنين في إطار مفهوم الخدمة العامة. كما يتطلب المشروع رفع الوعي ونشر الثقافة الرقمية بين موظفي الحكومة، وبين فئات المجتمع المختلفة لاسيما الفئات العمرية الكبيرة، والفئات النسوية، وسكان القرى والأرياف، وبخلافه ستكون الإفادة من خدمات الحكومة الإلكترونية محدودة جداً، وبذلك لا تتحقق الجدوى الاقتصادية والفائدة المجتمعية من إنشاء مثل هذه الحكومات .

٢- التعليم الإلكتروني :

شهد التعليم الإلكتروني اهتماما متزايداً في دول العالم المختلفة منذ إنشاء الشبكة العنكبوتية العالمية عام ١٩٩١، إذ فتحت الشبكة آفاقاً رحبة لنشر التعليم بأنواعه بين أوسع قطاعات الناس، بتكاليف مالية مناسبة ، وبصرف النظر عن الزمان والمكان، ودون الحاجة إلى الذهاب إلى المواقع الدراسية ، ودون شروط محددة للعمر أو مدة الدراسة. والتعليم الإلكتروني شأنه شأن أنماط التعليم الأخرى، يتطلب تواصل فعال مع المعرفة ، والتفاعل الخلاق بين المعلمين والمتعلمين، سواءً أكان ذلك في الصفوف الدراسية وجهاً لوجه، أو عبر الوسائل التقنية في أسلوب التعليم الالكتروني أو التعليم عن بعد ، بصورة أو بأخرى عبر شبكة الإنترنت . تعتمد فاعلية التعليم الإلكتروني على التواصل بين المعلمين والمتعلمين أخذاً وعطاءً، وعلى التواصل والتفاعل بين المتعلمين أنفسهم.

يمتاز التعليم الإلكتروني بثلاث مزايا :

١. الارتباط بشبكة معلومات يمكن من خلالها تحديث المعلومات وخزنها واسترجاعها، وبثها للاستفادة منها بصورة فردية أو جمعية.
٢. إيصال المعلومات إلى طالبيها عبر الحاسوب باستعمال تقنيات الإنترنت والإنترانت.
٣. الاهتمام بالتعليم بمفهومه الواسع .

٣- الاقتصاد الرقمي :

يقصد بالاقتصاد الرقمي النشاط الاقتصادي الذي يستند إلى شبكة الإنترنت، ويشتمل ذلك الشركات التي تعود عائداتها (كلياً أو جزئياً) من أنشطتها على الشبكة، أو أن منتجاتها أو خدماتها متعلقة بالشبكة. ساعدت شبكة الانترنت الشركات على تحسين سبل التعاون مع الزبائن، وتحسين الخدمات، وزيادة كفاية تسويق منتجاتها، وتوزيعها في جميع أرجاء العالم بيسر وسهولة. كما ساعدت شبكات المعلومات الداخلية المعروفة بالانترانت على تبادل المعلومات بين أقسام الشركة الواحدة المختلفة من جهة. كما أنها أتاحت للزبائن فرصاً أفضل لمقارنة منتجات الشركات المختلفة والمفاضلة فيما بينها، وحتى طلب منتجات حسب مواصفاتهم الخاصة. تعد الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ودول الاتحاد الأوربي

في مقدمة البلدان المتقدمة في مجالات الاقتصاد الرقمي المختلفة. وقد احتل الاقتصاد الرقمي اهتمام قادة دول الاتحاد الأوربي، إذ أصبح في مقدمة أوليات هؤلاء القادة منذ مؤتمرهم في مدينة لشبونة منذ شهر آذار من العام ٢٠٠٠، واتخاذهم قراراً أن يصبح اقتصاد أوربا اقتصادا رقمياً قوياً ومنافساً لاقتصاديات الدول الصناعية الكبرى .

يتميز الاقتصاد الرقمي بمزايا عديدة ، أبرزها الآتي :

١ . هيمنة تقنيات المعلومات والاتصالات على جميع أنشطته. إذ طورت أجهزة الحواسيب لزيادة قدراتها الحسابية وسعاتها لتخزينية ، مما أسهم بشكل فاعل في تنشيط دورة الحياة الاقتصادية، لاسيما أن أسعار هذه الحواسيب تشهد انخفاضاً مستمراً . كما طورت قدرات الحواسيب البرمجية، لتنفيذ العمليات الحسابية المعقدة ، وتعزيز قدرات مستعمليها لإعداد وثائق أوساط متعددة بتكامل الصوت والصورة والرسوم البيانية والنصوص . كما ربط العالم بأكمله عبر كيبل ألياف بصرية ذات سعة ونطاقات عالية، وشبكات أقمار صناعية ذات مسارات أرضية واطئة، فضلاً عن تطوير بروتوكولات اتصالات لإعداد الوثائق باستعمال برمجيات معينة.

٢. استعمال تقنيات العالم الافتراضي، أي تمثيل المنتجات الصناعية، مثل السيارات والكتب، والملابس، والمنتجات الزراعية وغيرها، تمثيلاً افتراضيا، والتعامل مع هذا التمثيل الافتراضي وكأنه واقعٌ حقيقيّ حتى قبل الشروع بتصنيعه.

٣ . التفاعل المباشر بين المؤسسات المختلفة في أنحاء العالم المختلفة لأغراض التصنيع، وتسويق المنتجات، وتحديد مواصفاتها المطلوبة.

٤. اعتماد المعرفة بأشكالها المختلفة اعتمادا كبيراً، لتطوير المنتجات الصناعية وتسويقها بالوسائل الإلكترونية، والاستجابة لأذواق الزبائن بصورة أفضل. أصبح بإمكان الناس في أي مكان وزمان التواصل فيما بينهم وتبادل المعلومات، وهو أمر يعني تعاون أكثر من مؤسسة في دول مختلفة لتصنيع الكثير من المنتجات الصناعية، وتسويقها دولياً عبر شبكة الإنترنت في الوقت نفسه ، خلافاً لما كان عليه الحال في الثورة الصناعية.

٥. إلغاء دور الوسطاء والوكلاء التجاريين، إذ تعرض المنتجات عبر شبكة الإنترنت، ويتم البيع والشراء بصورة مباشرة، مما ينجم عنها تخفيض أسعار هذه المنتجات.

٦. بروز نمط عمل جديد يتمثل بإمكانية العمل عن بعد في مواقع عمل افتراضية. يقصد بمواقع العمل الافتراضية العمل في البيوت دون الحاجة للذهاب يومياً إلى مواقع العمل الحقيقية، باستخدام شبكات المعلومات، والحواسيب الشخصية، والهواتف الخلوية، ومكائن الفاكس وغيرها . ويزداد عدد هؤلاء العمال عاماً بعد آخر في مختلف الدول الصناعية، في أمريكا الشمالية والأقطار الأوربية واليابان وأقطار جنوبي شرقي آسيا، بعد أن ثبت نجاح هذا النمط من العمل بتحقيق كفاية إنتاجية أعلى ، واستجابة أفضل لظروف العاملين أنفسهم.

٤- التجارة الإلكترونية :

يقصد بالتجارة الإلكترونية المبيعات والتبادلات التجارية عبر الوسائل الإلكترونية بدلاً عن التبادل التجاري المباشر بين الأشخاص. وقد تطورت التجارة الإلكترونية نتيجة الأغراض التجارية المتزايدة، والإفادة من التقنيات الجديدة في مجالات الحاسوب والمعلومات والاتصالات. تمتاز التجارة الحديثة بقدرات تجهيز البضائع والسلع المتزايدة، وبالتنافس الشديد في الأسواق المحلية والدولية على السواء، والتغيرات المستمرة بأذواق الزبائن لأسباب كثيرة. ولمواجهة هذه المتطلبات قامت المؤسسات التجارية بإعادة تنظيم هياكلها وأساليب عملها، وذلك بإزالة الحواجز بينها وبين زبائنها ومجهزيها إلى أبعد قدر ممكن.

تعد التجارة الإلكترونية أحد أنجع الوسائل لتحقيق الاندماج بين المؤسسات التجارية والأسواق المختلفة على المستوى المحلي والدولي بصورة مرنة وبكفاية عالية، بالتنسيق مع مجهزيها، وبما يستجيب لحاجات زبائنها ورغباتهم بصورة أفضل، إذ تتيح للشركات انتقاء أفضل المجهزين بصرف النظر عن مواقعهم الجغرافية، كما تتيح لهم تصريف منتجاتهم في الأسواق الدولية بصورة سريعة ومباشرة، وبمرونة عالية، دون التقييد بالمكان أو الزمان، وبأسعار تنافسية تكون غالباً لمصلحة الزبائن.

٥- خدمات السفر والترفيه والسياحة الإلكترونية :

وفرت شبكة الإنترنت الفضاء المثالي لتوفير المعلومات المحدثة باستمرار عن المقاصد السياحية، لتصبح المصدر الأول للحصول على المعلومات، الأمر الذي شارك في انخفاض دور الوسائل التقليدية للترويج السياحي. كما توفر الشبكة المعلومات الآنية عن وضع مقاعد

الطائرات والغرف الجاهزة للحجز مما أسهم في زيادة نسب الحجوزات إلكترونياً حسب إحصاءات المنظمة العالمية للسياحة، إذ بلغت ٣١٪ عام ٢٠٠٥، وحجوزات الفنادق الكترونياً ١٣٪ ، والسيارات ٢٩٪.

٦- الخدمات المصرفية والمالية الإلكترونية:

تقدم المصارف عبر شبكة الإنترنت خدماتها المصرفية إلى زبائنها بصورة أرخص من الوسائل الأخرى، إذ يمكنهم معرفة أرصدتهم المالية، أو نقل بعضها من مكان إلى آخر، أو من حساب إلى آخر. تمتلك معظم المصارف الكبرى في العالم مواقع على شبكة الإنترنت للتعريف بأنشطتها المصرفية المختلفة.

-٢-

واقع المجتمع الرقمي العربي:

يشير أحد تقارير الاسكوا إلى أن معدل الاستخدام العالمي لشبكة الإنترنت يفوق معدل الاستعمال العربي ٢٤ مرة، وأن استعمال الدول النامية يفوقه ٢،٥ مرة، وأن معدل استعمال الدول الصناعية يفوقه ٨٠ مرة. يرجع انخفاض عدد مستعملي الإنترنت في البلاد العربية لعدة أسباب، أهمها:

١. ضعف مستوى المعرفة بالحواسيب والانترنت.
٢ . ارتفاع تكلفة الخطوط المستعملة ورسوم الاشتراك.

والفجوة الرقمية قائمة كذلك فيما بين الدول العربية، إذ تمتلك الإمارات العربية المتحدة نسبة ٣١،٥ مستخدم لكل مائة نسمة، في حين أن العديد من الدول العربية الأخرى لا تتعدى نسبتها مستخدماً واحداً لكل مائة نسمة . وبالمقارنة مع إسرائيل نجد أن نسبة مستخدمي الإنترنت تتجاوز ١٦٪ من عدد السكان، وتحتل المرتبة رقم ١٢ في مؤشر الجاهزية الشبكية، وهي تسبق في هذا دولا متقدمة مثل سويسرا وفرنسا واليابان وإسبانيا وإيطاليا والنرويج، وتحتل المرتبة الأولى في تطوير نظم وحماية أمن البيانات وتحصين مواقع الإنترنت ضد الاختراق. تسعى إسرائيل إلى أن تتحول إلى أرض استقبال مميزة لعمالقة التقنية العالمية، وقد حققت نجاحات لافتة في هذا المجال، إذ لم تعد شركة (غوغل) تكتفي بأن تكون محرك الأبحاث الأكثر شهرة في إسرائيل، بل قررت إنشاء خامس مركز

للأبحاث والتطوير خارج الولايات المتحدة. وغوغل ليست شركة التقنية العالية التي تنشأ في إسرائيل، بل هناك مجموعات أوروبية عديدة، مثل: « ساب » و« سيمنز»، ومجموعات أميركية مثل أي. بي. أم، وموتورولا وسكاسيسكو ومايكروسوفت، أنشأت مراكز أبحاث وتطوير لها على جانب كبير من الأهمية. وتعتبر شركة (أنتل) الأكثر استثمارا، فمنذ العام 1974 وهي الرقم واحد عالميا في مجال صناعة الحواسيب الصغيرة، أنشأت أربعة مراكز بحث وتطوير في إسرائيل إضافة إلى مصنعين. كما تقدم الحكومة الإسرائيلية الدعم المالي للشركات المستثمرة في إسرائيل، فعلى سبيل المثال لا الحصر خصصت الحكومة عام 2005 مبلغ 525 مليون دولار دعما لشركة أنتل التي أفادت منذ العام 1974من مساعدات حكومية إجمالية مقدارها 1,275 مليار دولار، لقاء استثمارات إجمالية مقدارها 5,5 مليارات دولار، وذلك بصرف النظر عن الإعفاءات أو التخفيضات الضريبية.

أما معدل انتشار الحواسيب الشخصية في الوطن العربي فإنه يقل عن المعدل العالمي سبع مرات، وعن المعدل في الدول الصناعية 14 مرة. تقدر نسبة عدد الحواسب الشخصية لكل مائة شخص من السكان في بعض دول العالم: 62,5 حاسوباً بالولايات المتحدة الأمريكية، 47 حاسوباً بإسرائيل، 38 حاسوباً بألمانيا، 33 حاسوباً بفرنسا، 5 ,16 حاسوباً بقطر ، 13,5حاسوباً بالإمارات العربية المتحدة، 6 حواسيب بالبرازيل 1,9 حاسوباً بالصين، 0,71 حاسوباً بالجزائر، 0,58 حاسوباً بالهند ، 0,41 حاسوباً بباكستان، 20 ,0 حاسوباً باليمن.

وفي مجال الاتصالات فإن الحال لا يختلف كثيراً في الدول النامية ومنها الدول العربية، إذ لا يزيد عدد الخطوط الهاتفية في أفريقيا على هاتفين لكل 1000 نسمة مقابل 280 هاتف في الولايات المتحدة الأمريكية، و 314 هاتف في الدول الأوربية، ناهيك بالنقص الشديد في الكوادر العلمية في مجالات تقنيات المعلومات والاتصالات الذي تعانيه معظم الأقطار النامية، وافتقار العديد منها إلى الخبرات الضرورية لإرساء أسس البنى التحتية لهذا القطاع الحيوي والهام جداً، فضلا عن قلة الأجهزة المتوفرة لديها، وتواضع مواصفاتها وبطء سرعة، وضعف كفاءتها، قياساً لما هو موجود في الدول الصناعية، وجميع هذه الأمور تؤثر سلباً في مجالات التعاون الإقليمي والدولي.

تبذل معظم الدول العربية لاسيما دول مجلس التعاون الخليجية جهودا حثيثة للنهوض بقطاع الاتصالات والمعلومات، ففي المؤتمر والمعرض الدولي للاتصالات «أفريقيا تليكوم 2004 المنعقد في القاهرة في مطلع شهر أيار 2004، والمنظم من قبل الاتحاد الدولي للاتصالات تحت عنوان « الأولوية لأفريقيا »، الذي شارك فيه 40 من وزراء الاتصالات العرب والأفارقة، و30 شخصية بارزة في مجال الاتصالات، و200 شركة صناعية متخصصة، أشار وزير الاتصالات المصري إلى ارتفاع عدد الهواتف الثابتة في مصر من 4,9 مليون هاتف عام 1999 إلى 9.2 مليون هاتف في الوقت الحاضر، وازدادت خطوط الإنترنت من 300 ألف خط إلى 3,2 مليون خط حاليا، و أشار إلى أن أكثر قطاع يجذب الاستثمارات حاليا هو قطاع الاتصالات، مشيرا إلى أن الاستثمارات بلغت 450 مليون دولار في مجال المعلومات، و1,1 مليار دولار في مجال الهاتف المحمول خلال أربع سنوات، وبلغت استثمارات الشركة المصرية للاتصالات 2,1 مليار دولار. وباشرت مصر بمشروعها الجديد للإنترنت الفائق السرعة، كمرحلة ثانية من الإنترنت المجانية، وهي خدمة جديدة متميزة لنقل الصوت والصورة والبيانات على شبكة الإنترنت بسرعة وكفاية عالية تبلغ عشرة أضعاف سرعة الإنترنت الاعتيادية، وتتيح الخدمة في جميع المحافظات المصرية.

يشير تقرير التنمية البشرية لعام 2004 للأمم المتحدة إلى ترتيب البلدان العربية بالنسبة لعدد الهواتف الثابتة لعام 2002 لكل ألف شخص كالآتي:

دولة الإمارات العربية المتحدة 291 هاتفاً، قطر 286 هاتفاً، البحرين 261 هاتفاً، الكويت 204 هاتفاً، لبنان 199هاتفاً، السعودية 151هاتفاً، الأردن 127هاتفاً، سورية 123هاتفاً، ليبيا 118 هاتفاً، تونس 11 هاتفاً، مصر 107 هواتف، سلطنة عمان 92 هاتفاً، فلسطين 87 هاتفاً، الجزائر 61 هاتفاً، المغرب 38 هاتفاً، اليمن 28 هاتفاً، السودان 21 هاتفاً، جيبوتي 15 هاتفاً، جزر القمر 13 هاتف، موريتانيا 12 هاتف. أي بمعدل 81 هاتفاً لكل ألف شخص في البلاد العربية مقابل 453 هاتفاً في إسرائيل، و153هاتفاً في شرق آسيا والمحيط الهادي، و226 هاتفاً في وسط أوربا وشرقها، و175 هاتفاً في العالم .

-٣-

استراتيجية بناء مجتمع عمان الرقمي:

اعتمدت اللجنة الوطنية لتقنية المعلومات في العام 2002 استراتيجية وطنية لمجتمع عمان الرقمي، وطرحت مجموعة من المبادرات لتحقيق مجتمع عمان الرقمي المزمع تنفيذها، خلال فترة الخطة في إطار الإستراتيجية الوطنية لمجتمع عمان الرقمي، أبرزها الشبكة الحكومية الموحدة للمعلومات والبيانات، البطاقة الذكية للمواطنين والوافدين، بوابة أوبار لخدمات الحكومة الإلكترونية، مركز الخدمة الشاملة لرجال الأعمال، وشبكة التحويلات الإلكترونية للأموال. تهدف هذه الاستراتيجية إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١. إتاحة الفرصة لجميع المواطنين والمدارس والمؤسسات المختلفة، الارتباط بشبكة الإنترنت بأسرع وقت ممكن.
٢. محو الأمية الحاسوبية بين جميع المواطنين وشرائح المجتمع المختلفة .
٣. بناء مجتمع المعرفة .
٤ . إنشاء الحكومة الإلكترونية.
٥ . إشاعة التجارة الإلكترونية.
٦ . إشاعة التعليم الإلكتروني.
٧. اعتماد الوثائق الإلكترونية.

ولتحقيق هذه الأهداف لابد من اتخاذ إجراءات عديدة منها :

١. توفير اتصالات رخيصة وسريعة بشبكة الإنترنت.
٢. إتاحة خدمات الإنترنت لجميع الطلاب والباحثين.
٣. العمل بكل الوسائل على بناء الاقتصاد الرقمي.
٤. تعزيز إجراءات إنشاء الحكومة الإلكترونية.
٥. تشجيع المبادلات التجارية عبر شبكة الإنترنت في إطار التجارة الإلكترونية.
٦. نشر التعليم الإلكتروني عبر شبكة الإنترنت على أوسع نطاق ممكن.

وانبثقت عن هذه الإستراتيجية خطط وبرامج يجري تنفيذها حاليا من وزارات السلطنة ومؤسساتها المختلفة قدر تعلق الأمر بكل منها.

-٤-

واقع حال مجتمع عمان الرقمي:

تشير الوثيقة الأولى لخطة التنمية الخماسية السابعة (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٧) الصادرة من وزارة الاقتصاد الوطني عام ٢٠٠٧ إلى تطور أداء قطاع تقنية المعلومات والاتصالات خلال فترة خطة التنمية الخماسية السادسة (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٥)، بزيادة عدد خطوط الهاتف الثابت لكل ١٠٠ نسمة من ٩,٣ هاتف عام ٢٠٠٠ إلى ١٠,٦ هاتف عام ٢٠٠٥ وزيادة عدد المشتركين بخدمة الهواتف المتنقلة من ٦,٧ مشترك إلى ٥٣,١ مشترك، (ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن عدد الهواتف الثابتة في السلطنة في العام ١٩٧١ لم يتجاوز الألف هاتف) ، وازداد عدد المشتركين بالشبكة العالمية للمعلومات من ٠,٩ مشترك إلى ٢,٠ مشترك، وفي مجال تقنية المعلومات بلغ عدد الطلاب لكل حاسوب بالمدارس ٣٦٦,٢ طالبا في العام ٢٠٠٠، لينخفض العدد إلى ٢٧,٧ طالبا في العام ٢٠٠٥، وازدادت نسبة المدارس التي تستخدم تقنيات المعلومات والاتصالات في العملية التعليمية من ١٠,٢ مدرسة إلى ٧٠,٢ مدرسة، وازداد عدد الدارسين في مجال تقنية المعلومات من ١١٧٨طالبا وطالبة إلى ٥٢١٣ طالبا وطالبة للفترة ذاتها. وقد أدت المنافسة وتحسين خدمات الاتصالات إلى خفض تعريفة خدمة الاتصالات، حيث انخفضت نسبة تعريفة استخدام الشبكة العالمية للمعلومات (عبر الهاتف) إلى نصيب الفرد من الدخل القومي من نحو ٢,٢ في العام ٢٠٠٠ إلى ١,٥ في العام ٢٠٠٥ ونسبة تعريفة استخدام الهاتف المتنقل إلى نصيب الفرد من الدخل القومي من ٢,٨ إلى ١,٩.

وقد خطت سلطنة عمان خطوات رائدة في مجال الحكومة الإلكترونية في إطار الاستراتيجية الوطنية لمجتمع عمان الرقمي، والحكومة الإلكترونية المعتمدة عام ٢٠٠٢، والمنبثقة من الرؤية المستقبلية للاقتصاد العماني ٢٠٢٠. ولتحقيق هذه الاستراتيجية، أنشئت هيئة تقنية المعلومات بموجب المرسوم السلطاني رقم (٢٠٠٦/٥٢) الصادر بتاريخ ٣١ مايو ٢٠٠٦ م؛ لتكون مسؤولة عن تنفيذ هذه الاستراتيجية. وبرغم قصر المدة على استحداث الهيئة فقد قطعت السلطنة شوطا مهما باتجاه إنشاء الحكومة الإلكترونية إذ أنها قد انتقلت في غضون عام واحد من المرتبة ١١٢ عام ٢٠٠٧ إلى المرتبة ٨٤ عام ٢٠٠٨ حسب تصنيف جهورية الحكومة الإلكترونية الذي أعدته إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة.

-٥-

مبادرة عمان الرقمية:

تهدف مبادرة عُمان الرقمية لنقل المجتمع العُماني إلى مجتمع رقمي من خلال ربط وتكامل الوحدات الحكومية المختلفة في شبكة معلومات واتصال إلكترونية واحدة، لتسهيل تقديم الخدمات إلى الأفراد وقطاع الأعمال إلكترونيا.

وتسعى المبادرة لتحقيق الآتي :

١ . شبكة الخدمات الحكومية الإلكترونية الموحدة:

تعد الشبكة الحكومية بنية اتصالات وطنية تربط بين جميع الهيئات الحكومية من أجل دعم مشاريع عُمان الرقمية، و صولا إلى تطوير الخدمات العامة. حيث ستعمل على ربط جميع الوزارات ومختلف الوحدات الحكومية، وستعمل على تعزيز عدد من الخدمات الإلكترونية التي تقدمها.

٢ . قانون التعاملات الإلكترونية:

يهدف قانون التعاملات الإلكترونية إلى تشريع استخدام التعاملات الإلكترونية. وقد تمت صياغته بما يضمن عدم إلغاء صلاحية أي تعامل إلكتروني لمجرد كونه اتخذ باستخدام وسيلة اتصال إلكترونية. وينظم قانون المعاملات الإلكترونية قضايا جوهرية، مثل الشرعية الرقمية العامة، ونظام دفع الرسوم المستحقة، وشرعية الدفع الإلكتروني، ونظام حماية البيانات، والاعتراف القانوني بالتوقيع الإلكتروني، و مدى مصداقية إثبات وقبول رسائل البيانات، وتوثيق وقت وموقع إرسالها وتخزينها، وتطبيق العقود الإلكترونية، والاعتراف برسائل الإيصالات الإلكترونية، وحماية خصوصية بيانات المتعاملين من خلال مشاريع مبادرة مجتمع عُمان الرقمي، و أمن المعلومات.

٣. السجل المدني:

نظام السجل المدني من المبادرات الحكومية الرائدة والسباقة نحو عمان الرقمية، حيث دخلت الادارة العامة للأحوال المدنية بشرطة عمان السلطانية إلى مرحلة التنفيذ،

وتجهيز البنية الأساسية لبناء الحكومة الإلكترونية؛ لخدمة الأفراد وقطاع الأعمال والوحدات الحكومية. يعتبر نظام السجل المدني من الأنظمة التقنية المتطورة والمتكاملة، من حيث دقة وحداثة البيانات والمعلومات، ومن حيث التقنيات وآليات الربط والحلول المستخدمة للتشغيل. يقدم السجل المدني خدمات إصدار البطاقة الشخصية للعمانيين، وبطاقة الإقامة للوافدين، وشهادات الميلاد و الوفاة، وتسجيل وقائع الزواج والطلاق.

٤. تحويل الخدمات الحكومة إلى خدمات حكومة إلكترونية:

تسعى مبادرة عُمان الرقمية لنقل المجتمع العُماني إلى مجتمع رقمي، من خلال ربط وتكامل الوحدات الحكومية المختلفة في شبكة معلومات واتصال، إلكترونية واحدة، لتسهيل تقديم الخدمات إلى الأفراد وقطاع الأعمال إلكترونيا.

٥ .الخدمات الحكومية التجارية:

تعتبر الخدمات التجارية الحكومية خدمة ذات فاعلية عالية، تقدمها وزارة التجارة والصناعة؛ حيث ستمكن هذه الخدمة المستثمرين من إنشاء شركاتهم في السلطنة بأقل قدر ممكن من الاستمارات والمستندات، وبأقل تكلفة وفي أقل وقت ممكن. وقد عملت هيئة تقنية المعلومات بالتنسيق مع وزارة التجارة والصناعة من أجل ضم هذه الخدمة إلى إطار العمل العام للحكومة الإلكترونية، في نموذج تكاملي يمكن الوصول إليه من خلال بوابة أوبار.

٦ . قاعدة بيانات السجلات التجارية:

هي قاعدة بيانات مشتركة في هيكل الحكومة الإلكترونية، حيث يمكن للجهات الحكومية الأخرى الرجوع إلى البيانات الكاملة والحديثة لأي من الشركات إلكترونيا، عن طريق شبكة العمل الحكومية التكاملية، ويصبح رقم السجل التجاري هو الرقم المعرف لقطاع الأعمال في السلطنة. وسيتم ذلك عن طريق تسجيل واعتماد المؤسسات الخاصة من خلال « الخدمات التجارية الحكومية »، والتي بدورها ستفعل في المرحلة الأولى من مشروع بوابة أوبار للخدمات الإلكترونية.

وستعمل وزارة التجارة والصناعة على تطوير الخدمات التجارية الحكومية من خلال تقديم خدمات إلكترونية جديدة، وتحديث البرامج والتطبيقات الحالية، وذلك لضمان وتحقيق أقل قدر ممكن من الزيارات لمقر الوزارة وإداراتها الجغرافية من قبل الأفراد والمؤسسات الخاصة. كما أن بادرة أو مشروع المدفوعات الإلكترونية من ضمن البوادر التي يخطط لإدخالها لجعل عملية إنهاء أو إنجاز المعاملات أكثر سلاسة وسرعة.

٧ .البوابة التعليمية:

هي وسيلة للاتصال بين قواعد بيانات وزارة التربية والتعليم، ومنتسبيها من الهيئة الإدارية أو التدريسية في كافة القطاعات، كالوزارة والمنطقة التعليمية والمدرسة. أو بين الطالب وولي أمره وأعضاء من المجتمع المهتمين بهذا القطاع؛ بهدف تقديم خدمات إلكترونية إدارية كانت أو تعليمية، حيث يمكن الدخول إلى هذه البوابة عن طريق واجهتين ، إما بواسطة المتصفح وهو موقع الوزارة الإلكتروني، أو بواسطة الواجهة الصوتية وهي خطوط الهاتف. وستؤدي البوابة إلى دمج الوزارة ضمن إطار الحكومة الإلكترونية ، وستتمكن الوزارة من إمداد الوزارات الأخرى بالبيانات المطلوبة بطريقة إلكترونية دقيقة، وبالمقابل استقبال البيانات.

٨ .البوابة الوطنية للدفع الإلكتروني:

تهدف البوابة الوطنية للدفع الإلكتروني إلى مساعدة المواطنين على القيام بعمليات الدفع الإلكتروني عبر الإنترنت، وكذلك للمؤسسات الحكومية ولمؤسسات القطاع الخاص، كما ستمكن البوابة الوطنية للدفع الإلكتروني مستخدمي بوابة الخدمات الحكومية الإلكترونية (أوبار) من دفع رسوم الخدمات الحكومية الإلكترونية آليا في الوقت نفسه بتكامل وأمان كبير، وسوف تدعم كافة طرق الدفع المتوفرة عبر جميع منافذ الدخول لبوابة (أوبار)، سواء عن طريق الإنترنت أو الهاتف النقال.

٩ .بناء القدرات الوطنية:

وقّعت هيئة تقنية المعلومات وشركة سيرتيبورت الأمريكية اتفاقية لتأهيل نحو مائة ألف موظف عماني في مجال تقنية المعلومات، خلال ثلاث سنوات، للحصول على الشهادة العالمية للحاسوب والإنترنت، في إطار الخطة الشاملة لبناء القدرات الوطنية في مجال تقنية المعلومات، بهدف رفع كفاءتهم، والارتقاء بأدائهم المهني، بتقديم خدمات الحكومة الإلكترونية.

-٦-

واقع حال المجتمع المعرفي العربي:

يشير تقرير التنمية البشرية العربية للعام٢٠٠٢ الصادر عن الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي المعنون: نحو إقامة مجتمع المعرفة، إلى أن الوضع العام للتعليم متواضعا، مقارنة بإنجازات دول أخرى حتى في بلدان العالم النامي، ومقارنة باحتياجات التنمية الإنسانية. وما زال التوسع الكمي في التعليم منقوصا بسبب ارتفاع معدلات الأمية لاسيما بين الإناث، وما زال مستوى الالتحاق بالمراحل الأعلى من التعليم النظامي متدنيا، ولكن المشكلة الأخطر في التعليم في البلدان العربية هي تردي نوعيته ، مما يقوض أحد الأهداف الأساسية للتنمية البشرية، وهو تحسين نوعية الحياة للبشر وإثراء قدرة المجتمعات، ويطرح ذلك تحديات خطيرة في وجـه المكونـات الرئيسة للنظام التربـوي التي تؤثر في نوعية التربية، وتضم هـذه المكونـات السياسـات التعليميـة والمدرسين، وشروط عمل المربين، والمناهج الدراسية ومنهجيـات التعليـم.

ويشير التقرير إلى حداثة مؤسسات التعليم العالي، إذ أن ٧٥ ٪ من هذه المؤسسات يقل عمرها عن خمسة عشر عاماً. ويعزو التقرير انخفاض النهضة المعرفية والتقنية في الوطن العربي إلى عدم وجود نظم فعالة للابتكار ولإنتاج المعرفة، إذ يلاحظ ضآلة نصيب البلاد العربية من الابتكارات، وقصور خبرة في نقل وتوطين التقنية. ومن أهم المشكلات التي أدت إلى هذا، غياب سياسات رشيدة تضمن تأهيل القيم، والأطر المؤسسية الداعمة لمجتمع المعرفة، وعمَق هذه المشكلة الاعتقاد الخاطئ بإمكان بناء مجتمع المعرفة من خلال استيراد نتائج العلم، من دون الاستثمار في إنتاج المعرفة محلياُ، والركون في تكوين الكوادر العلمية إلى التعاون مع الجامعات ومراكز البحوث في البلدان المتقدمة معرفياً، من دون إيجاد التقاليد العلمية المؤدية إلى اكتساب المعرفة عربياً.

إن نقل وتوطين التقنية وإنتاج المعرفة بما يسمح بتوليد تقنيات جديدة يستوجبان سياقا تنظيميا محفزا لإنتاج المعرفة، ويعزز الروابط بين مؤسسات البحث والتطوير من جهة، وقطاعات المجتمع الإنتاجية والخدمية من جهة أخرى، وينميْ القدرات الوطنية على الابتكار. ويشير التقرير إلى أن البلدان العربية قد أنفقت أكثر من ٢٥٠٠بليون دولار بين عامي ١٩٨٠ و١٩٩٧ في بناء المصانع البنى التحتية، وبرغم ذلك فقد انخفض الناتج المحلي

الإجمالي للفرد خلال تلك الفترة، فهذه الاستثمارات لم تؤد إلى انتقال حقيقي للتقنية؛ لأن ما تم نقله هو وسائل الإنتاج لا التقنية ذاتها.

ويعاني البحث العلمي من شح الإنتاج، إذ يشير التقرير إلى أن عدد العلماء والمهندسين العاملين في البحث والتطوير في البلاد العربية ٣٧١ شخصاً لكل مليون نسمة، مقابل المعدل العالمي ٩٧٩ شخصاً لكل مليون نسمة، وهناك ضعف في مجالات أساسية، وشبه غياب في حقول علمية متقدمة مثل المعلوماتية وعلم الحياة الجزئي. ويعاني البحث العلمي أيضا من انخفاض الإنفاق عليه إذ لا يتجاوز الإنفاق على البحث ٠,٣ ٪ من إجمالي الناتج القومي، مقابل ٢,٧ ٪ في فرنسا، و٢٪ في السويد، و٩٪ في اليابان، و٤,٧ ٪ في إسرائيل. وتقدر نفقات هذه البحوث ١,٧ مليار دولار سنويا مقابل ٣,٥ مليار دولار لنفقات الخادمات في البيوت العربية، و٢ مليار نفقات مستحضرات التجميل، فضلا عن غياب الدعم المؤسسي، وعدم توافر البيئة العلمية المؤاتية لتنمية العلم وتشجيعه وانخفاض عدد المؤهلين للعمل في مجاله، بينما يمتلك العالم العربي ثروة بشرية مهمة وقادرة على حفز صحوة معرفية، فإن الثروة هذه مهددة بفعل سياسة أو بيئة مؤسسية غير مؤاتية للبحث العلمي والتطوير التربوي.

وفي مجال نشر الكتب يشير التقرير إلى أن حصة العالم العربي لم تتجاوز نسبة ١,١٪ من الإنتاج العالمي، تمثل الكتب الدينية منها نسبة ١٧٪، مقابل نسبة ٥ ٪ في مناطق العالم الأخرى، وفي مجال الترجمة تشير بعض الإحصاءات إلى أن ما ترجم إلى اللغة العربية منذ عصر المأمون حتى الآن لا يزيد على ١٠٠٠٠ كتابا، بينما ما تترجمه أسبانيا سنويا على سبيل المثال يفوق هذا العدد كثيرا. وتشير بعض الإحصاءات إلى أن معدل قراءة الكتب في السنة في الدول الأوربية ٧ كتب للفرد الواحد، مقابل ربع صفحة للفرد العربي.

من ذلك نخلص إلى حقيقة مفادها أن مجتمعات المعرفة تتطلب تأهيلاً وإعادة تأهيل مستمرة لمعظم الكوادر العلمية والتقنية، لتامين مواكبتها لمستجدات العلوم والتقنية، والقدرة على توظيفها؛ لزيادة الإنتاج والإنتاجية، وتحسين نوعية منتجاتها، وتخفيض تكاليفها لضمان فرص أفضل لتسويقها محليا وعالميا، وهذا يتطلب اعتماد نظم تعليمية راقية ومتطورة بالإفادة من تقنيات ومنظومات الاتصالات والمعلومات، التي أصبحت تمثل أحد أهم مرتكزات البنية التحتية لأي تطور ينشده أي بلد من البلدان.

-٧-

سلطنة عمان وآفاق مجتمع المعرفة:

يقصد بمجتمع المعرفة على وجه التحديد أنه ذلك المجتمع الذي يقوم أساسا على نشر المعرفة وإنتاجها، وتوظيفها بكفاية في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد، والمجتمع المدني، والسياسة، والحياة الخاصة، وصولا لترقية الحالة الانسانية باطراد، أي: إقامة التنمية الإنسانية. وتعد المعرفة عنصراً جوهرياً من عناصر الإنتاج، ومحدداً أساسياً للإنتاجية، بمعنى أنه ثمة تضافر قوي بين اكتساب المعرفة والقدرة الإنتاجية في المجتمع، ويزداد هذا التضافر قوة في النشاطات الإنتاجية العالية القيمة المضافة، والتي تقوم، وبدرجة متزايدة، على كثافة المعرفة والتقادم المتسارع للمعارف والقدرات. هذه النشاطات هي معقل القدرة التنافسية على الصعيد العالمي، خاصة في المستقبل، وهي من ثمة أحد المداخل للتنمية في البلدان العربية. عليه يصبح توليد المعرفة واستخدامها أمرا ضروريا للتنمية. ولأن الدول متباينة في امتلاكها لهذه المعرفة نجد أن لدى الدول الصناعية مخزونا معرفيا هائلا جدا، في حين لا تمتلك معظم الدول النامية إلا قدراً متواضعاً من هذه المعرفة، لذا فقد نجم عن هذا التباين ما يعرف بفجوة المعرفة؛ أي الفروقات بين الدول بامتلاكها المعلومات والمعارف العلمية والتقنية، ومن ثم الفروقات في القدرات على توظيف هذه المعارف لتحقيق التنمية في البلدان المختلفة في شتى مجالات الحياة. أصبحت المعلومات والمعرفة أحد أهم مصادر القوة في عصرنا الراهن، وتفوق في أهميتها مصادر الثروة الطبيعية ورأس المال وقوة العمل، أو في أحسن الأحوال؛ فإنها لا تقل عنها أهمية بتحقيق التنمية والتطور لأي بلد من البلدان، وهو أمر يتطلب بذل جهود حثيثة بكل الوسائل الممكنة لامتلاك المعرفة، وبناء مجتمع المعرفة لتحقيق التقدم والازدهار لبلادنا.

يلعب التعليم بعامة والتعليم العالي بخاصة، والبحث العلمي، وتقنيات المعلومات والاتصالات، دورا مهما في تنمية مجتمعات المعرفة، لذا أولتها الدول المختلفة اهتماما بالغا من خلال الاستثمارات المالية الكبيرة في هذه القطاعات، والتأكد من مردوداتها الاقتصادية المؤثرة في تنمية مجتمعاتها، وتحقيق فرص أفضل في المنافسة مع الدول الأخرى في جميع المجالات. وتعد فجوة المعرفة أحد أهم معالم تقدم المجتمعات ورقيها وتطورها في عصرنا الراهن، وهو أمر يتطلب بذل جهود حثيثة لإغلاقها، أو على الأقل عدم

السماح باتساعها إلى حدود يصعب معها إغلاقها في المراحل اللاحقة. يشير السيد جيمس ويلفنسون ـ أحد رؤساء البنك الدولي ـ في أحد تعليقاته إلى أن أحد أسباب فقر الناس هو عدم قدرتهم على منافسة الآخرين لافتقارهم إلى المعرفة. وتشير الوقائع إلى اتساع فجوة المعرفة بين الدول الصناعية والدول النامية أكثر فأكثر في وقتنا الحاضر، وذلك بسبب ازدياد القيود التي تفرضها الدول الصناعية على انتقال المعلومات والمعرفة إلى الدول النامية، بدعاوى حماية الملكية الفكرية، التي ازدادت حدتها في السنوات الأخيرة بدعاوى محاربة الإرهاب، وحجبها عن فئات بعينها لحرمانها من الإفادة منها في رقي شعوبها وتقدمها، في الوقت الذي يشهد فيه العالم تدفقا معرفيا هائلا في شتى العلوم والمعارف، وأن وسائل نشر هذه المعلومات، ونقلها المتمثلة بشبكات المعلومات وأقراص الحواسيب، ووسائل الاتصالات المختلفة أصبحت متاحة لجميع الدول. لقد أصبحت المعرفة العلمية والتقنية، في الكثير من الأحيان سلعة تجارية لا يمكن الحصول عليها إلا بعد دفع ثمنها إلى مالكيها الذين يحرصون أشد الحرص على احتكارها، وعدم بيعها إلا على وفق شروطهم الخاصة، وهو أمر يتطلب تضافر جهود علمائنا ومبدعينا، لتنمية المعرفة العلمية والتقنية وتبادل الخبرات لتوظيفها لأغراض رقي مجتمعنا الناهض وتقدمه.. ولتحقيق هذا الغرض لا بد من إعادة نظر شاملة وجادة في مؤسساتنا التعليمية، لتكون بحق مصدر إثراء للمعرفة العلمية والتقنية التي يمكن توظيفها في مجالات الإنتاج الصناعية والزراعية والاقتصادية، والعمل الدؤوب على تراكم هذه المعارف؛ لبناء الخبرات الوطنية المتقدمة، إذ لم تعد هناك قيمة تذكر لعلوم أو معارف لا ترتبط بصورة أو بأخرى بحاجات مجتمعاتها.

التوصيات:

وفي ضوء ما تقدم نوصي بالآتي:

١. اعتماد سياسة علمية واضحة لبناء مجتمع المعلومات والمعرفة، تنبثق عنها خططاً علمية بعيدة المدى ومتوسطة وقريبة، ومعالم لقياس مدى كفاءة تنفيذ هذه الخطط، وتحديد مدى إسهامها بتحقيق تقدم المجتمع ورقيه.

٢. نشر الثقافة الرقمية في جميع المراحل الدراسية بصورة منهجية ومنتظمة، ومناسبة لمختلف الفئات العمرية، وإلزام جميع المعلمين والمدرسين والكوادر الجامعية بالإلمام بأساسيات تقنيات المعلومات والاتصالات، ومنظومات المعلومات والتعامل معها بصورة عملية، وذلك من خلال خطة علمية يتم تنفيذها في إطار زمني محدد.

٣. البدء بإنشاء المدارس الذكية (smart schools) التي بدأت بتنفيذها أقطار عديدة في أمريكا الشمالية، والاتحاد الأوربي، وجنوبي شرقي آسيا. ويقصد بالمدرسة الذكية المدرسة المزودة في جميع صفوفها الدراسية بالحواسيب، والمتاحة فيها خدمات الإنترنيت لجميع تلاميذها، وهو أمر يعني اعتمادها على مناهج دراسية خاصة بالإفادة من تقنيات المعلومات والاتصالات، وهذه المدارس آخذة في التوسع، وهي تهدف إلى بناء جيل متعلم ومزود بالمهارات والاتصالات للتعامل بفاعلية مع متطلبات مجتمع المعرفة.

٤. نشر الوعي الوطني بأهمية تقنيات المعلومات والاتصالات، وانعكاساتها الكبيرة على رقي المجتمع وتطويره، وبخاصة بين الفئات العمرية فوق سن الأربعين سنة، إذ ما زال الكثير من أفرادها يتخوفون كثيراً من استخدام الحواسيب حتى في المجتمعات المتقدمة مقارنة بالفئات العمرية الشبابية، وكذا الحال بالنسبة للفئات النسوية ومجتمعات الريف والمناطق النائية، وكذلك فئات الدخل المحدود، أي بعبارة أخرى أن تكون تقنيات المعلومات في متناول الجميع.

٥. إقامة مراكز معلوماتية مزودة بحواسيب وشبكة معلومات في المناطق الشعبية ذات الكثافة السكانية العالية، والإمكانات المادية المحدودة، وفي المناطق الريفية والمناطق النائية التي تفتقر عادة إلى وسائل المعلومات والاتصالات الحديثة، وتشجيع الفئات العمرية فوق سن الأربعين سنة، والنساء على الإفادة من تقنيات المعلومات والاتصالات.

٦. المراجعة الدورية للبرامج والخطط للوقوف على مدى الإفادة من تقنيات المعلومات والاتصالات في التنمية الشاملة.

٧. رصد حركة تطور العلوم والمعارف في العالم، وتحديد مدى اتساع فجوة المعرفة بين بلادنا والبلدان الأخرى؛ لاتخاذ الإجراءات المناسبة الشاملة.

الخاتمة:

تأتي مبادرة عمان الرقمية الآن في سياقها الصحيح ووقتها المناسب؛ لإرساء أسس وقواعد بناء مجتمع عمان الرقمي، وصولا إلى مجتمع عمان المعرفي، مما يتطلب تضافر الجهود الخيرة لدعمها وإنجاحها بكل الوسائل المكنة. والإفادة من خبرات الدول المتقدمة التي حققت نجاحات ملموسة في بناء مجتمعاتها المعرفية، من منطلق التكافؤ، وتبادل المصالح، والمنافع المشتركة.

المصادر والمراجع:

١. تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣ ، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي التابع لبرنامج الأمم المتحدة.

٢. تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤ ، منظمة الأمم المتحدة.

٣. الحسن، عبد الله، إسرائيل من المجتمع الإسبرطي إلى ظلال مجتمع المعرفة، الجزيرة، ٢٥/٣/ ٢٠٠٧.

٤. جريو، داخل حسن، فجوة المعرفة ، جريدة الثورة، بغداد ، كانون الثاني ٢٠٠٣.

٥. جريو، داخل حسن، الفجوة الرقمية ، جريدة الثورة، بغداد، ١٣ /١ / ٢٠٠٣.

٦. جريو، داخل حسن ، دور المعرفة في التنمية الاقتصادية ، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، الجزء الثالث، المجلد ٥١، لسنة ٢٠٠٤.

٧. جريو، داخل حسن، مجتمعات المستقبل... مجتمعات إبداع ومعرفة تقنية، جريدة عمان، العدد ٢٠٠٨ ، ٥ / ١ / ٢٠٠٨ .

٨. جريو، داخل حسن ، التعليم الإلكتروني... تعليم المستقبل، جريدة عمان، العدد ٩٨٦٠ ، ٢١/ ٥ / ٢٠٠٨ .

٩. جريو، داخل حسن ، اقتصاد القرن الحادي والعشرين...اقتصاد تنمية معرفية تقنية ، جريدة عمان ، العدد ٩٧٢٠ ، ١٢ / ١٠ / ٢٠٠٨ .

١٠. جريو، داخل حسن، الحكومة الإلكترونية وآفاقها المستقبلية، جريدة عمان، العدد ١٠٠٠٧، ٢٥ / ١٠ / ٢٠٠٨ .

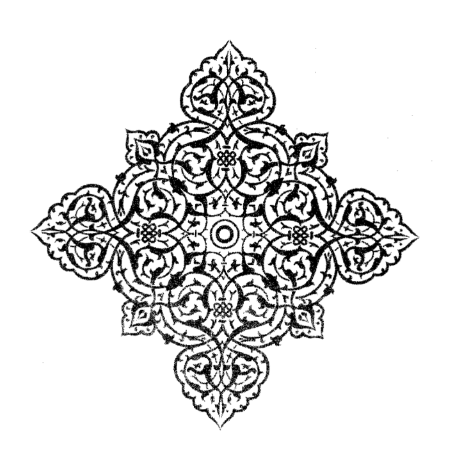
١١. عمان الرقمية، نحو مجتمع معرفي ، موقع هيئة المعلومات في شبكة الإنترنت.

١٢. الملامح الإقليمية لمجتمع المعلومات في غربي آسيا، دراسة تحليلية للنفاذ إلى المعلومات والمعرفة، منظمة الأسكوا، بيروت، ٢٠٠٧.

١٣. وزارة الاقتصاد الوطني، مسقط ، ٢٠٠٧.

١٤. وقائع مؤتمر العمل العربي، الدورة الخامسة والثلاثون، منظمة العمل العربية، شرم الشيخ جمهورية مصر العربية ، ٢٣ شباط - ١ / آذار ٢٠٠٨.

التوصيات



بسم الله الرحمن الرحيم

توصيـــات

بعون من الله و توفيقه، و بتنظيم من مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية انعقدت بجامع السلطان قابوس الأكبر ندوة « **الإسلام و مجتمع المعرفة** » و ذلك خلال يومي ٤-٥ ربيع الأول ١٤٣٠هـ الموافق ٢-٣ مارس ٢٠٠٩م ، و قد انعقدت هذه الندوة انطلاقاً من قناعة المركز بحتمية تكوين وعي عميق بطبيعة التحولات الحضارية التي يصنعها دخول مجتمع المعرفة، وما ينتجه ذلك من استحقاقات، و تحديات توجب استعداد كل المكونات الحضارية الوطنية و العربية و الإسلامية، و بما أن الإسلام هو المكون الحضاري الأول فلابد أن تكون له رؤيته الخاصة لمجتمع المعرفة القادم، و وجوب أن نتدارس تلك الرؤية لمعرفة أين يكون الثبات و أين يجوز أو يجب أن يحدث التحول ؟

لقد انطلقت فكرة الندوة من حديث صاحب الجلالة السلطان المعظم ـ حفظه الله و رعاه ـ في سيح الراسيات في فبراير من عام ٢٠٠٧م، حين نبه إلى ما توجبه التطورات المتلاحقة من تفريق بين سلاح العلم و سلاح المعرفة ، و أن التعويل الآن على سلاح المعرفة، كما استرشدت بتأكيد جلالته في خطابه في مجلس عمان في ١١/ ١١ / ٢٠٠٨م حين قال جلالته : « لقد أكدنا دوما على أهمية العلم والمعرفة، وكان نهجنا المتواصل هو الانفتاح على مستجداتهما، ولقد أصبحت تقنية المعلومات والاتصالات هي المحرك الأساسي لعجلة التنمية في هذه الألفية الثالثة؛ لهذا أولينا اهتمامنا لإيجاد استراتيجية وطنية؛ لتنمية قدرات المواطنين ومهاراتهم في التعامل مع هذا المجال، وتطوير الخدمات الحكومية الإلكترونية » و دعوة جلالته لجميع المؤسسات الحكومية للمسارعة إلى تعزيز أدائها، وتيسير خدماتها بواسطة التقنية الرقمية ، و تطلع جلالته إلى الارتقاء بالسلطنة إلى آفاق المعارف الحديثة المتجددة.

و قد تلخصت الأهداف التي توختها الندوة في الأهداف التالية :

١- الوقوف على مفاهيم مجتمع المعلومات و مجتمع المعرفة و تمحيصها .

٢- اكتشاف معالم مجتمع المعرفة القادم، و خصائص تكونه، و قوانين حراكه الاجتماعي، و مدى التحولات التي فرقته عن صيغ المجتمعات السابقة الزراعية و الصناعية .

٣- التعرف على موقع الإسلام من مجتمع المعرفة، وعلى معالم الخطاب الإسلامي الملائم له.

٤- مناقشة التصورات القاصرة في فهم أبعاد مجتمع المعرفة .

٥- الوقوف على بعض معالم تجارب مجتمع المعرفة في العالم الإسلامي .

و من أجل تحقيق هذه الأهداف فقد عالجت الندوة عبر أوراق عملها المتعددة مجموعة من المحاور الرئيسة، و هي :

١- مجتمع المعرفة (البنية و المفهوم).

٢- الرؤية الإسلامية لمجتمع المعرفة .

٣- الآفاق العربية لمجتمع المعرفة .

هذا، وقد شارك في الندوة عدد من العلماء و الباحثين ، كما ساهم بالحضور و المشاركة في مداولات الندوة مشاركون منتدبون لعدد من الهيئات و المؤسسات ، وعدد من المهتمين و المثقفين، الذين بنوا رؤيتهم على ضرورة الإدراك بأن أي مجتمع من مجتمعاتنا العربية إذا أرادت أن يصدق عليها مفهوم مجتمع المعرفة المعاصر، وإيجاده على أرض الواقع، فلا بد له من صياغة رؤية واضحة وأهداف محددة ، وخطط منهجية واعية في جميع الميادين ومختلف المجالات، وأن تكون هذه الرؤية مدعومة بإرادة سياسية و توافق اجتماعي يضمن لها الثبات و الاستمرار و التوازن ، وأن تتوفر لها الإمكانات البشرية والمادية و الجوانب التقنينية اللازمة. كما لا بد لها من إدراك الآليات و الوسائل التي انبنت عليها محاولات مجتمع المعرفة في الدول المتقدمة ، و المسارعة إلى استيعاب كل ما يحقق تقدم مجتمعاتنا ما دامت لا تصادم ثوابت المجتمع الأساسية.

و إيماناً منهم بأن مجتمع المعرفة ليس استنساخاً متعجلاً لنماذج مجتمعات المعرفة والمعلومات الأخرى، و هو إيمان يتلازم مع قناعة بأن التقدم الحضاري هو سعي إنساني مشترك لا يحجب الاستفادة من منجزه الإيمانُ بثوابت كل مجتمع، و ترشيدها لمسيرة التقدم الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي ، كما يدركون أن هذا التحول الواعي له تبعاته ومسؤلياته التي لا بد أن تتحمل، مع ما تتطلبه من التزامات و استعدادات، سواءً على مستوى الفرد أم المؤسسات، أم المجموعات أم الدولة أم الأمة .

وهم يتوافقون أيضاً على أن تلك الاستعدادات آن لها أن تتجاوز التنظير العام، والحديث المرسل إلى الخروج بمشاريع عملية، يكون كل منها عنصراً من عناصر الاستعداد للدخول الواعي لمجتمع المعرفة القادم، فكان من أهم ما خلصت إليه المداولات أن مدخلنا الرئيسي إلى مجتمع المعرفة يتمثل في: اللغة العربية، و في النظام التعليمي .

وبعد عرض أوراق العمل، و تداول النقاش حولها أوصى المشاركون بالتوصيات الآتية :

١- إيجاد مسارات تعليم متخصصة في الجامعات و مؤسسات التعليم العالي تعنى بدراسة مفاهيم مجتمع المعرفة و خصائصه الاجتماعية، و شرائط تحققه، و التحولات التي يصنعها.

٢- توجيه الخطاب الديني الدعوي، و الخطاب الإعلامي، و النظام التعليمي، إلى الانتباه إلى التغيرات التي يحدثها مجتمع المعلومات و ما يفرضه من تحول في مضامين الخطاب، يوجب العناية بأخلاقيات التقانة الحديثة، و تكوين مسارات عمل واضحة تتبلور في برامج و خطط ومبادرات عملية، و مناهج تعليمية تقوم على خدمة مفهوم و تطبيقات الأخلاق الإنسانية الرفيعة في خضم العصر الرقمي، و ربطها بقيم العقيدة و الإيمان و التزكية و الرقابة الذاتية و المواطنة الصالحة، و النهضة و التقدم، و توجيهها لخدمة البشرية قاطبة من منطلق شمولية و سماحة الدين الإسلامي.

٣- تعزيز الدعم الموجه لكل المشاريع الرسمية و الأهلية و الخاصة، المشتغلة على خدمة التراث العماني و العربي و الإسلامي رقمياً، و العمل على صنع توجه عملي لاستثمار إمكاناته وتوظيفها معرفيا، و خدمة التراث العماني، و البناء على توظيف المكونات الحضارية

العمانية بمختلف أشكالها في تأسيس صناعة المحتوى العربي العماني. و يمكن لهذا الدعم أن يترجم في شكل تسهيلات أو دعم مباشر، أو جوائز أو رعاية بحثية أو توفير المعدات الضرورية، أو عقد الشراكات القائمة على هذه التوجهات.

٤- ضرورة أن تركز المؤسسات و المجالس المعنية بالبحث العلمي، و الجامعات و المراكز البحثية المتخصصة في السلطنة و خارجها على بحوث اللغويات الحاسوبية المتقدمة، والبناء على ما تم إنجازه في العالم من تقدم في هذا المجال، و تخصيص كراس علمية متخصصة بهذا الجانب، تكون مهمتها تطوير قدرة اللغة العربية على المعالجة الحاسوبية المتقدمة، و ذلك باعتبار اللغة المدخل الأهم إلى مجتمع المعرفة.

٥- المضي في توسيع مسارات الدراسات العليا في السلطنة ، و العمل على ربطها بخصائص عصر المعلومات و تجلياته المختلفة، و تطوير طرق التعليم و التعلم باستخدام تقنية المعلومات و الاتصالات.

٦- دعوة الجهات العلمية و التعليمية و الثقافية إلى تأسيس مشاريع مصادر المعرفة الرئيسية، و على رأسها المشاريع الوطنية الكبرى كالمكتبة الوطنية العمانية، و توسيع و دعم القائم منها كالمكتبة المركزية العامة للأطفال، و دعم المبادرات الأهلية كالمكتبات العامة، و العمل على تأسيس ربط شبكي بينها و بين المكتبات الأخرى إقليمياً و عالمياً .

٧- الاهتمام بالمصادر البرمجية المفتوحة كمدخل أساسي لإقامة صناعة برمجيات عمانية، و توجيه المؤسسات الحكومية إلى جعل تلك البرمجيات مفتوحة لاقتنائها، واستخدامها لفتح إمكانيات تطويرها.

٨- توظيف المعارف الرقمية و تدفق المعلومات من أجل الارتقاء كماً و نوعاً بمستوى الأداء المؤسسي، و تبسيط الإجراءات، و إيجاد ثقافة التعامل المهاري الرقمي في كافة المؤسسات الحكومية و الأهلية.

٩- الولوج إلى عالم المهارة القائمة على العلم و المعرفة للدفع بمسيرة التنمية في شتى مجالاتها نحو آفاق أرحب، انطلاقاً من الثوابت و الخصوصية، مع الأخذ في الاعتبار مواكبة المستجدات العالمية في هذا الشأن.

١٠-إيلاء البعد الثقافي الاهتمام الكافي في المبادرات الرقمية و مشاريع الحكومة الالكترونية، باعتبار أن التقنية ليست آلات جامدة، بل عناصر مؤثرة تصنع لنفسها أنساقها الثقافية الخاصة داخل المجتمع ، و تتبادل التأثير مع المكونات الثقافية الاجتماعية.


تم بحمد الله


Bibliotheca Alexandrina
1166639

